إلين ويلكنسون

لغز جرس التصويت

ترجمة إبراهيم سند أحمد

لغز جرس التصويت

تأليف
إلين ويلكنسون

ترجمة
إبراهيم سند أحمد

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

لغز جرس التصويت

إلين ويلكنسون

The Division Bell Mystery

Ellen Wilkinson

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٠ ٢٩٢٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

إهداء	٧
تمهيد	٩
مقدمة	١٣
ملاحظة المؤلف	١٩
الفصل الأول	٢١
الفصل الثاني	٢٩
الفصل الثالث	٣٧
الفصل الرابع	٤٧
الفصل الخامس	٥٥
الفصل السادس	٦٣
الفصل السابع	٧١
الفصل الثامن	٧٩
الفصل التاسع	٨٥
الفصل العاشر	٩٣
الفصل الحادي عشر	١٠٥
الفصل الثاني عشر	١١٥
الفصل الثالث عشر	١٢٥
الفصل الرابع عشر	١٣٧
الفصل الخامس عشر	١٤٥
الفصل السادس عشر	١٥١

الفصل السابع عشر ١٦١
الفصل الثامن عشر ١٧٩
الفصل التاسع عشر ١٨٧
الفصل العشرون ١٩٧

إهداء

أهدي هذا الكتاب مع خالص اعتذاري إلى أصدقائي الأوفياء من رجال الشرطة والعاملين في مجلس العموم.

تمهيد

عندما وقع هذا الكتاب بين يدي، كان هدفي الأساسي معرفة المزيد عن ثقافة مجلس العموم في الفترة بين الحربين العالميتين وعن وضع المرأة في البرلمان. لكن مع نهاية الفصل الأول، انتابني حماس كبير بفضل الدمج بين التشويق لمعرفة مرتكب الجريمة والتعقيب السياسي الذي تُبْرع إلين ويلكينسون في تقديمه.

كانت ويلكينسون من أوائل نساء حزب العمال اللائي دخلن البرلمان، إذ انتُخبت عن دائرة شرق ميدلزبره في الانتخابات العامة التي أُجريت عام ١٩٢٤، وفي تلك الانتخابات مُنيت ثلاث مرشحات من حزب العمال بالهزيمة في مواجهة الفوز الساحق الذي حققته حكومة الأقلية الغارقة في المشكلات برئاسة رامزي ماكدونالد. ترعرعت ويلكينسون في بلدة فقيرة بمدينة مانشستر يعمل أبناؤها في المناجم، وتتذكر أن السُّخام لم يترك حتى أوراق الأشجار إذ تحوَّلت إلى اللون الرمادي. لكن سرعان ما اعتراها شغف جامح يطمح إلى العدالة الاجتماعية. ولَّما تمكنت من الحصول على منحة بجامعة مانشستر — وهو إنجاز عظيم بالنسبة إلى امرأة من الطبقة العاملة — أصبحت منسقةً سياسية ومدافعة عن حق المرأة في التصويت وعضوًا في مجلس مدينة مانشستر.

عندما دخلت البرلمان عام ١٩٢٤، لم يفصل بين دخولها ودخول أول امرأة إليه (نانسي أستور) أكثر من خمس سنوات. ويلكينسون كانت المرأة الوحيدة التي في مقاعد حزب العمال بالبرلمان، وفي أول كلمة لها بالبرلمان قالت عن نفسها مازحة إنها واحدة من «أيتام العاصفة»، ولكن هذا لم يكن عائقًا أمام ثقتها وحماسها اللانهائي والتزامها المطلق بالسياسات البرلمانية. كان طول ويلكينسون ٤ أقدام و١٠ بوصات وشعرها أحمر كاللهب، ما ينمُّ عن سياساتها اليسارية ومِن ثَم لُقبت باسم «إلين الحمراء» و«صاحبة الطاقة النارية» و«الشغوفة الصغيرة» (بسبب مشاركتها في حملات الحرب

الأهلية الإسبانية). سرعان ما حققت ويلكينسون قدرًا من الشهرة، فقد اشتهرت بولعها بالملابس الملونة وتعدُّد عَلاقاتها العاطفية بالرجال المتزوجين والاستقلال في الفكر. وفي داخل القاعة، أتيحت لها فرصة الحديث أكثر من أعضاء البرلمان المنتخبات وحصدت غالبية الأصوات على الرغم من نوبات اعتلال صحتها. كانت نانسي أستور ترتدي بِزَّة بسيطة باللونين الأبيض والأسود وقبعة تريكورن، ولكن ويلكينسون تجاهلت نصائحها وكانت ترتدي ملابس لافتةً للنظر. كذلك كانت أول امرأة تتجرأ وتدخل إلى حصن الرجال، ألا وهو قاعة التدخين. وعندما خاطبها شرطي وأخبرها أن السيدات لا يترددن على قاعة التدخين عادةً، ردت مازحة: «أنا لست سيدة، بل عضو في البرلمان»، ودفعت الباب وفتحته غير مبالية به.

لكن على الرغم من النجاح الذي حققته ويلكينسون في البداية بصفتها رائدة نسائية، فإنها أُزيحت في العاصفة الكبرى — مثل زميلاتها — إذ كانت تلك العاصفة أعنف من سابقتها؛ إنها عاصفة انتخابات عام ١٩٣١. بعد أربع سنوات، عادت إلى البرلمان، ولكن في تلك الفترة عكفت على كتابة أعمال في كل من المجالين القصصي والسياسي. ولأن ويلكينسون من أشد المتحمسين لألغاز جرائم الاغتيال لدرجة أنها أسمت غلايتها «أجاثا» على اسم بطلتها الروائية أجاثا كريستي، فقد تحلَّت بالجرأة والحماسة ودخلت المجال الأدبي بالجرأة والحماسة نفسيهما اللتين دخلت بهما قاعة التدخين في البرلمان. أُلِّف الكتاب على أعتاب مرحلة انتقالية في العصر الذهبي لروايات الجريمة، وحينذاك كان هذا الضرب الأدبي يستبدل الدراما ذات الصبغة السياسية بالقصص الخيالية تدريجيًّا. لذا نجد جزءًا كبيرًا من القصة مستمدًّا من المناخ السياسي حينذاك؛ على سبيل المثال، القرض المصيري الذي تفاوضت عليه الحكومة مع الممول الأمريكي أويسيل إشارة جلية على الصعوبات التي كانت تواجهها الحكومة البريطانية إثر انهيار بورصة وول ستريت عام ١٩٢٩. يتخلل التعقيب السياسي كل فصول القصة، ولكن على الرغم من قوة الأيديولوجية السياسية لدى ويلكينسون، فإنها لم تنحدر البتة إلى محاولة كسب النقاط على المستوى السياسي. بل إن خبرتها السياسية أضفت لونًا وحماسةً على الدراما التي ترويها. في الحقيقة، هي تقدم الشخصية المحورية في قصتها بصفته شخصًا يحظى باحترام كامل؛ شاب مُرهَف العواطف وعضو في حزب المحافظين كما أنه يعمل سكرتيرًا برلمانيًّا خاصًّا في أدنى المراتب الوزارية. لا شك أن ويلكينسون استرشدت بخبرتها في عملها سكرتيرة برلمانية خاصة لدى البرلمانية من حزب العمال سوزان لورانس في الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ في رسم

صورة لشخصية ذلك الشاب. وعلى الرغم من تأكيد ويلكينسون (ربما الساخر) أن «جميع الشخصيات في تلك القصة من وحي خيال المؤلف»، فإن هناك أوجهَ تشابهٍ واضحة بين ويلكينسون نفسها وعضو البرلمان عن حزب العمال جريس ريتشاردز، وكذلك بين السيدة أستور وسيدة المجتمع القوية والمتألقة السيدة بيل كلنتون.

يمكن رؤية وضع البرلمان والمكائد السياسية التي تصورها ويلكينسون في البرلمان اليوم. ففي كل يوم تقريبًا، أمشي في الطرقة المجاورة للشرفة التي تؤدي إلى ما تشير إليه ويلكنسون باسم «قاعة هاركورت» (وأعتقد أنها قاعة تشرشل، وهي عبارة عن غرفة طعام كبيرة مزينة بلوحات لرئيس الوزراء في فترة الحرب)، وملحقة بها غُرف طعام صغيرة موسومة بـ «الحروف الهجائية» ومن ضمنها الغرفة المشئومة «الغرفة جيه» (التي وقعت فيها حادثة الاغتيال). في إحدى الليالي، بعد فترة من قراءة كتاب ويلكينسون، كنت أتمشى في الطرقة في وقت متأخر من الليل إذ ذهب معظم أعضاء البرلمان إلى منازلهم وكدت أرتعد خوفًا حينما دق جرس التصويت بصوت حاد.

كانت ويلكينسون شخصية برلمانية حقيقية، ومعرفتها بالمكان تتجلى بين صفحات الكتاب. إنها في عجلة من أمرها دومًا، وقد اشتهرت في الأوساط البرلمانية بنزعتها الطبيعية الكبيرة إلى التعثر، ولذا أهدت الكتاب إلى أصدقائها من الشرطة والعاملين في مجلس العموم الذين ساعدوها كثيرًا على النهوض. كانت محبوبة ويُكَنُّ لها الاحترام بين الأوساط الحزبية لدرجة أن مجموعة من أعضاء البرلمان من حزب المحافظين — المستائين من قلة الاهتمام الذي توليه لنفسها — اشترَوا لها موقدًا كهربائيًّا (ربما تشجيعًا لها على الطهي بدلًا من الاعتماد على نظامها الغذائي المعتاد المكوَّن من السجائر والشوكولاتة). في عام ١٩٣٥، عادت إلى البرلمان بصفتها عضوًا عن دائرة جارو، وفي العام التالي، برز وضعها بوصفها ناشطةً وسياسيةً راديكالية ومتحمسة من الأعماق بفضل دورها في تنظيم «حملة جارو»، وهي مسيرة ضمَّت ٢٠٠ عاطل خرجت من مدينة جارو إلى لندن احتجاجًا على بلوغ البطالة ٨٠٪ بعد إغلاق حوض بناء السفن ومصانع الحديد والصلب في المدينة. بعد ذلك، أصبحت ويلكينسون ثاني امرأة تدخل إلى مجلس الوزراء بصفتها وزيرة للتعليم في حكومة كليمنت أتلي عام ١٩٤٥، وحينها دافعت عن رفع سن ترك المدرسة وعن تقديم وجبات الحليب في المدارس مجانًا. وفي شتاء عام ١٩٤٦، تُوفيت ويلكينسون فجأة بسبب جرعة زائدة من دواء الميدينال، وهو أحد الأدوية التي كانت تتناولها بسبب زيادة اعتلال حالتها الصحية. كانت وفاتها فاجعة للبرلمان وحزب العمال كما كانت نهاية مأساوية لمسيرة برلمانية متفانية ومثمرة. أتلفَ أخو ويلكينسون مذكراتها خوفًا من أن تتشوه سمعتها

بسبب الأخبار المتداولة عن عَلاقاتها مع الرسام فرانك هورابين ووزير الداخلية هربرت موريسون وغيرهما. وتبقَّت خُطَبها ومقالاتها وقُصاصاتها الصحفية وروايتان. لكن ما لا يمكن أن يضيع هو إرثها بصفتها مناصرةً للمرأة في البرلمان.

راشيل ريفز — عضو برلماني عن دائرة غرب ليدز

مقدمة

السياسة في العصر الذهبي للروايات البوليسية

إن الروايات البوليسية التي نُشرت خلال العصر الذهبي لروايات ألغاز الاغتيالات بين الحربين العالميتين لم تأخذ حقها في التقدير لفترة طويلة. شاع لسنوات عديدة نبْذُها باعتبارها رواياتٍ خياليةً وتقليدية وتحفظية. هذه الصورة النمطية الباعثة على الكسل (وما زالت كذلك في بعض الأماكن) تدعو إلى الأسف لأنها أدت إلى إهمال العديد من الأعمال البوليسية الممتعة بمجرد توقُّف طباعتها. بالطبع حازت أعمال أجاثا كريستي قدرًا من الشهرة، كما نجت أعمال بعض الكُتَّاب الآخرين وسمعتهم من براثن النسيان، ومنهم دوروثي إل سايرز. ولكن إلى أن انتعش الاهتمام مرة أخرى بالروايات البوليسية التي كُتبت في العصر الذهبي بفضل نجاح الأعمال الكلاسيكية التي تدور حول الجريمة والتي نشرتها المكتبة البريطانية — نجاحًا جزئيًّا على الأقل — راح معظم المؤلفين في العصر الذهبي طي النسيان من جانب كل المعجبين باستثناء حفنة من المتعصبين منهم.

لكن الصورة النمطية لم تكن سطحيةً فحسب، بل كانت مضللة أيضًا. على سبيل المثال، لم يكن هناك شيء من الدفء والحميمية في الفصل الأخير من رواية فرانسيس إلز «قبل ارتكاب الجريمة»، ولا في الصفحات الأخيرة من رواية إي آر بانشون «لغز الكلمات المتقاطعة». والشيء نفسه ينطبق، في حقيقة الأمر، على روايتي كريستي «ثم لم يبقَ أحدٌ» ولا «خمسة خنازير صغيرة». كان هناك قدر ضئيل من التقليد في رواية «مستندات الحقيبة»

لسايرز وروبرت يوستاس، ورواية «إلى المجد» للكاتب ميلوارد كينيدي، ورواية «ماجدالين الوحيدة» للكاتب هنري ويد، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وبالمثل، فإن المقولة السائدة بأن «كل الكُتَّاب البريطانيين تقريبًا» في العصر الذهبي كانوا «يمينيين بلا ريب» بعيدة كل البُعد عن الصحة، (هذه المقولة تلفَّظ بها جوليان سيمونز، وهو أفضل ناقد بريطاني في روايات الجريمة في النصف الثاني من القرن العشرين وفي تاريخه المؤثر في هذا الضرب الأدبي عن «القتل الدموي»). حتى إنه توجد مجموعة صغيرة من الكُتَّاب البارزين ممن انضموا إلى «نادي الروايات البوليسية» في ثلاثينيات القرن العشرين، ومنهم نيكولاس بليك إذ انضم إلى الشيوعية لفترة وجيزة، واللورد جوريل إذ كان شخصية بارزة في حزب العمال في فترة ما، وعضوا الجمعية الاشتراكية الفابية دوجلاس ومارجريت كول، والصحفي السابق بجريدة «ديلي هيرالد» آر سي وودثورب وشخصيات أخرى ذات ميول يسارية أمثال بانشون وكينيدي وهيلين سيمبسون، وكذلك أول رئيس للنادي جي كيه تشيسترتون. من بين الكُتَّاب الناجحين في العصر الذهبي ممن قد تُصنَّف سياستهم اليوم بأنها «أقصى اليسار» بروس هاميلتون ورايموند بوستجيت والناقد والشاعر الماركسي كريستوفر سانت جون سبريج، وأشهر دور النشر في تلك الحقبة هي التي أسسها فيكتور جولانكز، كما أنه مؤسس نادي الكتاب اليساري. وبوجه عام، يُعزى المصطلح «العصر الذهبي للروايات البوليسية» نفسه إلى جون ستراتشي، وهو ناقد ماركسي عمِل وزيرًا للدولة لشئون الحرب في حكومة كليمنت أتلي بعد الحرب. بعبارة أخرى، كانت إلين ويلكينسون بعيدة كل البعد عن كونها الروائية اليسارية الوحيدة التي كتبت رواياتٍ بوليسية.

قد يعود تفسير الخرافة بأن كُتَّاب العصر الذهبي كانوا من أنصار مبادئ حزب المحافظين إلى أن كلًّا من كريستي وسايرز وأنطوني بيركلي وفريمان ويلز كروفتس وإتش سي بايلي ووويد كانوا جميعًا من أفضل كُتَّاب الروايات البوليسية في عصرهم، وكانت تطلعاتهم في الحقيقة تتسق مع جوهر مبادئ المحافظين. الأعمال الروائية عن الجريمة التي كتبها زملاؤهم الراديكاليون تميل إلى القِصَر وقلة الشهرة. على سبيل المثال، تُوفي كلٌّ من سبريج وسيمبسون في سن مبكرة، وعلى الجانب الآخر لم يكتب وودثورب وهاميلتون وكينيدي أعمالًا كثيرة. لا ريب (وللأسف) أن الوظائف السياسية السابقة في الحياة الواقعية منعت إلين ويلكينسون من كتابة روايات بعد الرواية التي بين أيدينا. لكن حتى كريستي كتبت رواية واحدة كان القاتل «الأقل احتمالًا» فيها عضوًا أساسيًّا في مؤسسة سياسية،

وحتى البارونيت ولاعب الكريكت ويد لم يخشَ النظر إلى وحشية جهاز الشرطة وفساده في سياق ألغازه الإبداعية التي غالبًا ما كانت معقدةً للغاية.

باعتبار كلٍّ من إلين ويلكينسون واللورد جوريل سياسيَّين ألَّفا روايات كلاسيكية عن الجريمة، فإنهما روائيان من طراز استثنائي، ولكن يبدو أن قراءة الروايات البوليسية الهواية المفضلة لدى شخصيات سياسية رائدة في البلدان الواقعة على جانبي المحيط الأطلسي. وُلد المؤلف جيه إس فليتشر في يوركشاير، وله مؤلفات كثيرة كما تعززت مسيرته المهنية بفضل الدعاية التي وفَّرها دعم الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون لأعماله. وعلى الجانب الآخر، صرح ستانلي بالدوين الذي تقلَّد منصب رئيس الوزراء البريطاني ثلاث مرات في خطاب له عام ١٩٢٨ أنه يعتبر رواية «قضية ليفنوورث» التي كتبتها الأمريكية أنَّا كيه جرين «واحدة من أفضل الروايات البوليسية على الإطلاق». السيد أوستن تشامبرلين هو الأخ غير الشقيق لنيفيل تشامبرلين كما أنه فشِل بفارق ضئيل في أن يصبح زعيم حزب المحافظين، وقد دُعي إلى حفل عشاء في «نادي الروايات البوليسية» بصفته ضيفًا متحدثًا، وحينها أخبر الحاضرين أنه معجب «شره ومهتم وشغوف» بهذا الضرب الأدبي. أدار فيكتور جولانكز قسمًا لكنه لم يستمرَّ طويلًا أسماه «مكتبة تحريات رئيس الوزراء» على الرغم من أن السبب وراء اعتقاده بأن هذا الاسم سيكون له جاذبية كبيرة لغز في حد ذاته.

في الحقيقة، كانت المساهمة الأساسية التي قدَّمتها فئة السياسيين في الروايات البوليسية الكلاسيكية هي تقديم مصدر موثوق فيه وغزير للضحايا. بالإضافة إلى ظهور الممولين الأوغاد والبخلاء البغيضين والأثرياء الذين لا يتمتعون بالحكمة في الإعلان عن نيتهم في تغيير وصاياهم، ظهر السياسيون مرارًا وتَكرارًا في روايات العصر الذهبي — إذ لا يُحتمل أن يُندب على الموتى كثيرًا. من الروايات في تلك الحقبة رواية روبرت جور براون «اغتيال برلماني!» ورواية ألان توماس «موت وزير الداخلية»، ورواية هيلين سيمبسون «مات رئيس الوزراء» (تلك النسخة الأمريكية، أما في بريطانيا فأخذت عنوانًا يكتنفه الغموض «مُضرب واتته الفرصة»). لم تكن القصة البوليسية التي كتبتها إلين ويلكينسون هي القصة الوحيدة التي تدور أحداثها في الأوساط البرلمانية؛ تدور أحداث رواية أنطوني بيركلي «موت في المجلس» حول «جريمة مستحيلة» وقعت في مجلس العموم.

في عشرينيات القرن العشرين، عبرت الروايات البوليسية في العصر الذهبي عن تفاعل تجاه مذبحة الحرب العالمية الأولى. كان الناس يسلون أنفسهم بالألغاز ويتخذونها وسيلة للهرب من الأهوال التي لم تترك سوى قلة من العائلات البريطانية من دون مساس؛ ومن

هنا جاء «الهروب إلى الخيال» إذ نبع من الألغاز الكلاسيكية حيث إنها كانت تركز على معركة الفطنة بين القارئ والكاتب. لكن في ثلاثينيات القرن العشرين، أصبح من الصعب تجاهل الحقائق المروعة للمشهد السياسي العالمي بعدما صعِد الطغاة ما هدد النظام حينذاك. لم يغضَّ كُتَّاب العصر الذهبي الطرْف عن ذلك، وصورت أعمالهم العالم الذي كانوا يعيشون فيه بصور شتى.

سخر وودثورب وبانشون من الفاشيين في كتبهما مثل «صمت قميص أرجواني» و«درب الطاغية» على التوالي، وكذلك تناول مؤلفون آخرون رفع مستوى الوعي بعدم عصمة أنظمة العدل التي يُعتز بها منذ أمد بعيد، ليس على المستوى الدولي فحسب بل على المستوى الوطني كذلك. صُورت مخاوف ذلك العصر في نهاية كتاب كينيدي «إلى المجد»، وذكر في إهداء الكتاب إلى جولانكز أن الكتاب كان «تجربة» إذ قال: «الحريات البريطانية والمحاكمات العادلة والعدالة وحرية التعبير كلها شعارات سهلة مثل الكليشيهات ... لم يكن بإمكان هيئة المحكمة إلا أن تضمن الظلم. ما الجدوى من القانون إذا كان القانون لا يضمن العدل؟ تحدث الناس عن القتل القضائي؛ ألم يتساوَ في السوء مع عدم ضمان عقوبة عادلة للقاتل؟»

تتناول قصة كينيدي الأبعاد السياسية للظلم بوضوح، ولكن أشهر المعاصرين له الذين يميلون إلى التحفظ ناقشوا قضايا مماثلة بطريقة غير مباشرة وأنجح من طريقته. أدخلت كريستي أفكارًا جريئة عن أفضل السبل لتحقيق العدالة من خلال حبكات بارعة في اثنتين من روائعها وهما «جريمة قتل في قطار الشرق السريع» و«ثم لم يبقَ أحد». تناول بيركلي موضوعات مماثلة بطريقة ساخرة ورائعة في «محاكمة وخطأ»، لكن صاغها جون ديكسون كار وغلَّفها داخل لغز «الغرفة المقفلة» في رواية «تحذير القارئ».

لم تقلَّ رواية بروس هاميلتون «ريكس أمام رودس: محاكمة قاتل برايتون» في روعتها عن الروايات السابقة، إنها رواية سياسية بقدر كبير إذ كُتبت بأسلوب بعيد عن العاطفة وواقعي، وقد ارتبط هذا الأسلوب بسلسلة «المحاكمات البريطانية البارزة». نُشر الكتاب عام ١٩٣٧، ولكن يقال إنه كُتب عام ١٩٥٠، تُستهَل مقدمة الكتاب بما يلي: «في هذه الأيام من التوسع والعمل، تتجه أنظار أوروبا السوفيتية إلى المستقبل بدلًا من الماضي. لم يُكتب بعد تاريخ الثورة التي اندلعت منذ ثلاث سنوات والتي شرعت في مُهمَّتها الكبيرة المتمثلة في تحرير طاقات الجماهير الكادحة ... [محاكمة رودس] كانت أول مناسبة في إنجلترا يُسمح فيها بالنظر في قضية واضحة تدور حول ما إذا كان إنسان ارتكب جريمة

قتل أم لم يرتكبها في ضوء التعاطف السياسي لهيئة المحلفين المكونة من أبناء الطبقة الوسطى البسطاء.»

تبين أن نظرة هاميلتون إلى المستقبل مغلوطة مثل فهمه للنظام الاقتصادي السوفيتي، ولكن روايته — بكل سذاجتها — تسلط الضوء على الطموح والأصالة والوعي الاجتماعي والسياسي إذ تجلت تلك المعالم في الكثير من قصص العصر الذهبي أكثر مما هو معروف بوجه عام. وفي حال المقارنة، لا ترتقي الكتب التي ألَّفها هاميلتون وكينيدي إلى الكتب التي ألَّفتها كريستي وبيركلي وكار ولا يعود السبب إلى قلة مستوى الإثارة أو ضعف الأسلوب، بل إلى انخفاض مستوى التوازن بين محاور القصة وتقديم الرسالة على اللغز.

لم تقع إلين ويلكينسون في هذا الخطأ. لا أحد ممن يعرف أي شيء عن حياتها وعن مسارها المهني يشك في أن آراءها السياسية كانت شغوفة وتلمس مكنونات القلب. لكن بعيدًا عن التوجيهات، فإن رواية «لغز جرس التصويت» ماتعة للغاية على الرغم من بعض المغالطات التي عادةً ما تحدث في أول رواية عن الجريمة — لا سيما عدم كفاءة التحقيقات الأصلية للشرطة في مسرح الجريمة. يُحسب لويلكينسون أنها تتجنب الوقوع في فخ كسب النقاط السياسية الرخيصة في تصويرها للسكرتير البرلماني الخاص المنتمي إلى حزب المحافظين والشرطي الغِر روبرت ويست. إن تجنب التعصب الأعمى والطائفية ضيقة الأفق يقدم مثالًا يحتذي به الآخرون من أعضاء الفئة السياسية في أي عصر. وهذا من الأسباب التي تدعو إلى الأسف على عدم كتابة أعمال لاحقة بعد هذا اللغز الحيوي عن «الجريمة المستحيلة».

مارتن إدوارد www.martinedwardsbooks.com

ملاحظة المؤلف

كل الشخصيات الواردة في الرواية من وحي خيالي.

إلين ويلكينسون

الفصل الأول

بغض النظر عن مجريات اليوم المثيرة، يفقد مجلس العموم كل تلك الإثارة في الفترة بين الساعة السابعة والتاسعة مساءً. انتهت الخطابات الرنانة لذلك اليوم. وتُستأنف المعركة بين كبار الشخصيات بعد الساعة التاسعة بعدما يتناول أعضاء البرلمان طعامهم. يخرج الأعضاء من قاعات الجلسات البرلمانية ويغادرون المقاعد الطويلة ذات اللون الأخضر إذ تسع شخصيات مناضلة ممن يجب أن تلقي خطابها الأول أو ممن يجب أن تلفت أنظار رئيس البرلمان من حين لآخر ولسان حالها يقول لجمهور الناخبين غير المكترث ها نحن هنا.

يسترخي روبرت ويست في المقعد الثاني خلف الموظف الحكومي بحكم وظيفته المرموقة «سكرتير برلماني خاص» لدى وزير الدولة للشئون الداخلية، ويتشتت انتباهه بين الساعة ومقاساة عضو من المعارضة يتصبب عرقًا جراء جهوده كي يرفع صوته إذ تحثه صيحات خبيثة من جلَّاديه على «الجهر بالكلام».

قال الجالس بجوار ويست: «سيئ للغاية.»

قال ويست محاولًا إخفاء ضحكه: «ينبغي أن نصور هذا المكان. هل سيعيد أي منا الكرَّة ويلقي خطابًا إن رأينا منظرنا الفكاهي ونحن نلقي تلك الخطابات؟» استأنف حديثه وهو يفكر بصوتٍ عالٍ: «اللعنة على موراي جراي، وعدني الوغد أن يعتقني من هذه الجلسة قبل الثامنة إلا الربع.»

استفسر زميله متعاطفًا: «هل لديك حفل عشاء؟ أظن أنك لست مقيدًا بالمكوث، أليس كذلك؟ فطلب الإحاطة هذا ليس لوزيرك.»

«كلا، إنه طلب إحاطة لوزير الخزانة، ولكن تاق موراي جراي لتناول شراب، وقد وعدته أن أبقى مع وزيره ريثما يحتسي كأسين. ربما شرب الوغد الحانة كلها الآن.»

إنه قانون غير مكتوب ينص على ضرورة أن يوظف الوزير سكرتيرًا برلمانيًّا خاصًّا كي يكون في المقعد الذي خلفه في جلسة يلقي فيها الكلمة الافتتاحية ومهمته إحضار الأوراق من المكتبة أو الإجابة عن الأسئلة الغريبة التي تُطرح من مقصورة الخبراء أسفل شرفة الصحافة. إنها مهمة مزعجة، وشعَر روبرت ويست بالضيق لأنه تطوع وأعفى صديقًا كان ينبغي أن يُترك من دون مساعدة كما هو حاله الآن.

«هل جمالها فتَّان إلى هذه الدرجة؟»

«إنها ليست امرأة، بل رجل. الحقيقة أن أَقدم أصدقائي آتٍ على العشاء الساعة الثامنة إلا الربع، وبما أنه يتعين علينا جميعًا العودة من أجل التصويت في الساعة التاسعة، فليس أمامي وقت طويل. لم أرَه منذ خمس سنوات.»

قال الرجل الأكبر: «غادر إذن. سأمكث مع الوزير.»

«بورك فيك، هل أنت جاد؟ أكره أن أتركك هكذا، ولكني سأركل موراي جراي إن رأيته.»

جمع ويست الأوراق الرسمية ووضعها على ركبة جاره وكأنه يخشى أن يتراجع الآخر عن عرضه.

تابعته أنظار الكثيرين في شرفات الجماهير وهو يحيي رئيس المجلس وينزل إلى الممر المركزي ويخرج من القاعة. روبرت ويست جدير حقًّا بأن يُنظر إليه. لا يشوب مظهره عيب من عيوب المانيكان الوسيم لدى الخياط، ما يجعل الرجال الآخرين يعاملونه بقدرٍ من الازدراء ويجعل النساء يفرضن تكهنات مشاكسة بشأن قائمة المعجبات المحتملات. إن مظهره مثير للاهتمام، شعره أسود ثقيل ومتموج وحجم رأسه معقول، فكه مربع الشكل، بشَرته صافية، عيناه كبيرتان بنيتان، وعيناه تنمَّان جزئيًّا عن سرعة غضبه وتلك نقطة ضعفه الأساسية.

في التاسعة والعشرين من عمره، ترسَّخت قدماه في منصبٍ برلمانيٍّ آمن إلى حدٍّ ما، ولأنه محظوظ للغاية لعدم وجود مصادر دخل خاصة به البتة، كان عليه أن يُبقيَ ذكاءه متقدًا كي يكسب الأموال لشراء السلع الكمالية. الراتب البرلماني الضئيل لا يكاد يكفي الضروريات التي يحتاجها عازب مقتصد نسبيًّا كحاله.

مثل معظم السياسيين الشباب (الذكور)، أولى قدرًا كبيرًا من تفكيره إلى «المنصب» الذي ينبغي أن يتقلَّده عندما دخل البرلمان مثل قدر التفكير الذي تخصصه المرأة العضوة للملابس التي ينبغي أن ترتديها في أول مرة تحضر فيها إلى البرلمان. بعد دراسة عدة

نماذج، قرر أن «ما يقع على عاتقه» هو الظهور بمظهر المنتقد لئلا يتجاوب مع القلق الذي يعتري الرجل العادي، والهدوء الراسخ وسط العواصف السياسية، وكذلك التحيُّن الحثيث من أجل اللحظة المناسبة للتدخل. لما تكتم على تلك القرارات، لم يسمع من أحد أن كل سياسي شاب (ذكر) اتخذ قرارًا مماثلًا في الأيام التي تفصل بين فرز الأصوات في الانتخابات التي كسبها وأداء اليمين في مجلس العموم.

في الحقيقة، لم يستمر روبرت ويست ولو بأقل قدر في أن ينأى بنفسه عن التفكير حتى في نزاعات كلاب الشوارع. اهتم بالنزاعات السياسة، إذ كانت بمثابة معركة عنيفة، على الرغم من أنه ما انفكَّ يطمئن نفسه بأنه سيهدأ يومًا ما ويتوصل إلى الطريقة المثلى لإدارة شئون البلاد، ويتوصل إلى أسباب الفوضى التي يحدثها السياسيون في إدارة البلاد. لكن بصفته عازبًا شابًّا مشهورًا، وجد الحياة ممتعة للغاية في أي لحظة يكتسب فيها قدرًا كبيرًا من المعرفة التي تجعله صعب المراس تجاه تعليمات التصويت الخاصة بحزبه.

لما بلغ التاسعة والعشرين وفي السنة الثانية له في البرلمان، تقلَّد وظيفة سكرتير برلماني خاص لوزير الداخلية، ولذا عرفه الجميع باسم بوب، كما أنه ثبَّت قدميه على الطريق المريح الذي يقود إلى المسار الصحيح على الرغم من طوله، وعندها انحسر تيار الشباب أمام تلك المجموعة الهادئة من السياسيين التابعين لأي حكومة والقابعين على المقعد الأمامي ممن لا تُذكر أسماؤهم في حياتهم إلا قليلًا وتُنسى في اليوم التالي من بعد حل الحكومة.

في هذه الليلة تحديدًا من شهر يونيو، كان ويست يسير واعيًا لنفسه بعض الشيء في ذلك الممر القصير والمهم حيث إنه يفصل بين الخصوصية الانتقائية للرَّدْهة المركزية في المجلس ورَدْهة الغرباء؛ إذ في تلك الردهة يجمع رجال الشرطة ذوو الأجسام الضخمة واللطفاء كلًّا من الناخبين ومجموعات الضغط والضيوف وطالبي المساعدات البسيطة.

توقف ويست عند الحاجز لما نادى على اسمه رجل الشرطة. بحثت عيناه بنفاد صبر عن مصدر الصوت وسط الزحام. لم يكن العثور على دونالد شاو سهلًا إذ كان يبحث عنه بين ذلك التجمهر. إنه من النوع الذي يحب دائمًا أن يكون جزءًا من المشهد. لما انتفض قلب ويست قليلًا، أدرك أن الرجل الذي يسير نحوه هو رفيقه المحبوب في أيام المدرسة والجامعة — لم يتغير مظهر جسمه النحيل والطويل، ووجه الأسمر، ولم يتغير الأسف المضحك في عينيه الزرقاوين على وجوده في المشهد على أية حال.

«عجبًا، هذا أنت! سررت لرؤيتك مرة أخرى بعد كل هذه السنوات. هل كان الطريق مريحًا؟» عبَّر ويست عن مشاعره الحقيقية التي كان يشعر بها بعد فراق دام خمس سنوات بأسلوبه النابع من مكنون القلب.

«كانت رائعة بفضل تعليماتك الممتازة. ذكرت اسمك العجيب ووقف ضباط الشرطة منتبهين للغاية في صفوف.»

«لا تبالغ يا صديقي. أخبرتك في خطابي أن أعضاء البرلمان من أضعف المخلوقات ... ولكن» بقليل من الوعي بذاته ... «يُعرف اسم المرء بسرعة إذا أدلى باسمه لأحد رجال الشرطة. ما رأيك في تناول العشاء الآن؟ طلبت وجبة في قاعة هاركورت. هل تريد أن تستحمَّ؟»

«لا، شكرًا لك. أنا في أتمِّ حالٍ استعدادًا لتلك المناسبة العظيمة. إنها أول وجبة لي في مجلس العموم. أؤكد لك أني معجب كثيرًا بما أنت عليه.»

«لم تكن لتشعر بالإعجاب إذا كنت ترتدي هذه الملابس فترة طويلة.» ابتسم دون متجاوبًا مع ذلك التعليق، حيث إن بوب نفسه لا يخفي إعجابه بحاله على الإطلاق.

قاعة هاركورت التي توجَّه إليها ويست مع ضيفه هي الجزء الذي يمثل «المجتمع» العصري في مجلس العموم. يتناول الأعضاء أنفسهم طعامهم في مكانٍ متواضع لكنه مريح وليس مرتفعَ التكلفة في غرفة الطعام الخاصة بهم بالطابَق العُلوي، كذلك توجد غرفة متواضعة مثلها للغرباء من أجل تقديم وجبات لمن لديهم أعمال عاجلة. لكن ويست أراد أن يُريَ صديقه مكانته الجديدة، وكذلك يقدم له أفضل وجبة يمكن أن يقدمها «المطبخ» في مجلس العموم. حجز طاولة لفردين في مكان يوفر أفضل إطلالة على الأضواء والزهور والمشاهير وضيوفهم والجو العام لما يمكن القول عنه إنه أفضل نادٍ مختلط في العالم منذ الحرب العالمية.

لديه العديد من الأصدقاء ممن يومئون له برءوسهم وهو يرافق ضيفه إلى الطاولة.

قال وهما يجلسان: «يبدو أن المكان ممتلئ الليلة. هناك المزيد من تلك الأزمات المالية التي تحوم في الأجواء. سيُعقد تصويت مهم في الساعة التاسعة؛ ولذا يتناول الناس طعامهم. سأتركك حينها كي نبدأ عملية التصويت.»

توسَّل إليه شاو: «لا تتركني وحدي مع حكومة الإمبراطورية أو الأعضاء الماكثين منها. أخبرني الآن مَن مِن كبار الشخصيات هنا.»

«لا يأتي الوزراء إلى هنا كثيرًا. توجد غرفة طعام خاصة لهم. بالطبع ما لم يكن معهم ضيوف. ذلك الرجل صاحب الشعر الضارب إلى البياض والأنف المعقوف ويسلِّي كل هؤلاء السيدات اسمه صمويلسون صاحب البشرة السوداء، يبدو أنه يصطحب مجموعة مختلفة في معظم الليالي ويمتلك كل الأموال التي قد يحتاجها معظم الناس. ذاك الرجل الطويل

الأسمر صاحب الفك الكبير اسمه جوشوا ستونيلي. قام بأشياء رائعة في الحرب.» يتوقف ويست مع كل قضمة ويذكر حفنة من الناس حوله.

«من ذلك الوسيم الجالس مع المرأة اليهودية ذات الملابس الخضراء؟»

«إنه فيليب كينيرد. هو شخص يحب المغامرة. لقد جمع أموالًا كثيرة من القضية البغيضة الخاصة بشركة «رجال العراق». لا بد أنك تعرف كل المعلومات عن تلك الشركة. كنتَ في العراق في ذلك الوقت، أليس كذلك؟»

قال شاو بصوت منخفض: «نعم، أعرف معلومات كثيرة عن شركة رجال العراق. إنها من أسباب وجودي في لندن الآن. إذن، هذا هو كينيرد!»

قال ويست: «إنه شخص رائع حقًّا.»

«ليست هذه السمعة المعروفة عنه، أليس كذلك؟»

«يحسده الناس على ما معه من أموال، ويثقلون كاهله بأخطاء رئيسه ذي الصفات النتنة ديفيد ديفيز الكبير. لكن الناس هنا يحبون له الخير، على الأقل من يعرفونه.»

«هل له باع طويل في السياسة؟»

«لا، نادرًا ما يأتي إلى هنا. مقعد آمن، ربما اشترى ودفع من أجل كل ذلك. لا أعرف سبب تسكعه في هذا المكان.»

قال شاو بصوت منخفض: «لا بدَّ أن للنفط صلةً عارضةً بالسياسات الخارجية البريطانية، هل تظن ذلك؟»

«حسنًا، ينتشر قدر كبير من الهراء حول هذا الموضوع. بريطانيا ليست كأمريكا — وأي مصالح كبيرة حاولت إرشاء مجموعات الضغط لدينا ستتوقف قريبًا من حيث انتهت.»

«حقًّا؟ لا شك أن الأجواء هنا يكتنفها قدر من الغموض. شكرًا، سأحتسي المزيد من نبيذ الهيرمتاج ذاك. إنه لذيذ، أليس كذلك؟ أرجو ألا أستنزف حصتك في تلك الوجبة الدسمة.»

ضحك ويست وهو يطلب زجاجة أخرى: «لا عليك من الإسراف في الشراب الليلة»، وأردف نَمَّه بشأن قائمة الجالسين الآخرين الذين في مرمى بصره في غرفة الطعام.

قال: «لكن لا تقام العشاءات المهمة في غرفة الطعام تلك. تُقدَّم الوجبات الخاصة في غرف طعام صغيرة في نهاية الرَّدهة التي دخلنا منها. يمكن القول إن بعض صفحات التاريخ كُتبت في تلك الغرف. في الحقيقة، ربما تُكتب بعض سطور التاريخ في إحداها الآن.»

«يا للدهشة! أهذا سرٌّ من أسرار الدولة، أم مسموح لي أن أعرف؟»

«صدقًا، أنا نفسي لا أعلم الكثير، ولكن وزير الداخلية — إنه رئيسي كما تعلم — دعا السيد جورج أويسيل على العشاء «بمفردهما» وسيلحق بهما رئيس الوزراء كي يحتسي القهوة بعدما يدق جرس التصويت الساعة التاسعة.»

اعترى دون شاو تواضع مرح. «أعلم أنه ينبغي لي أن أكون منبهرًا، ولكني عشت في أرض العراق لمدة خمس سنوات. من يكون جورج أويسيل؟ لا تقل لي إنه رئيس وزراء فرنسا أو رئيس عصبة الأمم أو أي كلمة مألوفة أخرى.»

«أوه، كلا! لا أحد يعلم الكثير عن أويسيل. إنه ليس واحدًا من أصحاب الملايين المعروف عنهم الغموض. إنه مجرد مواطن أمريكي عادي يحمل أكثر من جنسية، ويبدو من اسمه أن له أصولًا فرنسية. إنه رئيس إحدى الشركات التي تتعامل في القروض الحكومية الضخمة، لكنه عاجز ويحب العزلة ولا يخرج من صومعته إلا قليلًا. وأعتبر أن وجوده هنا راجع إلى الجهود التي بذلتها.»

«إذن، هل عرفت اللغز؟»

«إلى حد ما، فقد جهزت كل الترتيبات. بالطبع هذه الأمور ليست من اختصاص وزارة الداخلية. ولكن وجود وزير الداخلية راجع ببساطة إلى كونه أحد أتباع رئيس الوزراء، ومِن ثَم تصبح له يد في أي أمر سري قد يرغب رئيس الوزراء في نزع يده منه فيما بعد. هل تفهمني؟»

«أفهمك تمامًا.»

«بالإضافة إلى ذلك، وبمحض القدر، تصادف أن كان أويسيل صديقًا لوزير الداخلية منذ وقت طويل. فقد قضيا إجازات معًا في مخيمات قطع الأشجار أو ما شابه. ولذا استثنى أويسيل هذه الدعوة من قاعدته، حيث إنه لا يقبل أي دعوات. وما كان هذا الوغد سيقبل الدعوة لولا أنه يُكِنُّ لوزير الداخلية وافرَ الاحترام. أعاره وزير الداخلية محققه الخاص جينكس لأن لائحة شرطة سكوتلانديارد تزعجه أيما إزعاج، وما كانت الحكومة ستوافق على تواجده هنا في هذا الوقت من دون حماية. ولكني أتمنى أن أعرف ما يجري هنا. لم يفارق العبوس وجه وزير الداخلية ولم يهدأ باله منذ نزول أويسيل على هذه الأرض السعيدة.»

«ألا تعرف ما يجري؟»

«لا أعلم سوى الهدف العام من الدعوة. أعلم أن الحكومة يجب أن تقترض قرضًا كبيرًا وتسدده على فترة أطول مما اعتادت عليها من قبل. وأويسيل هنا للتفاوض بالنيابة

عن المجموعة الوحيدة التي يُحتمل أن تقرضنا الأموال للمدة التي تريدها الحكومة. علمت أن الشروط صارمة، ولكني لا أعلم ما يتوقع وزير الداخلية أن يفعله بشأن تلك الشروط.»

«ربما دعاه إلى عشاء سخي كي يلين قلبه.»

«لن يتمكن من استثارة عاطفة أويسيل. إنه يقتات على البسكويت المفحم والفاكهة وأطعمة من تلك النوعية. وقد يقبل المرء دعوة رجل لأنه كان رفيقه في مخيم لقطع الأشجار، ولكني لا أرى أن هذا يحدث أي فرق ولو بأقل قدر بالنسبة إلى قرض كبير، ألا توافقني الرأي؟»

«لا أعلم. كان لقَبول الدعوة تأثير في كل القروض التي تعاملت معها، ولكن تلك القروض كانت بمبالغ زهيدة للغاية.»

ابتسم ويست، ثم قال بنبرة خجلة: «بالطبع كل تلك الأمور سرية للغاية. أظن أنك توقَّعت أن أفتح فمي وأبوح بكلام أكثر مما ينبغي، ولكني ظللت أخبرك بكل ما يدور في رأسي.»

«وأنت لا تخشى من البوح أمامي، أليس كذلك؟»

«نعم، وسامحني على قولي هذا. أعلم أن السر بات في بئرٍ عميقة ولن يخرج من بين شفتيك البتة. يسرني أنك عدت إلى إنجلترا. سأراك قبل أن تغادر مرة أخرى، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد. ربما تراني أكثر مما تريد. إنني من أكبر العاطلين عن العمل الآن. ينبغي أن أشعر بالامتنان إزاء تدهور شركة «رجال العراق». سأخبرك بالقصة يومًا ما ...»

«لكن اسمعني يا رجل ... أعني، سأحاول أن أساعدك ...»

«أوه، لم أقصد أنني انضممت إلى قائمة الانتظار لدى مراكز التوظيف. ليس المال ما يشغلني، لكن الاضطرار إلى ترك وظيفة استحقت عناء المكوث فيها حقًّا. لكن قضاء فترة هادئة في لندن ذات الصيت الذائع سيفيدني كثيرًا. على أية حال، يحاول كينيرد لفت انتباهك.»

لما ذهب ويست كي يتعرف على اليهودية المرحة الجالسة مع كينيرد، جلس شاو يراقب المشهد وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة يخفيها دخان سيجاره. إنه مجلس العموم. إنه المجلس، بل مركز المجلس. حتى ينفق هؤلاء الرجال والنساء ما يكسبونه على الطعام بترف، سال عرقه ومن معه بين ذباب العراق وقاذوراته. لم يشعر باستياء تجاههم. بل جلس هادئ البال وأخذ يفكر في حصته من كل هذا. في النهاية، إن المجلس وما يمثله هو من مد ذراع الحماية على أكثر المواقع الأمامية وحشة، وهذا أعطى أهمية وهدفًا لأصعب

الصراعات الجارية. لكن عند التفكير في كل من أويسيل وكينيرد، لم ينبس ببنت شفة. يشعر المرء بالمرارة حينما يتولى عملًا حضاريًّا جديرًا بالاحترام ويتوقف لأجل غير مسمًّى على يد مقامرين غير مسئولين، وحينما يرى نفسه بيدقًا في «انقلاب» مالي. لا سبيل إلى ردع هؤلاء الرجال؛ إذ لا يبدو أن ثورة ستهز عروشهم؛ بل سيُضطر الثوريون إلى التذلل إليهم حينما ينتهون من التخلص من السلالات الحاكمة القديمة.

عاد ويست بسرعة نوعًا ما، وقطع عليه أحلام يقظته.

«عذرًا يا صديقي القديم. سلوكياتنا هنا هي الأسوأ في العالم. كل فرد يقطع حديث الآخر، ولكن أوشكت الساعة على التاسعة، وعليَّ أن أصعد من أجل التصويت. إذا كنت تهتم بالحضور، فسأُجلسك في شرفة إلى أن تنتهيَ الجلسة ثم آخذك في جولة.»

أوضح المصباح الكهربائي أن رئيس الوزراء نهض من مكانه منذ فترة، ومِن ثَم ترك معظم الأعضاء الآخرين ضيوفهم كي يحضروا الدقائق القليلة الأخيرة لما يتوقعونه أن يكون خطبة مثيرة وكسب أصوات بفارق ضئيل. وعلى الرغم من ذلك، مر بعض الوقت حتى شقَّا طريقهما وسط الزحام في الغرفة، وأخذت مجموعة أجراس ساعة بيج بن تعلن عن الساعة لما توجه روبرت ويست برفيقه إلى ممر الشرفة الطويل.

«هذه الغرفة جيه، حيث أويسيل ...» لم تكتمل الجملة لأنهما لَمَّا وصلا إلى الباب، بدأ جرس التصويت يدق. ومع الضجيج المزدوج من أجراس ساعة بيج بن والصوت الحاد لجرس الدعوة إلى التصويت، دوَّى عيار ناري.

همس روبرت ويست: «يا إلهي الرحيم!»

الفصل الثاني

في لحظة انطبع المشهد في عقل ويست. الإضاءة تشع في الطرقة، وتسمَّر خدم الضيافة المنذهلون في مكانهم عند سماع العيار الناري، شحب لون خادم الضيافة الواقف عند باب «الغرفة جيه»، وتحوَّلت الأطباق التي كان يحملها إلى شظايا حول قدميه. تقابلت عينا ويست مع عينَي خادم الضيافة. بدأ الناس في الطرقة يندفعون نحو الباب. فتح شاو الباب ودخل بوب مندفعًا وتبعه خادم الضيافة. تسلل شاو إلى داخل الغرفة ووقف موليًا ظهره إلى الباب كي يحول دون دخول الزحام الواقف في الطرقة.

انزلق صاحب الملايين الكثيرة من فوق الكرسي في نهاية الطاولة وتكوَّم على الأرض وتلطخت مقدمة قميصه بالدماء. المسدس قابع بجواره.

همس ويست: «حادثة انتحار، يا إلهي!» أخذ المسدس من الأرض ووضعه على الطاولة وانحنى على الجسد الصغير المتكوِّم الذي كان منذ لحظة واحدًا من أقوى الرجال في أمريكا.

لم يَعُد صدُّ التدافع على الباب ممكنًا. فتح شاو الباب كي يُدخل أحد رجال الشرطة. تمكن ببراعة من الحيلولة دون تدافع الناس بالخارج وانحنى الشرطي على الجثة مع ويست.

قال الشرطي بصوت خافت: «الأفضل أن نستدعيَ الطبيب يا سيدي. فدائمًا ما يتواجد عدد كبير من الأطباء على مقربة من هنا.»

فتح شاو الباب مرة أخرى. نادى: «أريد الطبيب. فليحضر أحدكم الطبيب بسرعة.»

نادت عدة أصوات: «الطبيب ريدنج هنا»، ومِن ثَم شق رجل طويل ونحيف طريقه بخطًى واثقة بين الحشود التي تجمعت خارج «الغرفة جيه». جثا بجانب الجثة المتكومة على الأرض.

قال: «لقد مات. مات من لحظته على ما أعتقد. فوضى مخيفة. أصابت الرَّصاصة إحدى عظامه. يصعب التفوه بالمزيد من دون تشريح الجثة. ما الذي حدث؟ هل انتحر؟»

قال ويست: «المسدس هنا. يبدو أنه انتحر، ولكن يجب الاتصال بوزير الداخلية على الفور. كان السيد أويسيل يتناول الطعام معه.»

نصَّب شاو نفسه حارسًا على الباب، وبدت تلك الوظيفة مفيدة في ذلك الوقت، ولما طُرق الباب مرة أخرى، أدخل رجلًا قوي البنية في منتصف العمر، إنه الرقيب وأحد أفراد قوات الحرس الخاصة بمجلس العموم.

قال الطبيب ريدنج: «آه، بورن، لقد سررت بقدومك. تقع تلك المهمة في نطاق اختصاصك أكثر مما تقع في نطاق اختصاصي الآن.»

جثا الرقيب بجانب الجثة. «هل أصيب بطلق ناري يا سيدي؟ كيف حدث هذا؟ من كان معه هنا؟» نظر بورن إلى بوب ويست.

قال ويست: «لم يكن معه أحد، على الأقل في وقت إطلاق النار عليه. كان وزير الداخلية يتناول طعامه معه، ولكن لا بد أنه ذهب من أجل التصويت. دخلت أنا وشاو في لحظة سماع العيار الناري. كنا نمر من جانب الباب في ذلك الوقت. ثم وجدنا هذا المسدس على الأرض. أخذته من الأرض»، وتحرك ويست كي يأخذه مرة أخرى.

قال الرقيب: «الأفضل ألا تلمسه مرة أخرى يا سيدي. سيتعين علينا رفع البصمات حينما يأتي المفتش. هل قلت إنه كان يتناول الطعام مع وزير الداخلية؟»

استجمع ويست نفسه. «نعم، ويجب أن أتصل به على الفور أيها الرقيب. المسألة غاية في الأهمية. وأفضل أن أخبره بنفسي. ستكون صدمة مفجعة له.»

دائمًا ما يُعجب أي ضابط شرطة في مجلس العموم بمخاطر إقحام نفسه في موضع لا يُرجى استحسانه من سلطة عليا. يعرف الرقيب بورن المجلس وطرائقه.

«الأفضل يا سيدي أن تذهب إلى وزير الداخلية ريثما أتصل بشرطة سكوتلانديارد. هل تحب أن يرافقك أحد رجال الشرطة؟ يبدو أنك ترتعش.»

«سآخذ السيد شاو معي. ستحدث جلبة كبيرة في الردهات إذا لم يصحبني شرطي.»

أخذ شاو بيد صديقه المرتعب، وأفسح شرطي طريقًا لهما عبر حشود الضيوف وأعضاء البرلمان الواقفين في الطرقة. تدافع عشرات الأعضاء نحو بوب، ولكن لما رأى الشرطي الخبير وجهه الشاحب وعينيه المحدقتين، أفسح له طريقًا عبر الزحام ما ترك قناعة راسخة بأن ويست له يد بشكل أو بآخر فيما حدث.

كأنه لا نهاية للدرج والطرقات الضيقة للمجلس. فعل شاو ما بوسعه كي يحول دون اندفاع بوب بسرعة كبيرة. ولما كان الوضع كذلك، اصطدما بالعديد من الأعضاء المذعورين.

قال دون شاو في باله: «كأننا في كابوس.» لا يخفى أن الأخبار بدأت تنتشر في مجلس العموم — كما هي الحال — بسرعة أكبر مما تنتشر في أي مكان آخر إلا في غابات أفريقيا. حاولت الأيادي أن توقفهما وهما يمران من بينها. التفتت إليهما الرءوس وهما يندفعان بطول الطرقة.

همس بوب: «كان يحرص على أن يدخل إلى القاعة من الباب خلف كرسي رئيس المجلس. سيتوجب عليه الجلوس على المقاعد الأمامية عند الإعلان عن أسماء الشخصيات.»

انتهى التصويت، وكان الأعضاء يتدافعون إلى خارج القاعة مثلما يتدافع النحل من الخلية. وفي وسط مجموعة، يقف وزير الداخلية في معزل عما يحدث. رمق شاو الوجه الأبيض السمين، إذ يبرز من فوق ياقة بيضاء، وتلك الصورة متعة كل رسام كاريكاتير.

أمسك ويست بذراعه. نظر الوزير إلى السكرتير البرلماني الخاص به ووجهه تعلوه الدهشة.

قال ويست مسرعًا: «يجب أن أتحدث معك للحظات يا سيدي. وقع حادث مُروِّع. انتحر السيد أويسيل.»

«انتحر! انتحر السيد أويسيل! هل تعي ما تقول؟ كان بخير حال عندما تركته.»

«إنه ميت الآن يا سيدي.»

نظر الوزير إلى سكرتيره وكأنه فقد جزءًا من عقله. سحبه مرة أخرى إلى رواق التصويت. تبعهما شاو. مد حارس الشرطة يده كي يمنعه.

«غير مسموح لغير الأعضاء يا سيدي.»

كز شاو على أسنانه. جُن جنونه. أثار وجه وزير الداخلية اهتمامه. أراد أن يعرف كيف سيستقبل الخبر. لكن الحاجز بين الأغنام والماعز، بين النخبة وغير النخبة عالٍ بارتفاع جبال الهيمالايا في مجلس العموم.

وقف شاو بضع دقائق بمفرده. كانت الأخبار تنتشر. بالطبع لا أحد يعرفه ونمت إلى أذنه قصاصات أحاديث الأعضاء المهتمين بالأحداث وهم يمرون عليه.

«سمعت أنه انتحر أمام وزير الداخلية.»

«هل تعني الحادثة العداء مع أمريكا؟»

«لا أصدق القصة برمتها. ببساطة لا يمكن أن يقع حادث كهذا في المجلس ...»

يغدو أصحاب المعاطف السوداء ويروحون في الطرقة، وبطريقة ما ظهر أمام شاو في بداية الطرقة شخصية نحيلة الجسم متكومة على الأرض وقميصها ملطخ بالدماء من الأمام.

خرج ويست من رواق التصويت مع وزير الداخلية. «هذا دونالد شاو يا سيدي. كان معي حينما دخلنا إلى الغرفة.»

«وددت لو تقابلنا في ظروف أسعد من تلك يا سيد شاو»، ثم مشى وزير الداخلية بطول الطرقة رفقة الشابين. «ببساطة، حدث لا يمكن تفسيره. لا أفهم ما الدافع الذي جعله ينتحر في تلك اللحظة. ولماذا اختار الانتحار هنا؟ إنه يعلم اعتلال صحة قلبي. ولا ينبغي أن أتعرض لصدمات كتلك. يا له من متهور!»

سأل بوب مترددًا: «ألم تكن هناك أي صعوبات، أعني صعوبات بشأن القرض؟»

وضع وزير الداخلية ذراعه الكبيرة على كتف بوب من دون أن يتراخى في وتيرة خطواته.

قال وعلى شفتيه شبح ابتسامة: «لو كان السبب هو القرض، لأصبح لديَّ أسباب أكثر منه تدفعني إلى الانتحار.»

عندما وصلوا إلى الطرقة أمام الغرفة، وجدوا حشدًا منفعلًا من الصحفيين وضيوف أعضاء البرلمان وخدم الضيافة عند المدخل الذي يفصل بين غرف الطعام في الجزء الآخر من مجلس العموم. أخلت الشرطة الطرقة إلى قاعة هاركورت وأفسحوا المجال لوزير الداخلية وصحبته. حينما وصل الوزير، تقهقر الحشد احترامًا له. تحكَّم في نفسه تحكُّمًا. مشى ويست وشاو وشرطي في عقبه وعبروا الطرقة الفارغة وكأن العناية الإلهية تحرسه كي يتحكم بمقاليد أي موقف تحكُّمًا تامًّا. ألقى الشرطي الواقف في خدمته على الغرفة المشئومة التحية وفتح له الباب.

أُكرمت جثة السيد أويسيل وغُطيت بمفرش طاولة أحضره مدير قسم المرطبات إذ تحلى بدماثة الخلق واللطف أكثر مما مضى، ولكن سلوكياته تخللها اعتراض طفيف على وقوع هذه الأحداث ما أفسد ترتيبات الضيافة التي يهتم بها. بحلول ذلك الوقت، وتحت وطأة تكرار الاستجوابات، وقف خادم الضيافة صاحب الزي الأبيض والأسود بائسًا بجانب مديره وكأنه يرنو إلى الحماية من صاحب السلطة المطمئن ذاك. وقف الرقيب بورن والطبيب ريدنج بجانب الجثة. خيَّم صمت غريب على الغرفة لما أزاح الطبيب قطعة القماش من فوق وجه الميت.

للحظة، بدا أن ضبط النفس المهيب والمطمئن لدى وزير الداخلية سينكسر. لم يتفوَّه بكلمة، ولكنه أدار ظهره للآخرين وتمخط مرتين بصوتٍ عالٍ. أعاد الطبيب ريدنج قطعة القماش.

سأل الوزير: «هل تعتقد أنه انتحر أيها الطبيب؟»

رد الطبيب بنبرة منخفضة: «بالطبع لا يمكنني تأكيد ذلك من دون فحص دقيق. لكن الجرح يدل بالتأكيد على أنه أصاب نفسه.»

تقدم بورن وسأل: «هل تتذكر متى غادرت الغرفة بالتحديد يا سيدي؟»

«نعم، أذكره بالتحديد. كانت الساعة التاسعة إلا ١٠ دقائق. وعدت رئيس الوزراء أن أحضر آخر ١٠ دقائق من خطابه، ولن يطاوعني قلبي على الاستعجال في أي حال ولذا طلبت من السيد أويسيل الإذن حتى ينتهي التصويت. سبق وشرحت له أن التصويت يُعقد الساعة التاسعة. وقد تفهَّم ذلك تمامًا. وعندما تركته، كان في غاية السعادة والهدوء.»

أضاف ويست: «أعلم أن الساعة دقت التاسعة عندما سمعنا العيار الناري لأن أجراس ساعة بيج بن كانت تدق ونحن آتون في الطرقة.»

قال شاو: «إذن السؤال هو: هل كان بمفرده في الدقائق العشر تلك؟»

نظر الرقيب بورن في دفتر يومياته. «كتبت ملاحظات من شهادة خادم الضيافة. يقول إنه دخل الغرفة بعدما غادرها وزير الداخلية كي يبدل الأطباق ويُحضر التحلية، وعندها أخبره السيد أويسيل ألا يُحضر القهوة حتى يعود وزير الداخلية.»

التفت دون شاو إلى خادم الضيافة المرتعب. سأل قائلًا: «هل كان السيد أويسيل في نوبة غضب عندما أمرك بذلك؟»

كز الوزير على فمه. «سامحني على التدخل يا سيد ... إمممم ... إمممم.»

تمتم بوب: «شاو.»

«يا سيد شاو، لا الوقت ولا المكان يسمحان للاستجوابات غير الرسمية. أصبحت المسألة برمتها في يد الشرطة الآن، أليس كذلك أيها الرقيب بورن؟»

«بالتأكيد يا سيدي. بالطبع سنحتاج السيد ويست والسيد شاو بصفتهما شاهدين، وأعتقد أننا سنحتاج إليك يا سيدي. اتصلت بشرطة سكوتلانديارد. سيتولى المفتش بلاكيت القضية وسيكون هنا في غضون لحظات يا سيدي. وليس بوسعي أن أسمح بلمس شيء إلى أن يأتي.»

قال الوزير: «أتذكر أن النوافذ كانت مغلقة»، ثم مشى نحوها كي يجربها.

«نعم يا سيدي. مغلقة ومؤصدة من الداخل كما ترى يا سيدي. ألم تفتحها في أثناء تناول الطعام؟»

«لا سمح الله! أكره تيارات الهواء بقدر ما يكرهها جورج أويسيل. يا لك من بائس يا أويسيل! ما الذي دفعه إلى ارتكاب تلك الجريمة؟»

قال الرقيب وهو يرمي شاو بنظرة غامضة: «اسمح لي بالسؤال يا سيدي، هل أعتبر محادثتك عن ... إممم ... العمل لم تتخذ مسارًا مزعجًا؟»

«بالتأكيد لا. لم نتطرق إلى الحديث عن الأعمال. كنا ننتظر ريثما يأتي رئيس الوزراء. لم نتحدث إلا عن الأيام الخوالي. تعرفت على جورج أويسيل في كندا منذ ٢٠ سنة، وسررنا بالحديث كثيرًا. بالطبع لا أعلم شيئًا عن مشكلاته الخاصة. إنه أمر مؤسف. لكن يجب أن أرى رئيس الوزراء. أُرسلَ إليه الخبر، أليس كذلك؟»

«أوه، نعم يا سيدي، ذهب إليه السيد وولترز كي يراه حينما ذهب إليك السيد ويست، وبعث رسالة يطلب فيها أن تذهب إلى غرفته بعدما تمر على الشرطة يا سيدي.»

«نعم بالطبع، أنا ذاهب إليه الآن. أعتقد أنه لا يوجد شيء ينبغي القيام به أكثر مما تم في الوقت الحالي. أوه، ولكن ماذا عن الصحافة؟ سيبتدعون قصصًا من تلك المسألة. روبرت، الأفضل أن نصدر بيانًا رسميًّا. لا يوجد داعٍ يدفع الصحافة إلى زيادة المسألة سوءًا بسبب الحساسية التي لا داعي لها.» بتلك العبارات الآمرة، توجه صاحب السلطة العليا إلى الباب إذ فتحه أحد رجال الشرطة احترامًا له ووقف الباقون انتباهًا.

حتى في وسط كل هذا الرعب، تمكَّن بوب ويست من رسم ابتسامة ساخرة حينما أُغلق الباب خلف رئيسه في العمل.

تمتم إلى دون: «وكأن الطبعات الخاصة ليست معروضة للبيع في الشوارع. حسنًا، حري بك أن تطلق سراحنا أيها الرقيب ريثما أطالع الصحافة. أخبر المفتش بلاكيت أنني تحت أمره في أي وقت. شكرًا جزيلًا لك ريدنج. تصبحون على خير.»

«تصبح على خير يا ويست. بالمناسبة، هل للسيد أويسيل أي أقارب؟ ألا ينبغي لك الاتصال بهم؟»

«يا إلهي، لا أعلم. لا أعلم أي شيء عنه. لكني سأبحث في الأمر على أية حال. شكرًا على تذكيرك لي. يجب أن أتحدث مع وزير الداخلية بشأن خطابات التعزية، ولكنه سيبحثون تلك المسألة غدًا، أليس كذلك؟ يجب أن أطالع مسألة الصحافة الآن.»

«إنها مسئولية عظيمة يا ويست. لو كنت مكانك لتوخيت الحذر.»

«ألا أدرك أني أمام موقف يتطلب بالغ الحذر مني! ولكن إذا لم نُصدر بيانًا رسميًّا، فسنقع في مشكلة عويصة صباح الغد. هيا يا شاو. هل ستؤازرني؟»

«بالتأكيد!» غادر الرجلان الغرفة معًا.

«حسنًا، يا لك من وغد يا ويست! هلا أعطيت صاحبًا نصيحة قبل أن تقتل أصدقاءك في مجلس العموم، أو على الأقل معلومات سرية قبل إرسال الطبعة الرئيسية إلى المطبعة.»

بدأ ويست يتكلم. قال: «سانكروفت، يا لك من مزعج! ستتحايل على الشرطة بطريقة أو بأخرى. كيف دخلت إلى هنا على الرغم من أن الشرطة مشطت كل غرفة بطول الطرقة؟»

من الواضح أن سانكروفت — الصحفي لدى جريدة «ديلي دليفيرر» من أصدقاء ويست — حيث إنه شبك ذراعه بذراع الآخر وأوقفه كي لا يستمر في السير ويرى الصحفيين الآخرين.

«إنه محض حظ يا صديقي العزيز. هناك أماكن يتعذَّر على الشرطة أن ترى ما بداخلها. ولما علمت أن هناك حدثًا ما، مكثت.»

«هذا متوقع منك! شاو، هذا أسوأ صحفي في لندن. إنه دائمًا في مكان الحدث. هذا بغيض. لن تجده البتة حين تريده، ولن تفقده البتة حين لا تريده.»

سانكروفت له جسم بدين وقصير ومستدير، وعيناه تلمعان من خلف نظارات ذات عدسات سميكة. نظر إلى شاو الطويل الجاد مازحًا.

«أظن أن هذا شريكك في الجريمة. والآن أيها السيدان، أريد أن أنبهكما إلى أن ما ستقولانه لن يُستخدم ضدكما، لذا اسردا عليَّ القصة.»

قال ويست جادًّا: «أنا لا أمزح يا ساني، عليك أن تساعدني. لقد وقعت في ورطة. لا أعلم كم المعلومات التي ينبغي أن أعطيَها للصحافة، وأيًّا كان ما سأقوله فسيوقعنا في مشكلة.»

رأى سانكروفت باب «الغرفة إي» يفتح على الطرقة. وبحركة سريعة، سحب الرجلين إلى داخل مرحاض قريب. أراد أن ينفرد بويست لمدة ثلاث دقائق.

«أخبرني القصة كلها يا بوب. لا فائدة من محاولة التحلي بالدبلوماسية. سيتحرى الصحفيون عن القصة بكاملها وستسوء الأمور إذا بقيت معلومات طي الكتمان. إضافة إلى ذلك، لماذا ينبغي أن تتكتم على القصة؟ ما كان لوزير الداخلية أن يعلم أن ضيفه سينتحر إذا تركه بمفرده للحظات. ولو كنت أنا ضيفه، لانتحرت أو ارتكبت القتل إن لم يفعل.»

انتحب بوب: «لكن ما الذي دفعه إلى الانتحار هنا؟ يا للحظ السيئ! عانيت ما يكفي من المتاعب كي أُحضر هذا الوغد إلى هنا، وما كان له أن يحيك تلك الخدعة عليَّ. أعلم أني سألام على ذلك بشكل أو بآخر.»

قال سانكروفت: «بالطبع ستُلام. وهذا يفسر سبب انتزاع العاملين في منصب سكرتير برلماني خاص من مناصبهم المرموقة. ولكن ستتقطع أوصالك إذا لم تخرج إلى الصحفيين وتخبرهم بما لديك من معلومات. نصحتني أمي ذات مرة وقالت: «إذا قلت كذبة فاثبت عليها ولن يتمكن أحد من كشفها»، ولكن نصيحتي لك أن تقول الحقيقة المجردة. قد لا يصدقونك، ومِن ثَم سيكون شأنها شأن أي كذبة قد تفكر فيها الآن.»

لَمَّا همَّ الرجلان بالمغادرة بعدما قصَّ بوب الحكاية بسرعة، أمسك سانكروفت بذراعه.

«أنت متأكد من أنه انتحار.»

«بالطبع.»

«إذن، الحكاية الوحيدة تدور حول سبب الانتحار. هل تأذن لي بالحضور إلى شقتك بعدما أبحث المسألة ونتحدث قليلًا؟»

«نعم أسمح لك. سيأتي شاو لتناول شراب. يا إلهي! لقد نسيت أنني تناولت العشاء مع كل هذه الأحداث!»

الفصل الثالث

عِلم شاو لماذا كان روبرت ويست سياسيًّا شابًّا واعدًا لَمَّا رآه وهو يتعامل مع الصحفيين غير الصبورين. أسقط حدثًا أو حدثَين مُهمَّين في القصة التي رواها، ولكن ما أراده الصحفيون أن يعودوا إلى مكاتبهم وبحوزتهم الوقائع الأساسية. الألغاز والدوافع ستكون لعبة الغد.

قال بوب حين أجاب على آخر سؤال: «سأُضطر أن أمرَّ برواق الأعضاء. أفضِّل أن أتحاشاهم على السُّلَّم الخلفي، لكن الله أعلم بالشائعات التي ستنتشر الآن.»

سار شاو خلف ويست في الطرقة المصطفة بالخزانات إلى الساحة ذات الشكل ثماني الأضلاع حيث يدق جرس البرلمان. سرعان ما انتهت جلسات مجلس العموم بعد التصويت الساعة التاسعة، والساعة الآن العاشرة والنصف ولا تزال مجموعات الأعضاء تقف متحمسة للنقاش فيما جرى اليوم، وحينها تلاشت الأزمة المهددة بعد إعلان أغلبية الحكومة. أُعجب شاو بأسلوب صديقه مرة أخرى.

تدافع الجميع نحو ويست إذ تمكن من إنكار الشائعات، وهدَّأ من رُوع الأعضاء الكبار الغاضبين، وتعامل مع شابة ساخرة أرادت أن تعرف لماذا أطلق الرَّصاص على مليونير واحد نحيل وبائس بدلًا من توجيه المدفع الرشاش إلى كل الجالسين في الصف الأمامي.

وجد دون نفسه أخيرًا يصحب بوب وينزلان إلى الطابق السفلي، علَّق: «شابة صفيقة. أهي سكرتيرة أم ابنة عضو؟»

تعجَّب بوب: «ابنة! إنها العضو جريس ريتشاردز، أحدث الأعضاء المنضمين إلينا. ألم تسمع عن جراسي؟»

«يا ربي، وهل هذا ما يرسله الناخبون البريطانيون كي يحكموا بقايا إمبراطورية كانت عظيمة في يوم من الأيام؟ إذن، لا عجب من تعطُّل سَير العمل.»

استدار بوب ويست غاضبًا ومواجهًا لصديقه: «وما المشكلة مع الفتيات أمثال جراسي؟ إنهن أعقل بكثير من هؤلاء القوم الذين نحاول أن نهدئهم. يأتي القائد العجوز بيلتويسل ومعه أوراقه النقدية ونظارته. تخيل أنك تسمعه يقول إن أمريكا ستعلن الحرب غدًا لأن مليونيرًا كهلًا ذهب وأطلق الرَّصاص على نفسه في مكان ما كان ينبغي له أن ينتحر فيه.»

«لا شك أن الآنسة جراسي ريتشاردز ستتقصى أرضية مجلس العموم المغطاة بأصحاب الملايين الميتين من دون أن تتهيب. لكن اعذرني لأنني نكأت الجرح. أعني هل هو جرح؟ لا أراك مناصرًا نزيهًا للمرأة يا بوب.»

استشاط ويست غضبًا ولكنه لم يتفوَّه بكلمة بينما استعاد معطفه وقبعته. وقف الرجلان لحظات عند مدخل قاعة الأعضاء وحينها دوَّت صيحة من شرطي قوي البنية «تاكسي، تاكسي» في الميدان. ارتفعت أجراس ساعة بيج بن مدوية في سماء نوفمبر المظلمة. خيم الصمت على ساحة القصر. وفي الساحة، تركن بضع سيارات لأعضاء لا يزالون بالأعلى.

وقف رجال الشرطة عند كل مدخل. لما فتح الشرطي المحترم باب سيارة الأجرة التي أوقفها من أجلهما وأركبهما بأمان، قال دون شاو: «يبدو أن الأمور على ما يرام والأمن مستتب.»

«الأمن مستتب؟ ينبغي أن أعتقد ذلك. الشرطة والمحققون ذوو الملابس المدنية في كل ركن. تهتم وزارة الداخلية بشأن أعضاء البرلمان وكأنهم مجوهرات التاج. ولكن، اللعنة، لم تتوقع الشرطة أن تفتش ضيوفنا على العشاء بحثًا عن أسلحة. والأسوأ أن ترتبط المسألة بوزير الداخلية. ألم تسمع بيلتويسل العجوز — النذل — وهو يقول: «إذا لم يتمكن رئيس سياسي في شرطة سكوتلانديارد من الاعتناء بضيوفه ...» ستضحك علينا تلك البلدة اللعينة غدًا.»

عاش روبرت ويست في شقة تتوفر بها مقومات الحياة — غرفتين ومعهما غرفة منقسمة إلى حمام ومطبخ صغير فوق بعض المنشآت التجارية في سوهو. لما فتح ويست بوابة الشارع وصعِد السلَّم الضيق المظلم مصطحبًا دون، ضحك دون: «يخيل لي أن مؤامرة تحاك هنا.» رد ويست بنخرة جافة، وفتح باب الشقة عند نهاية السلَّم وأخذ خطابات ملقاة عند عتبة الباب ورماها على طاولة صغيرة لما علق معطفه وقبعته. أشعل نيران المدفأة وأخذ زجاجة ويسكي وجهاز تفريغ من الدولاب وأحضر كوبين زجاجيين ثم رمى نفسه في كرسي من دون أن يتحدث.

قال دون: «لا أريد المزيد من الويسكي. هل لديك غلاية؟ أريد كوب شاي مركَّز، وأريدك أن تشرب كوبًا أنت أيضًا. كلا، لا تقلق» حينها أصدر بوب حركة تنمُّ عن نفاد صبره «سأحضر أنا الشاي.»

لما شغل دون نفسه بتحضير الشاي، ظل بوب يتحرك في الشقة من دون أن يهدأ باله، يأخذ كتابًا ويعيده إلى مكانه، يرفع سماعة الهاتف ويضعها على الخطاف مرة أخرى من دون مكالمة أحد، ينفعل على منفضة سجائر معبَّأة ويقسم بنبرة حادة. لم يلاحظ شاو تململه. كان يتحرك مثل امرأة عجوز إذ كان حريصًا وهو يتحرك في الشقة الصغيرة غير المرتبة والرثة. وضع الأكواب السميكة على صينية الشاي بمنتهى اللطف وحملها إلى غرفة المعيشة. قال بنبرة هادئة: «لا فائدة من إهدار كل تلك الطاقة العصبية وتمزيق نفسك بين أحزانك. سنناقش المسألة كلها بعناية الآن، أو الأفضل أن نناقشها عندما يحين وقت النوم بالليل. لكن على أية حال، لا ذنب لك، وفي الحقيقة، لا ذنب لوزير الداخلية أيضًا في تلك المسألة.»

أدخل ويست يديه في جيبيه. «أنا لست وحشًا مُتبلِّد المشاعر يا دون. لكني لست قلقًا بسبب أويسيل ولا بسبب الطريقة التي أردى بها نفسه قتيلًا. بل أرى أننا — أقصد الحكومة — كنا سنأخذ مسألة موته من منظور فلسفي بحت إذا وقع الحادث في مكان آخر، أو حتى لو كنا نعلم السبب في وقوعه هنا. ولكن تلك الواقعة تنذر بأسوأ فوضى؛ ستنتفض أمريكا، وستتأجج أسعار الأسهم في البورصات، وسيتوقف القرض. ولماذا؟ يا إلهي يا دون، أكثر ما يثير الجنون في السياسة أن تعرف معلومات كثيرة عن بعض الأمور، ومِن ثَم تدرك كم المعلومات التي لا يُسمح لك بمعرفتها.»

رد شاو مهدئًا له: «لا يبدو أن الوزير انزعج على الإطلاق.»

«تقول ذلك لأنك لا تعرفه. لم يبلغ الوزير ذلك المنصب بفضل حنكته والجميع يعلم ذلك. إنه أغبى شخص في بعض المسائل. لكنه يبرع في المواقف التي تستدعي التهرب من اللوم. من يحفظ ماء الوجه هو أنفع عضو في مجلس الوزراء، ولذا يعتمد عليه رئيس الوزراء في تلك المسائل.»

قال دون: «بالتأكيد أنه تمكن من عدم إظهار تعبيرات وجهه في ليلة الخلاص تلك. ولكن القراءة العامة لقوائم ضحاياه هو لا تحسن ذلك الموقف. أين رئيس الوزراء من كل هذا؟»

قبل أن يجيب ويست، قرع جرس الباب بصوتٍ عالٍ. تحرك دون نحو الباب.

«هل هذا سانكروفت؟»

«نعم، لا تنزل السلَّم. ساني معه مفتاح. كثيرًا ما ينام هنا حين يتأخر في الليل في المجلس.»

نادى صوت رنان من الصالة: «هل أحضر شرابًا لكما؟ يا لها من ليلة من ليالي يونيو! يهطل مطر غزير الآن. هل تنتحب على المليونير يا صديقي بوبي أم تراها الفوضى التي ستحل على الحكومة غدًا بسبب هذا الاضطراب الطفيف؟» دخل سانكروفت وبدأ يخلع حذاءه بجانب المدفأة.

«يا للهول! هل هذا كل الويسكي الذي تُرك لثلاثة أفراد؟ جيد أنكما تحتسيان الشاي مكانها. حسنًا، جلبت بعض الأخبار كي تحمس الأجواء إذا لم يحمسها الويسكي. تُرى ما الذي حدث لصديقك أويسيل الآن؟»

سأل ويست: «شيء حدث لأويسيل؟ ألم يمت في النهاية؟»

«مات ولن يعود إلى الحياة، ولكنه تعرض للسرقة.»

«تعرض للسرقة ... متى؟ هل بعدما انتحر أم عندما كان يتناول الطعام؟»

ارتدى سانكروفت نعلًا قديمًا من نعال بوب، وملأ غليونه من جرة تبغ كبيرة. «يخيَّل إليَّ أن السرقة وقعت في الوقت نفسه ... لا، بل بعده بفترة قصيرة. أُذيعت الأخبار عبر شريط تلغراف وأنا أغادر المكتب بعدما انتهيت من أعمالي.»

«ألم تكن في موقع الحدث حينها؟»

«ليس أنا. رسميًّا، لا يُفترض مني الاهتمام بأي حدث لا يقع في مجلس العموم، وأنا أبذل قُصارى جهدي تشجيعًا لهذا الرأي. وعلى أية حال، يتولى فريق الجرائم لدينا مهمة شبيهة لتلك. لا أريد الشاي عزيزي بوبي. لماذا تسمح لرجالٍ آتين من بلاد غريبة أن يغروك بشرب هذه الأشياء؟ لا عجب من أن تنهض وتقتل ضيوف رئيسك في العمل عند أدنى استفزاز ...»

أُلقيت وسادة على فمه. وضع سانكروفت الوسادة خلف رأسه ووضع قدميه على رف الموقد.

«والآن بُنيَّ بوب، كان عليك أن تخبر عمك بالمعلومات الخفية بشأن هذا الحفل البسيط الذي أُقيم في الغرفة جيه. ظللت أبحث عن سجلات السيد جورج أويسيل ويبدو لي أنه كان ضيفًا مهمًّا.»

«ما المعلومات التي توصَّلت إليها عنه؟»

«إنه مدير مؤسسة «أمريكان فورين لونز» ورئيس شركة «إكلير تيكسان أويل». وفي وقت فراغه، يبدو أنه يدير مشروعًا أو مشروعين آخرين مفيدين. والآن، لا أرى وزير الداخلية مهتمًّا بشركة إكلير تيكسان أويل. أظن أنه لا يملك الكثير من المال، وما يملكه مجمَّد في أوراق مالية كاسدة للغاية. لكن مؤسسة «أمريكان فورين لونز» مختلفة نوعًا ما. أكان ظلًّا لرئيس الوزراء الموقر، فأنا أظن أن وزارة الخزانة على علم بتلك الواقعة السعيدة ... أم تُراها لا تعلم؟ رئيس الوزراء لدينا وغد لأنه لا يسمح لكل وزارة أن تعمل فيما يخصها إذ جعلها تسعد بالاهتمام باختصاصات أخرى.»

كان ويست يجدل شوكة تحميص سلكية ويحولها إلى أشكال غريبة. وضعها جانبًا وبدأ يغدو ويروح في الغرفة.

«ساني، لديك ما لديَّ من معلومات. أبقى مجلس الوزراء على سرية المفاوضات بشأن القرض. اضطروا لذلك. لا يمكنك تولي عمل كهذا في متحف ألبرت هول وتفرض رسومًا على الدخول. ولكن على حد علمي، كان الطرفان يُتمَّان صفقة مباشرة. كانت الشروط شديدة، ولكن حسبما أتذكر، كان أويسيل ووزير الداخلية يحاولان الوصول إلى تسوية وعمل مفاجأة لرئيس الوزراء.»

سأل شاو: «إذن، لماذا اختار أويسيل تلك اللحظة وأطلق الرَّصاص على نفسه من دون أن يعطي وزير الداخلية ولو تلميحًا؟»

قال سانكروفت: «وهل السرقة محض صدفة؟ كلا يا صديقي، هناك شيء غامض بشأن تلك القضية.»

جلس الرجال الثلاثة يدخنون الغليون بعد تعليقات سانكروفت، ثم استهلوا حديثهم حينما قُرع جرس الباب بصوت عالٍ مرة أخرى.

ذهب شاو إلى النافذة وحاول أن ينظر في الشارع بين زخات المطر الغزيرة، وقال: «من سيأتي في هذه الساعة؟ هل ينبغي أن نفتح الباب؟»

قال سانكروفت: «الأفضل أن نرى من الطارق. قد يكون أحد ما في ورطة الآن. سأنزل، وإذا كان شخصًا لا يحمل معلومات جديدة عن ذلك اللغز، فلن أسمح له بالدخول، ما لم تكن بانتظار ضيف خاص الليلة يا بوب.»

بادله ويست الابتسامة وعاد إلى جدل شوكة التحميص السلكية حتى ناداه سانكروفت من الصالة: «بوب، إنه المفتش بلاكيت.»

خرج ويست كي يرحب بضيفه وسمع شاو صوتًا عميقًا لكنه لطيف يقول: «أنا أعتذر إليك حقًّا على مجيئي في هذا الوقت يا سيد ويست، ولكن تعيَّن عليَّ أن أراك.»

«لا عليك أيها المفتش. لم نشعر بالنعاس حتى الآن. دون، هذا المفتش بلاكيت، واحد من أفضل رجال شرطة سكوتلانديارد.»

ابتسم دون: «سعيد لأنني قابلت واحدًا منهم في الواقع. هلا بكأس أيها المفتش؟»

لما كان شاو يمارس طقوسه في إعداد الويسكي والصودا، أخذ انطباعًا عن الوافد الجديد من أسلوبه الهادئ واللين. المفتش له جسم ضخم ولون بشَرته مثل سكان الدول الاسكندنافية ووجهه مرح ويرتدي بدلة لونها أزرق قاتم ومظهره يدل جزئيًّا على أنه صاحب سلطة، ولكنه يحترم سلطة الآخرين جزئيًّا، وتلك الصفة ملموسة في أصحاب الرتب العليا في الشرطة البريطانية.

سأل المفتش وهو يأخذ الكأس من دون: «أذاك الرجل الذي كان يتناول الطعام معك؟»

«نعم، بالطبع تعرف سانكروفت.»

قال المفتش مبتسمًا: «أعرفه حق المعرفة، ولكنه يخبرني أنه هنا بصفته صديقًا لك وليس بصفته صحفيًّا، لنتحدث عن العمل.»

قال سانكروفت: «بالطبع سمعت عن سرقة شقة أويسيل الليلة»، لكنه تمنَّى لو لم يتفوَّه بكلمة.

«تعالَ إلى هنا. أظن أنك أخذت الخبر من شريط التلغراف. يا له من حزنٍ بالغٍ على جينكس، أليس كذلك؟»

لهث بوب: «جينكس، ماذا حدث له؟»

قال المفتش آسفًا: «مات هو الآخر. ظننت أنكم تعرفون بما أنكم على علم بأمر السرقة. ضربه اللصوص بالرَّصاص.»

قال سانكروفت: «لم يكن هذا الخبر في الرسالة الأولى التي رأيتها. انتقل جينكس إلى الدار الآخرة! جينكس، أفضل حارس لدى وزير الداخلية. ناولني قبعتي، سيظن رئيسك أن اليوم ليس يوم حظه يا بوب.»

سأل شاو: «ولكن من يكون، أو من كان جينكس؟»

«أخبرتك على الغداء. إنه الحارس الخاص لوزير الداخلية. لقد أنقذ حياة الوزير حينما كان في منصب وزير الخارجية في الحكومة السابقة، ولذا اتخذه الوزير حارسًا له ومستودع أسراره، وكان يهتم لأمره كثيرًا. كان أفضل حارس حقًّا ذلك الشاب البائس.»

قال المفتش: «الدافع الأساسي لمجيئي هنا هو التحدث بشأن جينكس. لا بدَّ أنه مات باسلًا وهو يدافع عن ممتلكات أويسيل من اللصوص، ولكني لا أفهم البتة سبب تواجده هناك. لماذا لم تقع حماية أويسيل على عاتق شرطة سكوتلانديارد كما جرت العادة؟»

قال ويست وهو يدفع جرة التبغ إلى بلاكيت: «لأنه ببساطة لن تكون حمايته من مسئوليتكم. مع احترامي لرجالكم أيها المفتش، فإن الحراس الذين توفرونهم للزوار المرموقين قد يكونون مصدر إزعاج كبير لهم. لم يكن لدى أويسيل أي حراسة سوى خادمه، إنه عجوز فَرنسي غريب يُدعى بيير دوبيسك ولا يستطيع أن يبعد صرصورًا. رجل مثل أويسيل له عدد كبير من الأعداء، ولذا اهتمت الحكومة غاية الاهتمام لئلا يصيبه مكروه أثناء وجوده هنا. ولم يكن من الحكمة أن يرد رجالكم، ولذا بعدما فكرنا في كل الحلول الممكنة، توصَّل وزير الداخلية إلى أن يعرض عليه خدمات جينكس. ومِن ثَم تعامل هو وأويسيل العجوز معاملة ممتازة.»

سأل سانكروفت: «ولكن ما الذي حدث في الشقة يا بلاكيت؟ عن أي شيء كان يبحث اللصوص؟»

«لم تتوافر لدينا كل التفاصيل بعد. وليت تلك المهمة لرجل كُفء. وجدنا خادم أويسيل مخدرًا بالكلوروفورم. اشتبه الشيال حينما رأى رجلين صعِدا في المصعد ونزلا مندفعَين على السلَّم، ومِن ثَم اتصل بالشرطة. وجدت الشرطة جينكس البائس ميتًا في الصالة ودوبيسك مخدرًا بالكلوروفورم. وإلى أن يعود إلى وعيه، لن نتمكن من معرفة ما جرى.»

«أليست لديك فكرة عما كانوا يبحثون عنه؟ هل كانت حادثة سرقة عادية؟»

«على قدر ما يستشف المرء، لم تكن حادثة سرقة عادية. فالشقة ممتلئة بالمقتنيات الثمينة التي كانوا سيأخذونها لو كان الدافع هو السرقة. أليست لديك أي فكرة عما كانوا يبحثون عنه يا سيد ويست؟»

«الأحرى أن تطرح هذا السؤال على وزير الداخلية أيها المفتش.»

وضع المفتش كأسه ورفض أن يحتسيَ كأسًا أخرى ومال إلى روبرت.

قال بنبرة جادة: «سيد ويست، حل تلك المسألة أمر مهم بالنسبة إلى الحكومة، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنه بالغ الأهمية.»

«لذا أحتاج إلى مساعدتك في الحصول على معلومات مؤكدة، ولا أظن أنه يمكنني فعل الكثير من دون تلك المعلومات.»

في الحقيقة، كانت تلك العبارات مداهنة إذ تورَّد وجه ويست توردًا طفيفًا. لكن الشاب كان سياسيًّا محنكًا، ولا يميل إلى التسرع في منح الثقة.

«يمكنني تقديم المساعدة أيها المفتش، ولكنك تعلم أن السكرتير البرلماني الخاص لا تقال له كل المعلومات مطلقًا، ولا حتى بالقدر الذي يجعله يعلم ما المعلومات التي يجب ألَّا يتفوه بها.»

«لا أريد الحصول على أسرار دولة يا سيد ويست. الرسالة التي تلقيتها من وزير الداخلية تقول إنه يهتم كثيرًا بحل تلك القضية حلًّا ناجزًا ومِن ثَم ينبغي للحكومة أن تعرف ما حدث على الأقل، على الرغم من أن الحكمة تقتضي عدم تسريب قدر كبير عن شئون أويسيل الخاصة إلى العامة. ستكون مهمتي مستحيلة إذا لم أحصل على مساعدتكم الكريمة ولو حتى بإجراء حوارات مع وزير الداخلية حينما أحتاج إليها. وإذا ساعدتني، فأنا أعدك أن أُطلعك على المستجدات من جانبي.»

قال سانكروفت: «يا له من عرض يا بوب! أوكل لي تلك المهمة أيها المفتش، وسأكون عبدك المطيع إلى أن يُعرف قاتل جينكس.»

ابتسم المفتش: «سبق لك أن ساعدتني يا سيد سانكروفت، ولكن الصحفيين ليسوا من المرغوب في وجودهم في تلك القضية. لكن بصفتك صديقًا للسيد ويست، فسنسعد بالحصول على أي مساعدة تقدمها لنا، فأنا لم أجد خيرًا من «أنفك» في التقصي عن الأخبار.»

قال سانكروفت وهو يمسد أنفه: «عضو ضئيل الحجم، لكنه مفيد.»

أضاف شاو بصوته الناعم البطيء: «هل سأبقى خارج تلك المغامرة؟»

قال بوب: «بالأحرى لن تبقى خارجها. لقد سُحبت قدماك إليها بالفعل، ولذا عليك البقاء هنا. حسنًا، نحن طوع أمرك أيها المفتش. مُرنا الآن.»

ابتسم المفتش: «لا أظن أننا سنواجه أي صعوبة الآن أكثر مما يقتضيه شحذ هممنا للعمل، ولكن أخشى أن نواجه صعوبة. على أية حال، لا يوجد شيء آخر نفعله الآن. فقد أعطيتني المعلومات التي أريدها عن جينكس. لديَّ مقابلة مع وزير الداخلية في الساعة الثانية عشرة غدًا في الوزارة — بالطبع إذا لم يُضطر إلى إلغائها كي يحضر اجتماع رئاسة الوزراء أو شيئًا من هذا القبيل. عندئذٍ، سأحتاج إلى مساعدتك يا سيد ويست.»

«اتفقنا. سأكون في مكتبي بوزارة الداخلية غدًا من العاشرة والنصف. لا أعدك بأنك ستتمكن من حضور المقابلة، ولكني سأوصل الرسائل.»

نهض المفتش. «إذن، لا أظن أن قسطًا من النوم سيضرنا، وبالأخص أنت يا سيد ويست.»

قال ويست لما انشغل بإحضار معطف ضيفه وقبعته: «أشعر كأني غريب على الأرض.» لما رأى سانكروفت يرتدي حذاءه مرة أخرى، أردف قائلًا: «لا تقل لي إنك ذاهب، حسنًا؟»

«أوه، سأتمشى مع المفتش وأفكر مليًّا في نظرية أو نظريتين. تبدو لندن مكانًا تقتضي الحكمة ألا يمشي الناس فيه فرادى بعد ليلة كتلك.»

لما غادر بلاكيت وسانكروفت، وقف ويست لبرهة وأخذ ينظر إلى شاو إذ لا يزال مسترخيًا في كرسي بذراعين.

قال: «لن تكون لندن مثيرة لدرجة تجعلك تمكث فيها.»

رد دون وهو يتثاءب: «البداية مثيرة للغاية، وأرى احتمالات المزيد من الأحداث المثيرة حينما تكتمل بقية الصورة.»

الفصل الرابع

كبير المسئولين الدائمين لدى وزارة الداخلية السيد جورج جليسون رجل ينتظر ثناء الناس عليه، وقد كان. معرفة السبب ليست صعبة. لم تكن صفاته ذات جمال فريد — بل كان قصيرًا، عريض المَنكبَين، شعره أسود، حليق الذقن. من نظرة عابرة، قد يشبه أي مهني حسن السمعة. ولكن بمجرد أن تلتقيَ عيناك مع عينيه، فلن تنسى البتة أن الرجل أثار إعجابك. عيناه غائرتان وسوداوان يعلوهما حاجبان كثيفان — عينان لامعتان كأنهما تستوعبان كل ما تفكر فيه أو تشعر به، وكذا كل كذبة تفوهت بها.

كان جورج جليسون أقرب إلى مرحلة الشباب إذ كان قد بلغ بالكاد سن الخمسين، وكان يتمتع بحس الدعابة والخيلاء لدرجة أن بعض زملائه الأكبر سنًّا كانوا يرون أن تصرفاته صبيانية في بعض الأحيان. المناصب العليا في الخدمة المدنية البريطانية يتقلَّدها رجال بارزون. والتعامل بين أعضاء الحكومة عبارة عن لعبة تحايل مُتقَنة، ومن يجربون مظاهر الأبهة والعظمة، تنخلع عنهم تلك المظاهر. ومِن ثَم، كان لجورج جليسون زملاء ورؤساء أقسام لعبوا على نقاط ضعفه القليلة؛ وربما كانوا هم من يُكنُّون الاحترام لعقله ورأيه وعدم مبالاته المطلقة. في الحقيقة، كان جورج جليسون موظفًا مدنيًّا من النوع الذي لا يصدق الأمريكيون أنه موجود حقًّا.

لم تكن مهام وزارته معنية بأنشطة الشرطة في بريطانيا العظمى فحسب، بل بإدارة وزارة الداخلية ككل. وعلى الرغم من ذلك، جورج جليسون أحد الرجال القلائل الذين لا تنقطع عن حياتهم بعض أوقات الفراغ. احتاج إلى تلك الهدية كي يختليَ بنفسه بعض الوقت هذا الصباح إذ يعج مكتبه الكبير في وزارة الداخلية بكمٍّ هائل من القصاصات الصحفية المثبتة على أوراق ربعية من الورق العادي إذ تحدث عن قضية قتل أويسيل.

وفيما يلي بعض العناوين التي تعطي صورة عن الرأي العام بشأن الأحداث الغريبة التي وقعت في البرلمان ليلة البارحة.

«انتحار ضيف الوزير»
«حادث موت غريب لمليونير على العشاء الخاص لوزير الداخلية»
«رجل أمريكا الغامض يموت في مجلس العموم وتتعرض شقته لحادث سطو»

عناوين الصحف كانت تناديه.

لو وقع هذا الحادث مع أي وزير آخر، لما اهتم السيد جورج جليسون شخصيًّا بذلك. كان قسم الشرطة يدير شئونه الخاصة إلى حدٍّ كبير، إلا عندما يتعيَّن اتخاذ قرارات بشأن المسائل السياسية. لكنه كان موظفًا مدنيًّا يتحلى بالكفاءة والإخلاص، ولذا كان يعتبر أي أحداث تقع لرئيسه السياسي كأنها وقعت له شخصيًّا. انتفض جورج جليسون، ولكن إذا كان السياسي — رئيس لساعة عابرة — سينطلق في مغامرات سياسية بدلًا من التمسك بمشكلته مثل فتًى طيب يُمسك بيد مربية حكيمة، فما المتوقع غير المتاعب؟ شعَر السيد جورج أنه وقع في كل المتاعب التي أرادها من وزير الداخلية ذاك، المبجل ظاهريًّا والعنيد باطنيًّا شأنه شأن الموظف المدني الكبير نفسه.

ضغط السيد جورج على أحد الأزرار الكهربائية المصطفة على مكتبه، ومِن ثَم دخل عليه السكرتير من دون ضوضاء من خلف حاجز صغير.

«من الذي يتولَّى القضية التي وقعت في مجلس العموم؟»

«المفتش بلاكيت يا سيدي. لقد اتصل من دائرة التفتيش الجنائي ويطلب رؤيتك في أقرب وقت ممكن.»

«هل وصل وزير الداخلية؟»

«كلا يا سيدي، اتصل هاتفيًّا من منزله وقال إنه لن يأتيَ حتى يحين موعد المفتش بلاكيت في منتصف اليوم.»

«الأفضل أن تتصل ببلاكيت واطلب منه المجيء إليَّ الآن.»

«أمرك يا سيدي.»

رن جرس الهاتف. إنه سكرتير رئيس الوزراء. هل اطلع السيد جورج جليسون على الأخبار وعلى مديح رئيس الوزراء إذ ينبغي للسيد جورج أن يُوليَ تلك المسألة بعض الاهتمام وإلا فقد تظهر قضايا خطيرة؟

استفسر الموظف الكبير في وزارة الداخلية: «هل يرغب رئيس الوزراء في رؤيتي؟»

تشدق الصوت على الهاتف بلكنة صافية لأهل أكسفورد: «أوه، كلا، إنه لا يظن أنه ينبغي إزعاجكم. طلب مني فقط أن أخبركم ...»

«إذن، أخبر رئيس الوزراء أن المسائل التي تتعلق بالوزارة التي أعمل لديها ستنال اهتمامي البالغ كالمعتاد.» ثم وُضعت سماعة الهاتف مرة أخرى في مكانها.

يخطئ رؤساء الوزراء عندما يعتمدون حصرًا على الكفاءة دون مراعاة الجانب الإنساني. فقليل من الإطراء الشخصي يُسهِّل الأمور كثيرًا.

ضغط السيد جورج على الزر كي يُدخل المفتش بلاكيت، ومِن ثَم حيَّاه بالتحية الواجبة في حضوره. لا يرتكب السيد جورج أخطاءً في التعامل مع مرءوسيه. كان تعامله مع المفتش مزيجًا غامضًا كأنه صاحب ملك يستقبل كبير الموظفين لديه ربما في الرتبة الرابعة من التسلسل الهرمي وكأنه رجل من العامة يتحدث إلى آخر في الأعمال. كذلك لم يترك أحدًا منتظرًا عند بابه بينما مضى قُدمًا في إنجاز عمله. دخل في صلب المسألة محل الحديث مباشرةً.

«أظن أن تلك الوقائع صحيحة أيها المفتش. هل لديك أي تفاصيل إضافية؟»

نظر بلاكيت إلى كومة الصحف على المكتب.

«هل وصلتك آخر الأخبار يا سيدي بشأن السطو على شقة السيد أويسيل وموت جينكس؟»

«نعم. جينكس، يا له من مسكين! إنها مسألة غير عادية حقًّا. لا أتدخل البتة في قضايا الشرطة يا بلاكيت، ولكن نظرًا لاحتمال وجود مشكلاتٍ أكبر من موت هذين البائسَين، فقد طلبت من رئيسك أن تبقى على تواصل معي.»

«حسن جدًّا يا سيدي.» شعَر المفتش بلاكيت بوهَجٍ دافئٍ بداخله. حتى بالنسبة إلى المحققين المتمرسين في شرطة سكوتلانديارد، فإنهم يعتبرون السكرتير الدائم للوزير بمثابة إله في سماء بعيدة. وأن يكون بلاكيت تحت إمرته المباشرة، فهذا حسن حظ يقدره بلاكيت حق التقدير.

أخذ السيد جورج جريدة «ديلي دليفيرر». «يبدو أن تلك الجريدة تنشر أكمل تقرير وسيكون بمثابة أساس. لم أرَ وزير الداخلية منذ وقوع ذلك الحادث. أظن أن العشاء مع السيد أويسيل اتسم بخصوصية تامة، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي. السيد ويست رتَّب العشاء لوزير الداخلية.»

استفسر السيد جورج بحدة: «وما شأن ويست بهذا؟» مثل جميع الموظفين المدنيين المهمين، كان يكره مهن السكرتارية السياسية الخاصة التي لا تتحمل مسئولية ولكنها تُمنح هذا التواصل الشخصي مع الوزير.

«قال السيد ويست إنها كانت مسألة شخصية، ولا عَلاقة لها بوزارة الداخلية.»

«فهمت.» كان الأمر سيتطلب دراسة مُكوَّنة من ثلاثة مجلدات لشرح كل تلك الحماقة المعبَّر عنها في تلك الملاحظة.

«على حد معلوماتي يا سيدي، لم يكن السيد أويسيل راغبًا في المجيء في بادئ الأمر. فهو لم يحضر البتة فعالياتٍ اجتماعية.»

«إذن، لماذا كانت هذه المرة استثناءً؟»

«ذاك ما لا أعلمه. قال السيد ويست إنه يجب أن أسأل وزير الداخلية. أعتقد أنه من الأفضل أن تسأله أنت يا سيدي.»

تذمَّر السيد جورج تعبيرًا عن نفاد صبره. «لكن هل لدى أحد فكرة عن سبب مجيئه إلى مجلس العموم من أجل العشاء ثم الانتحار وهو لا يزال تحت ناظر مضيفه؟»

«هذا لو انتحر يا سيدي!»

نظر السيد جورج متحيرًا: «لو انتحر؟ ما الذي تعنيه بقولك هذا؟ هل هناك شكٌّ في ذلك؟ كل الصحف تقول إنه انتحر بمسدس وُجد بجانبه.»

«ربما الأصلح أن ندع الصحافة تستمر في تلك الرواية إلى أن تتضح الرؤية أمامنا، ولكن يوجد عدة سمات تحيرني في القضية.»

«بالطبع أجريت أنت والخبراء كل الاختبارات المعتادة، أليس كذلك؟»

«أوه، بلى، وهنا تكمن الصعوبة. أجزاء الأدلة لا تتوافق مع نظرية الانتحار.»

«هل الرَّصاصة لا تتوافق مع المسدس؟»

«بعض الشيء، وغِلاف الرَّصاصة التي أُطلقت بالتأكيد لا يزال في المسدس. وفوَّهة المسدس تحولت إلى اللون الأسود.»

«حسنًا، وماذا بعد؟»

«لكن يا سيدي عندما ينتحر إنسان، فإنه يثبت المسدس جيدًا بالقرب من جسده أو رأسه أو قلبه أو فمه أو أي جزء يطلق الرَّصاص على نفسه فيه. عندئذٍ، يظهر على الملابس أو البشَرة التي ضغط بالمسدس عليها علامات احتراق جرَّاء انطلاق الرَّصاصة.»

«هل تلك الحالة ثابتة؟»

«هل أريك يا سيدي؟» أخرج بلاكيت علبة ثقاب من جيبه. أشعل عود الثقاب بحيث يلامس طرفه الورق النشاف وقت الإشعال، قال: «انظر الآن يا سيدي. ترى علامة اللهب تلك يا سيدي. على الرغم من سرعة هذا الإجراء، لم نتمكن من تجنُّب ترك أثر في الورق النشاف. بالطريقة نفسها، لا يمكنك تجنب ترك أثر اشتعال بسبب لهب المسدس إذا ضُغط به على الملابس أو البشرة عند إطلاق الرَّصاص.»

جرب السيد جورج التجربة بنفسه. قال متأملًا: «نعم، أرى ذلك، ولكن هل يجب الضغط بالمسدس على الجسم في تلك الحالة؟ ألا يُحتمل أن السيد أويسيل صوَّب المسدس من بعيد عندما أطلق الرَّصاص؟»

«هذا مجرد احتمال، لكنه ليس مرجحًا حيث إنه قد لا يُترك أثر احتراق إذا أطلق الإنسان الرَّصاص على نفسه من خلال فمه كما يُفعل في العادة، ولكن التصويب على القلب مختلف. لن يريد الرجل أن يشعر بضربات قلبه قبل إطلاق الرَّصاص. سيُضطر إلى الضغط بالمسدس على جسمه وإلا فسيكون ارتكابه تلك الجريمة محل شك. وتلك نقطة أخرى يا سيدي. لا يصوب المنتحرون الرَّصاص على أجسامهم إذا عقدوا العزم على إنهاء حياتهم. فتلك مخاطرة كبيرة.

قد تذهب الرَّصاصة في أي مكان وربما يئول الأمر إلى الرقاد في المستشفى عدة أسابيع.»

«وأنا أتخيل أن السيد أويسيل ليس جديدًا على استعمال المسدس.»

«كلا يا سيدي. بناءً على التحريات، استنتجنا أنه كان رجلًا قويًّا في أيام شبابه، وكان معتادًا على استخدام السلاح. بالطبع هذا بالرغم من عجزه حيث إنه أصيب بعيارٍ ناريٍّ في مكان سيئ وهو في ديترويت حينذاك.»

«هل تلك الإصابة تعيق قدرته على إطلاق النار؟»

«أوه، كلا يا سيدي. على حد ما عرفته من خادمه، لم يُصَب غير ساقيه بتلك الإصابة السيئة التي أدَّت إلى عرجه. فقد كان يتحرك بصعوبة كبيرة.»

«تلك الإصابة ستسهل على شخص آخر أن يطلق النار عليه، ولكن من كان هناك من أجل ارتكاب تلك الجريمة؟»

«هنا يكمن اللغز يا سيد جورج. وعلى حد قول السيد ويست، فقد كان السيد أويسيل بمفرده في الغرفة عندما دخل هو والسيد شاو وخادم الضيافة وقت سماع صوت إطلاق الرَّصاصة.»

«هل تمكن أحد من الدخول إلى الغرفة في الفترة بين مغادرة وزير الداخلية ودخول السيد ويست؟»

«أظن أنه لم يواجه أي صعوبة في دخول الغرفة. كان الكل منشغلًا في قاعة هاركورت والمكان يعج بالغرباء ... ربما مرَّ شخص أنيق الملبس باعتباره ضيفًا، ولكن لا يمكن أن يخرج مرة أخرى من دون أن يراه السيد ويست.»

«ألا يستطيع الخروج من النافذة؟»

ابتسم المفتش بلاكيت. «أنت تعلم أن تلك النوافذ تُطلُّ على الشرفة المكشوفة يا سيدي. إنها ضيقة للغاية ويَصعُب على الرجل أن يعصر نفسه ويمرَّ منها من دون أن يلفت الانتباه إلى حد كبير. وكان الجو معتدلًا حينذاك وكان المكان مضاءً. كان الناس يتمشَّون في الشرفة المكشوفة. ولكن على أية حال، كانت النوافذ موصدة من الداخل وأنت تعلم مدى متانة المشابك في تلك النوافذ. فلا أحد سيخرج من النافذة ثم يقفلها خلف نفسه.»

عبَّأ السيد جورج غليونه وهو غارق في التفكير، وناول كيس التبغ وعلبة السجائر بلاكيت، ومِن ثَم أخذ سيجارة. «لنفترض أن أحدًا دخل إلى الغرفة بعدما غادرها وزير الداخلية وأطلق الرَّصاص عليه وأطلق رَصاصة تمويه في مكان قريب ومِن ثَم سمع السيد ويست تلك الرَّصاصة. هل فكرت في ذلك؟» المفتش بلاكيت رجل متمرس. تمكن من عدم إظهار تعبيرات وجهه، بل إنه أظهر أنه يُبدي اهتمامًا مهذبًا بنظرية رائعة.

«ينبغي اعتبار تلك النظرية محتملة يا سيدي. إنها نظرية ذكية للغاية إذا جاز التعبير، ولكن هناك صعوبة أو اثنتين. لم تُسمع رَصاصة أخرى، والتكهُّن بإطلاق رَصاصة أخرى يوضح عدم احتمالية مرور شخص آخر من دون أن يلاحظه أحد حتى في تلك الساعة المزدحمة. وفي رأيي أنه لا شك في أن الرَّصاصة التي سمعها السيد ويست هي الرَّصاصة التي قتلت السيد أويسيل.»

«كانت مجرد نظرية خطرت على بالي. كلنا نحب أن نشاركك في عملك يا بلاكيت. ولكن من أطلق الرَّصاص؟ الشخص الوحيد الذي كان في الغرفة ومعه مسدس ... ولكن بالمناسبة، هل المسدس ملك للسيد أويسيل؟»

«نعم يا سيدي. تعرَّف دوبيسك على المسدس. والحروف الأولى من اسم السيد أويسيل محفورة عليه.»

«غريب هذا. وماذا عن البصمات؟»

«لن نعثر إلا على بصمات السيد أويسيل نفسه وبصمات السيد ويست.»

«بصمات السيد ويست؟»

«أخذ المسدس من الأرض عندما وجد الجثة. ولكن بصماته خفيفة للغاية، وليست البصمات التي يتركها الضغط اللازم من أجل إطلاق الرصاص. ولكن بالطبع ربما ارتدى الفاعل قفازات.»

«لكن ألا تظن أن الحادث انتحار؟»

«بناءً على الاختبارات التي أجراها خبراؤنا، لا أظن ذلك يا سيدي.»

«إذن لا يمكننا ترك المسألة عند هذا الحد. وعلى أية حال، يجب أن تعرف الحكومة الحقيقة وإلا فسنصبح كلنا على فوَّهة بركانٍ معرَّض للثوران في لحظة صعبة. أنا أثق في خبرتك ورجاحة عقلك في تلك القضية يا سيد بلاكيت. لنتحدث الآن عن عملية السطو على الشقة. قُدِّم جينكس إلى السيد أويسيل بصفته حارسًا شخصيًّا عندما رفض حماية الشرطة. لماذا لم يكن معه في المجلس؟»

قال بلاكيت: «يبدو أن السيد أويسيل يخاف على أوراقه أكثر مما يخاف على نفسه، وكره الحماية الشخصية عند خروجه، حتى الحماية من جينكس. لا يخرج إلا نادرًا، ولا يخرج إلا لعمل رسمي حسبما علمت.»

«بالطبع لا يمكن لأحدٍ أن يقول «لقد أخبرتك بكذا» لرجل ميت، ولكن ...» ونبرة السيد جورج أوصلت ما يراه في الحقيقة بشأن الزوار الأجانب الذين لا يفعلون ما تقوله لهم الشرطة البريطانية بحذافيره ومِن ثَم يُقحمون أنفسهم في فوضى كتلك. ظل السيد جورج صامتًا لفترة مائلًا إلى الأمام وينقر على محبرة بقلم رصاص. جالت عينا بلاكيت في الغرفة الكبيرة الكئيبة. لم يسبق له أن رأى هذا الحرم الداخلي لدار سلطة عليا. بدت الغرفة موحشةً حتى في عينَي مهنته. تنم الكتب الضخمة على الرفوف عن عظمة القانون المسطور في عدة آلاف من الصفحات. بدا مكتب السيد جورج نصبًا تاريخيًّا وليس مجرد قطعة أثاث. رف الموقد البسيط للغاية المصنوع من ألواح الرخام الأبيض الثقيل توحي بدخول قبر وليس هيكلًا محددًا لإشعال نيران الدفء. ولكن أكثر شيء أثار اهتمامه هو نموذج مطبوع له حافة سوداء وملصق على ورق مقوى مسنود على رف الموقد.

بخط أسود سميك، كُتب العنوان «أحكام الإعدام». وتحت العنوان، مكتوب سبعة أسماء. من الناحية المهنية، يهتم بلاكيت برؤية الجانب الآخر من عمله. ساعد في تتبع المجرمين وتسليمهم إلى القانون. وفي المرحلة قبل الأخيرة من تنفيذ الحُكم، يُكتب اسم المحكوم عليه بخط جميل على تلك البطاقة. تلك مهمة من المهمات العديدة المنوطة بالسيد جورج جليسون أن يقرر أيهم ينتقل إلى المرحلة الأخيرة والنهائية. بفخرِ فنيٍّ ماهر، بدأ

المفتش يتساءل هل بإمكانه إضافة اسم آخر أو ربما اسمين إلى تلك القائمة عندما يحل لغز تلك القضية أم لا. تحت السيد جورج مباشرة أيضًا. إنه محظوظ في هذا الموقف.

توقَّف السيد جورج عن النقر بالقلم الرصاص والتفت إليه.

«حسنًا، أنا سعيد لأن تلك القضية بين يديك يا بلاكيت. أطلعني على المستجدات في كل مرحلة. سأعرِّج على وزير الداخلية كما قلت، وإن كان يعرف أي شيء يساعدك، فأنا متأكد من أنه سيحرص على أن يعطيَك الوقائع.»

«لديَّ موعد مع وزير الداخلية في الساعة الثانية عشرة يا سيدي.»

«أوه، نعم، لقد قلت لي. نسيت. الأفضل أن أعفيَك من ذلك. ربما يراك في وقت لاحق. متى ستبدأ التحقيقات؟»

«بعد غد في الساعة الثانية عشرة يا سيدي.»

«بالطبع ستطلب تأجيلًا، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي. علينا فقط أن نقدم دليلًا رسميًّا حينها.»

«جيد، سأراك قبل ذلك. ربما في وقت لاحق اليوم. أوه، على أية حال، هل عينت حراسة على الغرفة جيه؟»

«أصدرت الأوامر بضرورة حراسة الغرفة في الليل والنهار يا سيدي.»

«احتراز مفيد. ما الذي ستفعله الآن؟»

«إذا كنت ستقابل وزير الداخلية يا سيدي، أريد أن أذهب إلى شقة السيد أويسيل في تشارلتون كورت لفترة قصيرة. لم أتمكن من دراسة الألغاز هناك حتى الآن، ولكني وضعت رجلًا يمتاز بالكفاءة ريثما أذهب.»

«جيد جدًّا إذن. صباح الخير وحظًّا موفقًا.»

«شكرًا لك يا سيدي.» أغلق المفتش بلاكيت فمه وهو خارج إلى الطرقة. السيد جورج العظيم وضع القضية بين يديه. سيريه. بدت الترقية قريبة إلى المفتش بلاكيت حينئذٍ.

الفصل الخامس

في الساعة العاشرة والنصف من صبيحة اليوم التالي لوقوع الجريمة، صعد روبرت ويست السلَّم المركزي لوزارة الداخلية بخطًى هادئة، ولكن من داخله كان يطوي ثلاث درجات في المرة، إذ نفد صبره كي يسمع أي أخبار جديدة إن وجدت. يبدو أن هناك احتمالات لقضاء وقت مثير للغاية. اختلطت كل النظريات في عقله حينما التقى مصادفةً رجلًا كان يقف على الدرجة العلوية من السلم.

«أستميحك عذرًا ... أوه، أهذا أنت يا كينيرد! آسف بشدة، فأنا لم أرَك. انشغل عقلي بما حدث البارحة.»

«لا عجب في ذلك. ما كان لي أن أعترض طريقك هكذا، ولكني حرَصتُ على أن أتحدث معك قليلًا قبل أن تذهب إلى مكتبك.»

«بالطبع.» أمال ويست على الدرابزين الحجري. «هل أنت على علم بهذا اللغز الكبير، أم ناديت كي تطمئننا أنه لا مجال لكسب منفعة لصالح الحزب من تلك القضية؟»

ابتسم كينيرد: «هل تراني في وضعٍ يؤهلني لذلك؟ ولكن ما المنفعة التي يمكن أن تُجنى لصالح الحزب من تلك القضية؟ بالطبع إنها مسألة مؤسفة، ولكن سيتعاطف الجميع مع وزير الداخلية تعاطفًا كبيرًا.»

«أنت متفائل أكثر من كونك سياسيًّا إذا كنت تعتقد أن هذا كل ما في المسألة يا كينيرد. هل من شيء تريدني أن أفعله من أجلك؟»

«حسنًا، أرجو أن تسامحني. فقد توجهت بسيدة إلى مكتبك.»

«يا ربي، لا أريد مزيدًا من الألغاز يا كينيرد! إذا كنت تريد تنظيم عرض عن جريمة قتل أو انتحار، فعندك وزارة الصحة. فوزارة الداخلية العجوز البائسة لديها ما يكفي من المسئوليات لمدة أسبوع.»

«لكن السيدة هي حفيدة جورج أويسيل الكبرى.»

«يا ربي يا كينيرد، كيف لي أن أتحمل امرأة منتحبة بالإضافة إلى كل ما حدث! بالإضافة إلى ذلك، اللعنة، لماذا أنا؟ أنا لم أقتل الرجل ولا أعرف الجاني.»

نظر إليه كينيرد بسرعة: «قتل؟ لكن كل الصحف تقول إنه انتحار. ألم يكن انتحارًا؟»

وبَّخ ويست نفسه على تلك الزلة. «بالطبع كان انتحارًا. ولا شيء غير ذلك. ولكن عندما تنتهي الشرطة من استجواب شخص، بات شبه مقتنع أنه من ارتكب الجريمة بنفسه. لماذا تريد السيدة رؤيتي؟»

«كي أكون صريحًا معك، لم تطلب السيدة رؤيتك. بل أرادت مقابلة وزير الداخلية. وإنها صديقة عزيزة لديَّ وقد وعدتها أن أساعدها قدر الإمكان. ستعرف السبب حينما تقابلها. لكنها ليست العذراء الباكية. لو كانت هي، لوجدت التعامل معها أسهل.»

بهذا الوصف غير المليء بالأمل، تنحى كينيرد جانبًا وفتح ويست باب مكتبه ثم قال بنبرة لطيفة: «أنيت، أعرفك على السيد روبرت ويست.»

طرفت عينا ويست وكأن شخصًا أشعل مصباحًا قوسيًّا في غرفته الصغيرة الرثة. لم يكن ضمن قائمة معارفه النساء اللائي ينفقن ٢٠٠٠ جنيه إسترليني في السنة على الملابس ويدفعن راتبًا ٣٠٠ جنيه إسترليني من أجل وصيفة خبيرة. على الرغم من أن أنيت أويسيل ترتدي ملابس سوداء، فإن أناقتها تعطي انطباعًا أنها ترتدي ملابس زاهية اللون. لم تقم عند التعارف ولكنها مدت يدها. انحنى عليها بوب، لكنه استهل حديثه منفعلًا: «أتقدم إليك بخالص التعازي يا آنسة أويسيل. يعجز لساني عن وصف ما نمر به جميعنا.»

«شكرًا لك يا سيد ويست. أنا متأكدة من ذلك.» تحدثت الآنسة أويسيل بلكنة فرنسية ونبرة أمريكية خفيفة. «وصلتني برقية لطيفة من مكتب وزير الداخلية هذا الصباح.»

قال ويست في نفسه: «جيد. سعدت أن الفتى الكبير قد فعل ذلك»، لكنه انزعج بينه وبين نفسه من أنه لم يسعد بتذكير رئيسه بذلك الواجب. قال بصوتٍ عالٍ: «إذا كان هناك ما يمكنني فعله من أجلك، فأخبريني من فضلك.»

«شكرًا جزيلًا لك. أريد مقابلة وزير الداخلية بمفرده إذا أمكن. هل يمكنك فعل ذلك من أجلي؟ يقول السيد كينيرد إنه يصعب مقابلة الوزير في الوقت الحالي.»

«إنني على يقينٍ أن الوزير سيُسر بمقابلتك.» أخذ روبرت سماعة الهاتف وهو يدرك أن أفضل خدمة يمكن أن يقدمها لرئيسه هي أن يعفيه من تلك المقابلة بشكل أو بآخر، ولكنه لا يعرف كيف يكون ذلك. ذهب إلى السكرتير الشخصي للوزير، وريثما ينتظرون

الرد، انتهز الفرصة كي يدرس زائرته على مهل. كلا، لم تكن جميلة كما صورتها النظرة الأولى. وجهها نحيف للغاية وعظام وجنتيها بارزة. لكن ما أبهى أناقتها! لم يعرف ويست الكثير عن ملابس النساء، لكنه لم يكد يدرك جمال وروعة الفستان الأسود ذي التفصيل المثالي الذي ترتديه أنيت أويسيل. إنها ترتدي عقدًا من معادن مقطوعة بأشكال مكعبة، وبتصميم مكرر في مشبك حقيبة يدها وأبازيم حذائها. أناقتها المشوقة بداية من إمالة قبعتها الأنيقة وحتى طرف حذائها غير العادي جعلت روبرت يسأل نفسه ما الذي يمكن أن يقال لامرأة كهذه.

ناداه الصوت على الهاتف. جرت محادثة سريعة ثم وضع روبرت سماعة الهاتف والتفت إلى السيدة. «وزير الداخلية في مؤتمر الآن، ولكنه سيقابلك بمجرد أن يخرج لبضع دقائق. أنا متأكد من أنك ستتفهمين الصعوبة يا آنسة أويسيل.»

«بالطبع. أنا ممتنة لك. لا أريد أكثرَ من بضع دقائق.» جلست صامتة وأخذت تنظر إلى حقيبة يدها.

استجمع ويست نفسه. إذا كان ينوي أن يفيد بلاكيت، فحري به أن يبدأ الآن وينتهز الفرصة كي يحصل على بعض المعلومات المستقاة من صاحب الشأن حيث إنه يجلس أمامه الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعطيَه تلك المعلومات. تمنَّى لو أتت بمفردها. قد يَصعُب الحصول على قدر كبير من المعلومات في حين أن كينيرد يجلس في المكان. إنه يحرص على أن تبقى هادئة. كيف أثَّر موت أويسيل فيها؟ على الأرجح أنها وريثة الرجل العجوز. هل انزعجت بخبر موته؟ لماذا لم تسأله، إنه أول من رأى جَدها ميتًا؟ بالطبع لا بدَّ أنها تعرف ذلك. الخبر منتشر في كل الصحف وتوجد صور له أيضًا. لا بدَّ أن يكسر هذا الصمت.

استهلَّ حديثه منفعلًا بعض الشيء: «إذا سمحت لي يا آنسة أويسيل، ألم تعيشي مع جدك؟»

«أوه، كلا، أنا أعيش في شقتي بشارع كلارجس.»

«آنسة أويسيل، لا أريد أن أبدوَ وكأني أتدخل في شئونك مع وزير الداخلية، أعني ... ولكن بصفتي سكرتيرًا برلمانيًّا وواحدًا من الشهود الأساسيين، فإن لديَّ اهتمامًا خاصًّا.»

قاطعه كينيرد: «بالطبع يا ويست، نحن ندرك ذلك.»

انتبه ويست إلى الضمير «نحن». لم تتفوه أنيت بشيء؛ ظلَّ انتباهها مركزًا على مشبك حقيبة يدها.

«حسنًا، إمممم، ما قصدته هو ... أنتِ تدركين يا آنسة أويسيل وأعلم أنك تدرك يا كينيرد أن موت السيد أويسيل في ظلِّ تلك الظروف قد يسبب الفوضى في كل مكان.»

تمتم كينيرد بعباراتِ تعاطف، ولكن ظلَّت أنيت صامتة.

فكر روبرت: «تحيرت المرأة، ربما تساعد في إخراج الرجل.» قرَّر أن يوجه إليها السؤال مباشرة. «هل ستساعدينا في معرفة الحقيقة؟»

أخيرًا تحدثت أنيت على الرغم من أنها لم ترفع عينيها: «عن أي شيء تريد أن تعرف الحقيقة؟»

تريث ويست: «إممم، حسنًا، لنبدأ بعملية السطو على الشقة.»

«سطو على شقة جدي؟ كيف لي أن أعلم أي شيء عن ذلك؟ هل تشك أن الشرطة ستعثر على اللصوص؟»

«بالطبع ستفعل الشرطة ما بوسعها، ولكننا جميعًا لا نعلم شيئًا عما يمكن أن نسميه المعلومات الأساسية عن المسألة ككل. هذا أهم شيء في الوقت الحالي. هل لديك أي معلومات عن أي سبب قد يدفع جدك إلى الانتحار البارحة؟»

عندئذٍ، رفعت أنيت عينيها، وأدرك روبرت لماذا رآها جميلة. عيناها واسعتان بلون أزرق داكن وصافٍ، توحيان بتباين رائع مع القالَب الحاد لوجهها البيضاوي. إنهما أبرز ملامحها الإنسانية، وتجعلانها رقيقة حتى. «جدي لم ينتحر يا سيد ويست.»

اندهش روبرت من التأكيد الهادئ في نبرة صوتها. لو أن بلاكيت لم يكن قد أجرى مقابلته مع وزير الداخلية، فإنه لم يكن ليعرف بعد أن الشرطة تشك في أن السيد أويسيل قتل نفسه. والآن، تتفوه أنيت بنبرة هادئة كأنها حقيقة تعرفها ولا جدال في تلك الحقيقة.

«إذن، كيف مات يا آنسة أويسيل؟ أؤكد لكِ أنه لم يكن أحد في الغرفة عندما دخلت أنا والسيد شاو.»

قالت أنيت: «لا أعرف كيف مات. لكني أريد أن أرى وزير الداخلية كي أقول له إن الحادثة ليست انتحارًا، بغض النظر عما تقوله الصحافة، ولا بدَّ أن يعثر على القاتل.»

عندئذٍ، نظرت إليه أنيت مرة أخرى وفي عينيها الزرقاوين الداكنتين قوة غريبة. «اصدقني القول، هل تصدق أنه انتحر يا سيد ويست؟»

بناءً على معرفته بما فعل، لم يجد بدًّا من أن يقول نعم. إن قال «لا»، فسيعرقل الشرطة وسيضايق بلاكيت بالتأكيد. التردد سيعطيها على الأقل فرصة للتشكك. أُسقط في يده: «في الحقيقة، لا أرى حلًّا آخر يا آنسة أويسيل، ولكن يجب أن تعثر الشرطة على ما يمكنها من معلومات وأنت ستساعدينها، أليس كذلك؟»

«بلى سأساعدها بالتأكيد إن كان بيدي شيء، ولكن كيف؟»

«حسنًا، لماذا أنت متأكدة من أنه لم ينتحر؟»

«لأنه كان يحب الحياة إلى حد الهوس يا سيد ويست. سبق أن هاجمته عصابات وأصيب بجرح سيئ في ديترويت وكاد أن يموت. وعندما تحسَّنت حالته، أصبح عاجزًا طَوال حياته. إنه ينفق الآلاف كل عام كي يحافظ على جسمه الرياضي قدر الإمكان. لقد أوقف مالًا لمؤسسة بحثية كي تعيد إليه شبابه ونوى أن يبدأ العلاج في شهر أغسطس. نويت أن أذهب معه. كان يطير من السعادة بذلك. وأنا أعلم أنه ما كان لينهيَ حياته الآن.»

«لكن ربما هناك أسباب لا تعرفينها يا آنسة أويسيل. انهيار الأسواق كسر رجالًا يكادون يكونون بثقله ...»

«لكن التدهور لم يكسره. كانت نفسه سوية. أعلم أنه كان سببًا في إحدى مرات الانهيار، ولكنه كسب ملايين من ذلك. أعرف معلومات عن شئونه أكثر من أي أحد. أقول إنه لا يمكن تصوُّر أنه أنهى حياته بنفسه. مستحيل تمامًا.»

لم ترفع الفتاة صوتها ولم تُسرع وتيرة كلامها انفعالًا. تحدثت بنبرة هادئة وحازمة ما جعَل ويست يدرك أن كينيرد كان على حق حين قال إنهم لن يتحدثوا إلى العذراء الباكية. إنها امرأة قوية ومتمرسة في عالم الأعمال التجارية وواثقة من نفسها ثقة كبيرة. وإذا ورثت ثروة أويسيل بكاملها، فستُضطر الحكومة البريطانية إلى التعامل مع خَصمٍ صعب إذا لم ترُق لهم.

وصل السكرتير كي يرافق أنيت إلى مكتب وزير الداخلية. عندما أُغلق الباب خلفها، التفت كينيرد إلى ويست وقال: «هل هذا جيد؟»

صفَّر روبرت: «أقول يا كينيرد، يا لصعوبة التعامل معها إن خرجت من أجل إثارة المتاعب ...» وعاد إلى الصفير. بعدها توقف فجأة وقال: «لكني نسيت ... أنت صديق خاص لها، أليس كذلك؟»

ابتسم كينيرد: «أرجو أن أكون أكثر من مجرد صديق مقرب.»

«حقًّا! يا للهول! أنت محظوظ. يا لحظك بوريثة أويسيل ... وبأموالها! لن تُضطر إلى الوقوف في طابور الخبز حتى لو نزل سعر الجنيه وخُسف به الأرض.»

«لكني كنت سأحب أنيت حتى لو لم يكن معها فلس واحد.»

قال ويست بعدما استشاط: «أنا آسف. ما أوقحني! لم أقصد ...»

«بالطبع لا، لن أنكر أن الأموال ربما تفيد في بريطانيا لبعض الوقت. هل تريد سيجارة؟»

كانت العلبة ذات تصميم ذهبي مكعب جميل مطلي بطبقة من المينا.

«يشبه الآنسة أويسيل نوعًا ما.»

رد كينيرد: «لقد أعطته لي.»

لما كان ويست يدخن، وجد نفسه يتساءل ماذا لو أحب أن يكون هو محبوب أنيت أويسيل. إنها تبدو حادة الطباع نوعًا ما، بحليها المكعب وقوامها المشوق وأناقتها. لكن عينيها شديدتي الزرقة جعلتاها ... جعلتاها تبدو إنسانة، امرأة يمكن أن تحَب. ولكن تحت هذه الرموش الطويلة، لا يرى المرء قدرًا كبيرًا من عينَي أنيت.

قال فجأة: «سامحني على سؤالي يا كينيرد، لكن هل كان أويسيل العجوز يعلم أنك تريد الزواج بها؟ أعني، هل كان موافقًا على ذلك؟»

نفض كينيرد الرماد من سيجارته. «بالطبع كان يعلم. سبق أن طلبت منه رسميًّا، لكنه أرادها أن تتزوج رجلًا ذا نسب، نبيلًا فرنسيًّا ... من عائلة لها تاريخ. حرَص كل الحرص على أن تتزوج من تلك العائلة لأن والده كان مزارعًا في أراضيها، ولك أن تتخيل رغبته في الحصول على ذلك المجد.»

«ألم تنزل هي على خُططه؟»

«بكل تأكيد لم تفعل. قابلت النبيل مرة وكانت كافية. منحط صغير مقرف، ولا عمل له.»

«أظن أن أويسيل غضب، أليس كذلك؟»

«غضب ولم يغضب. أخذ جانب أنيت ولا سيما حينما تحدَّته. كانت تعرف كيف تأخذه إلى جانبها بالطريقة التي يحبها. أظن أنه بدأ يعتاد على فكرة أن أكون صهره.»

«هل تعتقد أن الآنسة أويسيل محقة في مسألة الانتحار؟»

هزَّ كينيرد كتفيه. «لم تعرف أنيت معلوماتٍ بالقدر المفترض أن تعرفه عن الرجل العجوز. أخافه أن تعرف عن بعض أعماله الإضافية الأقل أمانة. كان أويسيل عميلًا فظًّا يا ويست.»

«هذا ما علمتُه. هل أقول إن له أعداءً كُثرًا أيضًا؟»

قال كينيرد متجهمًا: «ربما زاد العدد قليلًا لو لم يمت العديد منهم أولًا.»

تذكر ويست ملاحظات شاو بشأن أسهم شركة «رجال العراق» وأصدر صفيرًا مميزًا.

فُتح الباب. إنها أنيت. نهض الرجلان. تساءل ويست عما حدث في المقابلة مع الوزير. لكن الفتاة كانت في غاية الهدوء. شعر روبرت بالانزعاج. ما ينبغي لامرأة لها عينان مثل

عينَي أنيت أن تتظاهر بأنها مثل تمثال العذراء الرخامي. اجتاح جوانحه شعور بأنه يريد أن يهزَّها كي يكسر حواجزها الدفاعية بغية التأكيد على تفوقه الذكوري المطلق. غضب من نفسه، ولكنه وجد نفسه يفكر سريعًا في طريقة يثير بها إعجابها كي يكسر تلك اللامبالاة الباردة.

بالإضافة إلى ذلك، يجب ألَّا يفقد التواصل معها. بإمكان الفتاة أن تقدم معلومات عن أويسيل ليست عند غيرها. لا بد أن يتخذها حليفة له.

«يجب ألَّا أعوقك عن عملك يا سيد ويست. شكرًا جزيلًا على مساعدتك.»

أمسك روبرت يدها المدودة لدقيقة. «أريد أن أقدم عونًا أكبر في تلك القضية يا آنسة أويسيل. صدقيني إننا حريصون على اكتشاف الحقيقة مثلك تمامًا. لكن إذا واجهتنا صعوبات في معرفة بعض التفاصيل، فهل تمانعين لو هاتفتُك، ربما في وقت لاحق اليوم؟»

«كلا، على الإطلاق. يمكنك الاتصال في أي وقت.»

أردفت بعد ذلك: «ما دمت تفهم أن جدي لم ينتحر بغض النظر عما تقوله الشرطة.»

لما كان روبرت يوصل زائرَيه إلى خارج الغرفة، جال في خاطره: «إذن، لم يلتقِ بلاكيت الوزير بعد.»

رجع إلى مكتبه وحاول أن يبحث الأمر من جميع الجوانب. لماذا أنيت متأكدة من أن جدها لم ينتحر؟ لماذا حرَصت على أن تؤكد تلك الملاحظة في وزارة الداخلية. يبدو أنها لم تأتِ إلى تلك الزيارة وفي بالها موضوع آخر. هل تلمح إلى القتلة المحتملين، وهل تخشى أن يفلتوا من العقاب إذا قبلت الشرطة نظرية الانتحار المتداولة؟ فجأة، عنَّف روبرت نفسه على حماقته. لقد ذكر عملية السطو على شقة السيد أويسيل، ولكنه لم يطرح سؤالًا واحدًا عنها. اللعنة على هاتين العينين الزرقاوين الجميلتين، لقد ارتبك منهما تمامًا. لكن من الواضح أنه يجب أن يراها مرة أخرى وبسرعة. ينبغي أن يحصل على معلومات منها عن طبيعة الأعمال والزوار في تشارلتون كورت ممن لن ترغب في ذكر أسمائهم للشرطة. نعم، لا بدَّ أن يرى أنيت في أقرب وقت ممكن.

رنَّ جرس الهاتف. «هلا يأتي السيد ويست إلى مكتب وزير الداخلية ويصحبه إلى مجلس العموم؟»

قال روبرت لنفسه وهو يلتقط قبعته اللبادية رمادية اللون: «ما الذي تحمله الريح الآن؟»

الفصل السادس

ما كادت ساعة الغداء تحل حتى تَمكَّن السيد جورج جليسون من الانفراد برئيسه السياسي. لقد غضب من موافقة الوزير على الالتقاء بأنيت أويسيل على انفراد؛ إذ لم يتوقع موافقته على ذلك. فالوزير لا يلتقي بأي زائر من دون حضور مستشار رسمي يرعاه. سُجل أن أحد وزراء الداخلية السابقين — بعدما تولى منصبه — قال لزوجته: «ما أجمل التحدث إليك يا عزيزتي من دون انتظار الدقائق التي يستغرقها السكرتير في الدخول عليَّ أولًا.»

عندما أصبح الوزير والموظف المدني الكبير بمفرديهما في النهاية، عادا إلى الأخذ والرد المعتاد في حديثهما. العَلاقة بين الوزير وكبير الموظفين المدنيين في إنجلترا تتبع أحد مسارَين شائعَين. إذا أصيب الزعيم السياسي بعقدة النقص نتيجة للسنوات التي يقضيها في تبرير إجراءاته أمام الناخبين المنتقدين ونتيجة لتوددِه الحثيث إلى قادته خشية التخلي عنه في التعديلات الوزارية، فإنه لحسن الحظ يدرك نفوذ الموظفين أمثال السيد جورج جليسون في الوزارة، ومِن ثَم يخنع ويظل يردد الدروس التي يعلمها إياه كبار الموظفين المدنيين طول مدة بقائه في الوزارة.

لكن إذا وصل الوزير إلى مكانه في مجلس الوزراء بمجهوده الذاتي، فإنه يبدأ حياته المهنية عازمًا على عدم تحمُّل أي هراء من الموظفين المدنيين لديه. يستغرق الموظفون حوالي ستة أشهر — أو أقل في بعض الأحيان — حتى يُضعفوه ويجعلوه يأتمر بأمرهم. موظفو الخدمة المدنية لديهم طرقهم في سحب الدعم المتوقع في لحظات غير متوقعة.

لكن في بعض الأحيان يجد السيد جورج جليسون نده. فإما أن يعمل موظف الخدمة المدنية مع وزير له ملكات عقلية يحترمها الموظف ويتعامل معها، أو يجد الموظف — مثلما يجد السيد جورج جليسون — وزيرًا يتصف بعناد متصلب لدرجة أن يخيف الموظف كثيرًا. في النهاية، الاهتمام الأساسي للموظف المدني هو الاحترام الذي يلقاه من الوزراء الآخرين

نتيجة «أدائه». أسوأ ما يقابل كبار الموظفين المدنيين هو العمل مع وزير لا يستطيعون الهيمنة عليه، وعدم تمتعهم بالفطنة الكافية ليتعاونوا مع الوزير من منطلق المهارة، حيث إن الوزير عازم على أن يؤدي الدَّور الذي يراه يليق به خشية أن يقصر في عمله تجاه الوزارة. ظل السيد جورج جليسون يكتشف تلك الحقيقة المؤلمة على مدى السنتين المنصرمتين.

من عادة وزير الداخلية الاهتمام بملبسه وأناقته، ولكنه استقبل كبير المسئولين الدائمين لديه بوجه مكفهر ما يتلاءم مع الحادث، ولكن ينبع تأثره ذاك بصفته رجلًا متأثرًا بطريقة الموت المأساوية التي لحقت بصديقه القديم وليس بصفته سياسيًّا يقلق من حادثة قد تنقلب إلى قضية دولية خطيرة. في الحقيقة، بدا أنه يهتم كثيرًا لحادثة السطو وموت إدوارد جينكس أكثر من جورج أويسيل.

قال السيد جورج بعد نفاد صبره: «لنترك مسألة السطو للحظة. فقد أصبحت القضية في أيدي الشرطة. بلاكيت موجود هناك، وسأوافيك بالتقرير بمجرد أن يصل إليَّ. لكن لا بد من حل قضية موت السيد أويسيل. أرسلت تقريرًا رسميًّا وخطاب تعزية باسمك إلى السفارة الأمريكية، ولكن ينبغي أن نُتبِع ذلك بتقرير مفصل، كذلك أُرسلت بعض الأسئلة الخرقاء اللعينة في صورة أسئلة إخطارات خاصة.»

قد تُسبب أسئلة الإخطارات الخاصة مزيدًا من الاضطراب في دائرة الخدمة المدنية أكثر من أدوات التعذيب القليلة المتبقية في أيدي أعضاء المقاعد الخلفية في البرلمان. أسئلة البرلمان الموجهة إلى الوزراء ينبغي أن تُدرج على جدول الأعمال في الوقت الملائم كي تُمنح الوزارة ٤٨ ساعة على الأقل لإحضار الرد. لكن في المسائل العاجلة، وبعد إذن رئيس المجلس، فقد لا يرسَل السؤال إلى الوزارة إلا قبل بضع ساعات من الوقت المحدد للإجابة عنه. ويجب الرد على السؤال وإلا فسيتسبب في موقف برلماني محرج للغاية حيث إن المجلس والصحافة من الطبيعي أن يهتما بأسئلة الإخطارات الخاصة أكثر من مجموعة الأسئلة البرلمانية الروتينية.

تأفَّفَ الوزير دلالة على نفاد صبره. الأسئلة … بالطبع ستكون هناك أسئلة. لا يخلو زمان من حمقى عديمي أهمية يريدون أن تُسطَّر أسماؤهم في الصحف، ومِن ثَم يقفزون في حدث يقع تحت أيدي الصحافة. لكن مجلس العموم بوجه عام كان مجلسًا حساسًا. من الواضح أنه ما كان بوسعه شيء لو كان ضيفه انتحر. وجود مسدس أويسيل بجانبه دليل واضح على ما حدث.

احتفظ جليسون بالمعلومات بغية النخر في ثقة الوزير الواهنة بنفسه، قال جليسون بنبرة هادئة:

«للشرطة أسباب وجيهة كي تشكك في نظرية الانتحار.»

حملق وزير الداخلية: «لكن يا له من هراء! كان المسدس موجودًا، وأُطلقت الرَّصاصة منه، أليس كذلك؟»

«أوه، نعم.»

«حسنًا، إذن ما الصعوبة في ذلك؟»

كرر السيد جورج جليسون بالتفاصيل الأسباب التي ذكرها بلاكيت وتجعله يشك في نظرية الانتحار. انتهز فرصة خاصة كي يوضح الإثبات بعُلبة الثقاب. ومثل كل الرجال الذين يعتمدون على العقل في كل أعمالهم، كان جليسون يُعجب بأي تجربة عملية بسيطة إعجابًا كبيرًا.

أُعجب وزير الداخلية أيضًا بالتجربة. إذا قرر الخبراء في شرطة سكوتلانديارد أن ما حدث ليس انتحارًا، فمن المؤكد أنهم على حق. قال: «إنها حماقة لعينة يا جليسون.»

«للغاية.»

كان هناك قدر من الصراحة حول الوزير.

قال: «إذا لم يقتل أويسيل نفسه، فهذا يعني أن الوسيلة التي قُتل بها موجودة في الغرفة، هذا إن لم تُترك الغرفة من دون حراسة — على حد قولك — منذ أن عثر ويست على الجثة. اتصل بويست، وسنذهب إلى الغرفة ونرى المكان بأنفسنا.»

صمت روبرت ويست وهو يصحب الوزير والسيد جورج جليسون إلى المجلس. وقفت مجموعة من الصحفيين يراقبون الباب علَّهم يرون ويست حيث إنه أسهل في التعامل من وزيره، وظلوا ينظرون والفضول يتملكهم إلى الثلاثة أصحاب الوجوه التي لا تظهر عليها التعبيرات وتبعوهم من مسافة بعيدة. لا يسع روبرت سوى الإعجاب بوزيره إذ لم تعطِ سلوكياته بالكامل أي إشارة على قلق لا داعي له. فكر مستخفًّا: «لا شيء أصعب من التواجد في هذا الوقت. في الحقيقة كل هذا الهراء يُبقي خَصر المرء نحيلًا. تزداد الخشية من السياسي إذا كان خصره منتفخًا من التخَمة.»

عندما وصلوا إلى الغرفة جيه المشئومة، ألقى الشرطي الحارس التحية عليهم. بداخل الغرفة، يقبع شرطي آخر. انتفض حينما انتبه إليهم وأكد للسيد جورج أن الغرفة لم تُترك لحظة واحدة حسب تعليمات المفتش بلاكيت.

تحت أشعة الشمس في صباح أحد أيام شهر يونيو، بدت الغرفة غير مرتبة بشكل غريب. بدأت الزهور تذبل على الطاولة. ثمرة كمثرى مقشرة حتى نصفها لا تزال في الطبق الذي كان يستخدمه أويسيل. النوافذ مُحكَمة الغلق وكان الهواء في الغرفة حارًّا وكثيفًا.

قال روبرت في نفسه: «إنها مهمة عفنة يتولاها رجل الشرطة. ما فعلنا سوى أن وضعناه في حفرة كهذه وأبقيناه فيها منذ ساعات بمفرده.»

وقف الوزير في وسط الغرفة، وتفقَّد متجهمًا الطاولة؛ إذ كان يتحدث بهدوء مع أويسيل بشأن الأعمال وهما جالسان عليها. بعد ذلك عزم على بَدء جولة في الغرفة وأخذ يطرح أسئلة على الرقيب بورن إذ أسرع إليهم عندما علم أن الوزير والسيد جورج جليسون وصلا أولًا، وفطن إلى الاتصال هاتفيًّا بالمفتش بلاكيت.

هل توجد أي فتحات سرية؟ كان معروفًا أن المكان مليء بالفتحات الغريبة بسبب نظام التهوية الغبي. أكَّد الرقيب أنه تم تفتيش كل فتحة. لم تكن هناك أي فتحات مجوَّفة سوى اثنتين تخفيان مفاتيح إضاءة معينة؛ علبة صغيرة وخزانة تحوي أواني زجاجية. اعترف بورن أن الشرطة تعثرت بعض الشيء بسبب حقيقة أن جِلسة السيد أويسيل لم تكن معروفةً لأن الجثة سقطت على الأرض بعد إطلاق الرَّصاصة. أعاد روبرت روايته مرارًا وتَكرارًا على الأسئلة غير الصبورة من الوزير والاستفسارات الذكية من السيد جورج. ولكن كانت القضية ميئوسًا منها. لقد فتشوا كل زاوية وركن، ولكن الوقائع لم تكن متسقة. إذا لم يكن هناك أحد في الغرفة عند إطلاق الرَّصاصة، وآخر شخص رأى السيد جورج أويسيل كان وزير الداخلية، والشرطة لديها أسباب وجيهة تدحض بها نظرية الانتحار، فما الذي حدث في الدقائق العشر التي فصلت بين مغادرة وزير الداخلية إلى رواق التصويت وسماع روبرت ويست صوت إطلاق الرَّصاصة؟

جلس الوزير مثلًا بتثاقلٍ عند طرَف الطاولة بالقرب من الباب إذ جلس في ذلك الموضع في الجهة المقابلة لضيفه.

«أنت على حق يا جليسون. ستكون تلك المسألة محرجةً للغاية. أعتقد أنه يجدر بنا مقابلة بلاكيت بينما نحن هنا.»

قال الرقيب بنبرة احترام: «لقد هاتفته عندما وصلتم. سيكون هنا في أي لحظة.»

حضر بلاكيت حينما كان الوزير غارقًا في التفكير وهو جالس على الطاولة غير المرتبة.

«بالطبع لا يمكننا ... إممم ... أن نحتفظ لأنفسنا بحقيقة ... إممم حسنًا، بحقيقة أنه لا يمكن إثبات نظرية الانتحار.» كانت نبرة صوت الوزير تأملية ويختلجها الأمل.

أجاب بلاكيت: «هذا ما أردت أن أستشيرك فيه أنت والسيد جورج يا سيدي. لم نُرد أن نقول شيئًا في التحقيق عن شكوكنا، لا سيما أننا لن نقدم سوى أدلة رسمية ونطلب التأجيل. وبالطبع إذا لم تتفوَّه الشرطة بشيء، فسيصدر الحكم بأن الحادث كان انتحارًا، بالتأكيد ... ولكن ...» وعندها نظر المفتش إلى جليسون لعله يوجهه.

أشاح السيد جورج بيده تعبيرًا عن نفاد صبره.

«هذا هراء يا بلاكيت. لا بدَّ أن تتكشف الوقائع تحت وطأة الاستجواب. هذا أول شيء سيطلبه محامي أويسيل.»

كان وزير الداخلية يفرك شحمة أذنه ولم يكن يخفي أنه كان يفكر في تلك اللحظة أن عدم قابلية الفساد البارزة من جانب الخدمة المدنية البريطانية قد يكون مبالغًا فيه في بعض الأحيان. قال بعد الصمت للحظات: «بالطبع، بالطبع، لم يكن بمقدورنا أن نفكر في شيء كهذا.»

قال السيد جورج: «على أية حال، حري بنا أن نعطي الشرطة فسحةً من الوقت، وبما أنه ستتأجل التحقيقات — ستُعقد غدًا الساعة الثانية عشرة على حد قولك يا بلاكيت، أليس كذلك؟ — فكلما زادت الإجابات غير المعبرة في المجلس بعد ظهر هذا اليوم، كان ذلك أفضل.»

قال الوزير: «أتوقع أنهم سيهتمون كثيرًا بشأن المفاوضات على القرض.»

ابتسم السيد جورج: «القروض طُعم برلماني أكثر أمنًا من جرائم القتل. إذن، ألم يرد إليك مزيد من الأخبار من تشارلتون كورت يا بلاكيت؟»

«لم يرد الكثير من الأخبار يا سيدي. عندما استفاق دوبيسك من التخدير، لم يضف الكثير. كان جينكس قد خرج من أجل الحصول على إصدارات الصحف الرياضية المتأخرة. كانت هناك حلقة على الباب. ظن دوبيسك أن جينكس نسي مفاتيحه وذهب كي يفتح الباب. إنه ليس متأكدًا هل كان عدد الرجال اثنين أم ثلاثة. على أية حال، رمى الرجال شيئًا على رأسه، وعندما استفاق، وجد جينكس ميتًا كما نعلم وكان رجالنا في الشقة.»

«هل عُثر على أي أوراق تخص جينكس؟»

«لم يُعثر إلا على أوراق شخصية وخطابات وبعض الصور ومحفظة ودفتر يوميات ومتعلقات غريبة كهذه وبعض المال. أظن الأفضل أن نحتفظ بتلك الأوراق في الوقت الراهن، ولكن هل يمكن إرسال المال إلى زوجته يا سيدي؟» نظر بلاكيت إلى السيد جورج.

قال الوزير: «جينكس لم يتزوج. أرسله إلى أمه. سأرسل لها بعض المال أيضًا. هل كل الأوراق مدرجة يا بلاكيت؟»

«نعم يا سيدي.»

«يا أسفى على جينكس. أنا أفكر فيه كثيرًا يا جليسون.»

«أعلم أنك تفكر فيه. يا له من عار أن يُقتل بتلك الطريقة. شكرًا لك يا بلاكيت، لسنا بحاجة إليك أو إلى بورن في الوقت الحالي.»

عندما غادر الضابطان الغرفة، قال الوزير بنبرة حزن: «لقد كان رجلًا من الطراز الأول، ولا يسهل العثور على من يعوض مكانه. ليتني أصررتُ على أن يحرس أويسيل محققون عاديون من شرطة سكوتلانديارد، ولكنه أحدث بلبلةً بشأنهم وظننت أنني أفعل الأفضل من أجل تيسير المفاوضات لما أسرَّه. ولا ريب أنه أحب جينكس. فقد أصبحا صديقين حميمين.»

شعر السيد جورج بعاطفة الوزير وعضَّ على شفته كي يمتنع عن قول: «هذا ما يحدث عند عدم إطاعة اللوائح الرسمية.» استشاره الوزير بشأن إرسال جينكس إلى أويسيل في البداية، ومِن ثَم بات من الصعب أن يقال «لقد قلت لك» الآن. لكنه أراد معرفة المزيد عن المفاوضات التي سبقت موت أويسيل.

بدا الوزير أحمقَ لهم من أولهم إلى آخرهم. بالطبع تلك المسألة من اختصاص وزارة الخزانة، ولكن حينما تتعلق المشكلة بوزير الداخلية، فعلى وزارة الداخلية أن تحلها.

نهض الوزير.

«إذن، يبدو أن هذا ما يمكننا فعله الآن. أرسل لي الإجابات عن أسئلة الإخطارات الخاصة بمجرد الانتهاء منها. سأتناول الغداء في مكتبي.»

«حسن جدًّا. وهل أرسل صناديقك أيضًا إلى هناك؟»

تلك الصناديق الحمراء الخاصة بالمراسلات المليئة بالأوراق التي ينبغي الاطلاع عليها ومحاضر الجلسات التي ينبغي التوقيع عليها تتبع الوزير في كل ساعة من يومه، بل تكاد تلاحقه حتى في الخلاء. «أرجوك.» ثم التفت إلى ويست الذي ظلَّ صامتًا طَوال الوقت. «أرجو أن تأتي إلى مكتبي يا روبرت. أود أن أتحدث معك.»

تبع ويست الوزير لما خرج من الغرفة.

انزعج جليسون وقال لنفسه: «تبًّا لمن يتقلدون منصب السكرتير البرلماني الخاص هؤلاء. سيقول الوزير كل ما يعرفه بموجب عهد الثقة لذلك الشاب بدلًا من أن يثق بي، ويعلم الله متى سنزاح من تلك المناصب بحركة غير متوقعة. اللهم أرسل لي وزيرًا يشعر بالثقة في مسئوليه.» حينئذٍ، أدرك جليسون أنه كان يحدق بشدة في شرطي بسيط يقف غير مرتاح عند الحائط. ارتسمت ابتسامة اطمئنان على شفة الموظف المدني المتغطرس وقال: «احرص على ألا يدخل أحد إلى تلك الغرفة تحت أي ذريعة مهما كانت، عداي أنا والمفتش بلاكيت.»

أسرع الرقيب بورن متقدمًا لما خرج السيد جورج إلى الطرقة وكرر جليسون أوامره له.

قال الرقيب: «بالتأكيد يا سيدي.»

لا، في الحقيقة لن تنجح تلك الطريقة. أدرك جليسون أنه لن يستطيع مواجهة ويست بهذا القدر من الوضوح.

«وبالطبع عدا الوزير ... إممم والسيد ويست.»

«نعم يا سيدي.»

«لكن إذا أتى السيد ويست بمفرده، فاحرص على أن تبلغني عبر الهاتف.»

«حسن جدًّا يا سيدي.»

«مهما كانت التعليمات التي يمليها أي أحد — وأنت تفهم «أي أحد» عداي أنا والمفتش بلاكيت — فلا تُترك تلك الغرفة من دون حراسة الشرطة.»

«حسن جدًّا يا سيدي.» ألقى الرقيب التحية باحترام بصفته رجلًا يعرف صاحب النفوذ الحقيقي على أرض الواقع.

الفصل السابع

عجَّت الشرف في مجلس العموم بالهمس واللمز حينما نزل روبرت ويست من غرفة وزير الداخلية في الساعة الثانية والنصف. في الفترة بين الثانية والنصف والثالثة إلا الربع، دائمًا ما تتسم الخمس عشرة دقيقة تلك بالحماس في اجتماعات المجلس حتى في أهدأ الأيام. يُسمح للزائرين بالدخول إلى القاعة المربعة وتسمى رواق الأعضاء، وفيها يكوِّن الأعضاء ضلعي مربع كي يشاهدوا موكب رئيس المجلس. ينادي الحاجب: «رئيس المجلس. ليخلع الغرباء قبعاتهم!» ويدوي الصوت في الطرقات، وفي الرواق الرئيسي يأتي موكب صغير يزرع الهيبة لدى الغرباء بجلاله البسيط. موكب صغير يتألف من ضابط النظام ومعه صولجان كبير مُذهب (لكنه مجوف) فوق كتفه، ورئيس المجلس وهو رجل طويل يضع شعرًا مستعارًا رمادي اللون وثوبًا طويلًا أسود اللون ويمسك ذيل الثوب رجل صغير يرتدي زي محكمة أسود، وسكرتير والقس وساعيين قويي البنية؛ هذا هو الموكب.

لكن يكفي أن نبين للعامة المتفرجين، وحتى أعضاء البرلمان المضجرين أنفسهم، أن رئيس المجلس رمز لقوة مجلس العموم وأن نظرة من عين رئيس المجلس تؤمِّن حقوق الأعضاء في أن يسمعوا ويُسمع لهم.

في ذلك اليوم، كان الحشد أكثر من المعتاد. تسببت عناوين المقالات الصحفية في إحداث ضجة كبيرة. حتى موت عضو من البرلمان في مجلس العموم — كما حدث عدة مرات — خبر يسترعي الاهتمام، فما بالك بخبر انتحار رجل كهذا وفي وسط المفاوضات النقدية، يكاد هذا الخبر أن يكون كافيًا لإثارة الحماسة لدى محرري الأخبار أيضًا.

بالفعل بدأت بعض الصحف تشكك في نظرية الانتحار. عُقدت مقابلات مع أنيت أويسيل مع الصحف التي تصدر في وسط النهار. وعلى وجه الخصوص، لم تقل أنيت للصحفيين إلا «جدي لم ينتحر»، وتلك العبارة كافية كي تثير اهتمام الصحافة.

المشهور عن كم الثروة التي يُفترض أنها سترثها ورفضها الإدلاء بأي تعليقات أخرى زاد من أهمية كلماتها.

في شرفات التصويت على جانبي قاعة الجلسات، كانت مجموعات أعضاء البرلمان تتناقش حول ذلك الموقف. لما أحاط الأعضاء بويست، كاد يندم على اتخاذ القرار بالنزول إليهم. لكن من أهم الواجبات المنوطة بالسكرتير البرلماني الخاص «تحسس الأجواء» في المجلس من أجل وزيره، وتهتم الحكومة اهتمامًا خاصًّا في ذلك الحين بمعرفة ما يقال. شعر ويست أن قرار الإبقاء على دليل الانتحار — ولو مؤقتًا — طي الكتمان كان خطأً فادحًا. لماذا لا تنفك الحكومات والخدمة المدنية عن إثارة متاعب لا داعي لها لأنفسهم بالإصرار على تلك السرية حول كل شيء؟

لا بد أن يظهر الدليل. لماذا لا يُتوقع الهمز واللمز ويُتجنب سوء الفهم بذكر كل المعلومات المعروفة بمنتهى الصراحة؟ لكنه تلقى تحذيرًا بعدم التفوُّه بأي شيء، ولما دخل إلى رواق التصويت أحسَّ كأنه مسيحي غير مسلح رُمي به إلى أُسود تتضور جوعًا.

انهالت عليه الأسئلة:

«ما الذي نوى رئيسك فعله؟»

«لماذا كان هو المنوط بالمفاوضات على القرض؟»

«ما الذي قاله لأويسيل فدفعه إلى الانتحار؟»

«ما الذي ستقوله أمريكا؟»

«هل كان انتحارًا؟»

«تقول أنيت أويسيل إنه ليس انتحارًا.»

حاول روبرت أن يتفادى كل تلك الأسئلة، وذلك بالإجابة عن سؤال ثم الإجابة عن الآخر قبل أن يلزم نفسه بشيء. الرجل الذي يخشاه هو مايكل هولدزوورث، وهو شاب اشتراكي من لانكشاير وله عينان ثاقبتان كعينَي الصقر. كان يقف بجوار ويست ينتظر أن يهدأ الصخب قليلًا. وعندما هدأ، قال بصوت واضح:

«لم يكن الحادث انتحارًا يا ويست وأنت تعلم ذلك.» خيَّم الصمت. كره ويست هولدزوورث في تلك اللحظة. انتظر حشد أعضاء البرلمان. إنه لا يستطيع الهرب الآن بعد إثارة اهتمام العامة، وهولدزوورث يعرف ذلك.

بدأ مزاج ويست يتعكر. قال بنبرة حادة: «لو لم يمت منتحرًا، فإن موته قضاء وقدر؛ إذ لا يبدو أن هناك وسيلة أخرى يمكن أن يموت بها.»

ابتسم هولدزوورث ابتسامة كدرة.

«هل سيستدعي رئيسك الرب حينما يجيب عن سؤال الإخطار الخاص الذي طرحته؟»

أُنقذ ويست من الأحاديث الأخرى لما نودي «رئيس المجلس في الصلاة» إذ دوَّى النداء في الطرقات بأصوات موسيقية عميقة من ساعيي المجلس.

كي يحظى بوب بالسلام لمدة ثلاث دقائق فقط، دخل في الصلاة على الرغم من أنه لا يحضرها إلا قليلًا.

عمَّ الصمت في المجلس. فرغت كل الشرفات الداخلية ما عدا شرفة السيدات البعيدة عند السقف من أجل إقامة طقس يومي بسيط. وقف أعضاء البرلمان في مقاعدهم، ورنم صوت القس الهادئ بالصلاة. في الصلوات، يدير الأعضاء وجوههم إلى الجدار ويدعون: «نعوذ بقدرتك يا رب أن تقينا من الأهواء والتحامل على الغير والنزعات المتحيزة.»

عادةً ما يبتسم ويست حين يفكِّر في مدى ضرورة هذا الدعاء في مجلس كهذا، ولكنه بعد ظهر ذلك اليوم، كان يفكِّر في أنيت.

انتهت الصلوات. تزاحم الأعضاء الذين بقوا خارج أبواب القاعة حتى أُخبروا بتلك الواقعة للوصول إلى مقاعدهم. بدأت الأسئلة.

وكما هو الحال دائمًا، تراوحت الأسئلة بين مجموعة محيرة من الموضوعات. لماذا يطلق الرصاص على السكان الأصليين في جزر أندامان؟ لماذا رُفض طلب معاش التقاعد الخاص بالسيدة سميث؟ لماذا توقف استخدام المعالجة الحرارية في خزانات إتش إم إس روتشستر؟

تخوض جراسي ريتشاردز معركة صغيرة خاصة مع وزير الداخلية بشأن امرأة أُدينت بالدعارة خطأً وزُج بها في السجن. ولو في وقت آخر، لحرص ويست على أن يقف بجانبها. شعرها أسود ناعم وكثيف وبشَرتها خمرية دافئة مثل بشرة أهل الجنوب، عيناها سوداوان برَّاقتان، تلك الملامح تجعلها امرأة تلفت الأنظار إليها في مجلس ذكوري محبط.

عادةً ما كان روبرت يستمتع كثيرًا بحقيقة أنه على عَلاقة ودية في الخفاء مع هذه المتمردة الشابة، على الرغم من أنه يظهر خارج المجلس بصفته ناقدًا لا يتهاون معها في دائرة انتخابية مجاورة. لكن اليوم، لم تثر جراسي إعجابه. فلديه موعد مع أنيت حينما تنتهي الأسئلة.

هاتفها كي يطلب منها تناول الشاي في الشرفة المكشوفة للتحدث في بعض الأمور. كان طلبًا جريئًا في ظل الظروف الحالية، ولكن مراسم الحداد لم تُزعج أنيت على ما يبدو. فقد وافقت من فورها.

بدأت أسئلة الإخطارات الخاصة تنهال. أراد أن ينتهيَ من تلك الأسئلة. وبفارغ الصبر وللمرة الأولى، تمنى لو تقل حدة هجوم جراسي. لماذا لا تترك الحديث عن المسألة؟ لماذا لا تقف هادئة وكأنها قط يحاول صيد فأر؟ لماذا تهتم لأمر قَزَمٍ مسجون في حين أن النساء أمثال أنيت ...؟ هنا، استجمع بوب مشاعره، وقال لنفسه إنه أحمق، وحاول أن يهتم بعض الشيء إلى ما يقال.

أُسكتت السيدة ريتشاردز ولكنها لم تهدأ حين دقت الساعة الرابعة إلا الربع. في هذا الوقت، تنتهي الأسئلة الواردة في جدول الأعمال على الرغم من أن بعضها أو كثيرًا منها لم يُجَب عنه بعد. عندئذٍ تبدأ أسئلة الإخطارات الخاصة إن وجدت. دائمًا ما تضفي جو التشويق لأن طريقة طرح تلك الأسئلة لا تُتَّبع فقط سوى فيما يتعلق بالمسائل الخطيرة والعاجلة بحق. ثم يستقر الأعضاء على مجموعة خيارات لذلك اليوم.

وقف مايكل هولدزوورث في مكانه المرتفع في صف المقاعد الرابع، وأكدت لكنة لانكشاير في لسانه على سؤاله المحدد. «هل لي أن أسأل وزير الداخلية سؤالًا أرسلته إليه في إخطار خاص؟ هل تحدث الوزير عن موت السيد جورج أويسيل في هذا المجلس البارحة؟

هدأ المجلس وكأن على رءوس أعضائه الطير. وقف وزير الداخلية. بنبرة ثابتة وجافة، قرأ الإجابة التي كتبها السيد جورج جليسون. «يؤسفني أن أخبر المجلس بأن السيد جورج أويسيل الذي كانت تُجري معه الحكومة مفاوضات مهمة — كما هو معلوم — والذي كان معي البارحة في عشاء ودي وغير رسمي، قد وجده أحد أعضاء هذا المجلس ميتًا بعد بضع دقائق من مغادرتي إياه من أجل التصويت بشأن مشروع قانون مالي. تحقق الشرطة في المسألة. وتود حكومة صاحب الجلالة أن تبلغ عن حزنها العميق لوقوع ذلك الحادث وعن تعاطفها الشديد مع الأقارب الذين تشرفت بالتواصل معهم.»

توقف الوزير عن الكلام. امتلأ المجلس بالأحاديث الجانبية. خلع وزير الداخلية نظارته. «لو تأذنوا لي بحديث شخصي. كان السيد جورج أويسيل صديقًا قديمًا لي. وكان خبر موته — غير المتوقع بالمرة — في وسط تلك المناقشات الودية بمثابة صاعقة لي. وبالإضافة إلى الكلمات التي قرأتها عليكم، أود أن أعبر عن أسفي الخاص.»

حينئذٍ، لا بدَّ أن الأحاديث الجانبية أمست تعبر عن التعاطف. يحب المجلس اللمسات الشخصية. سينسى المجلس كل شيء تقريبًا إذا أُعرب عن هذا التوضيح بلباقة. لم يثر إعجاب مايكل هولدزوورث. خشي الجالسون في صفي المقاعد الأماميين من أن يروه يتخذ مسار العداء لأنه ببساطة لم يتأثر البتة بالاعتبارات التي عادةً ما تؤثر في ذلك المجلس العاطفي. انتقلت جراسي إلى المقعد بجوار هولدزوورث وأمسى واضحًا أنها تشجعه.

«هل اطلع وزير الداخلية على إفادة الآنسة أويسيل إذ تعبر عن اقتناعها بأن جَدها لم ينتحر، وهل لديه أي أسباب تشكك في النظرية الرسمية للشرطة بأن الحادث كان انتحارًا؟»

صيغ السؤال صياغة ماهرة؛ إذ إنه ليس هجومًا مباشرًا بحيث يثير التعاطف مع الوزير، ولكنه كافٍ لغرس الشك في عقول العامة.

«اطلعت على إفادة الآنسة أويسيل. ويمكنني القول إنني رأيت الآنسة أويسيل نفسها. لا يسعني إلا طمأنة المجلس بأننا سندرس كل النظريات دراسةً متأنية، وإن قدرًا كبيرًا من اهتمام شرطة سكوتلانديارد الماهرة يركز على كل من موت السيد أويسيل وعملية السطو على شقته التي يبدو أنها وقعت في الوقت نفسه تقريبًا.» هتفت أصوات من مقاعد الحكومة تعبيرًا عن «الموافقة والاستحسان» لملاحظته. شعر ويست بالراحة عندما لم يطرح هولدزوورث أسئلة أخرى. من الواضح أنه سيثير المشكلات، ولكنهم تخطَّوا العقبة الأولى. ليذهب الآن إلى أنيت.

عزم على أن يشقَّ طريقه بين حشود الأعضاء وأن يتحرك تجاه جناح تناول الشاي وخلَّف وراءه المجلس وقد خلا من أعضاءٍ كُثْر، لدرجة أنه لم يلاحظ جراسي ريتشاردز وهي تمد يدها كي تلفت انتباهه.

لكن هولدزوورث لاحظ ذلك. قال: «هلا احتسيتِ الشاي معي يا جراسي وتحدثنا عن ذلك اللغز.»

قالت جراسي ريتشاردز وهي تنظر إلى ظهر ريتشاردز غاضبة: «نعم، تفضل. يسرني ذلك.» لقد اعتادت أن تجد روبرت يبحث بتلهفٍ عنها وقت تناول الشاي.

لم يكن ويست في مزاج يسمح بأن يعترضه أعضاء البرلمان ممن يريدون أخبارًا. انتهى الأسوأ في الوقت الحالي. سلك الطرقة التي كان يبحث فيها عن دون شاو البارحة. لكن هذه المرة يبحث عن أنيت. وبما يتناسب مع أهميتها، لم تكن بين الزحام في الرواق العام، ولكنها جلست على أحد المقاعد في الطرقة، ولا يُمنح هذا الامتياز إلا للحاضرين المعروفين بأنهم «أشخاص مهمون».

جلست أنيت على المقعد وأخذت ترمقها أنظار الفضوليين (إذ دائمًا ما يقوم شرطي على علم بلفت الانتباه إلى أي شخص ذي أهمية خاصة) حيث إن مظهرها يؤكد أنها «شخصية مهمة». تبدل الفستان الصوفي الأنيق الأسود الذي كانت ترتديه في الصباح إلى فستان آخر من الساتان غير اللامع المشبع بالألوان إذ رسم ملامح جسدها الممشوق. على

الرغم من أن روبرت يدرك الاهتمام الذي أثاره لدى الآخرين، توجَّه بها إلى طاولة سبق أن حجزها لهما في الشرفة المكشوفة.

شرفة مجلس العموم المكشوفة في أيام شهر يونيو الدافئة في فترة ما بعد الظهيرة من أكثر المشاهد النابضة بالحياة في لندن. مجموعات الناخبين الجادين الواعين لأنفسهم يقدم لهم الشاي الأعضاء المكافئون لهم في الجدية والوعي. أما أعضاء البرلمان الأقل وعيًا فيزينون طاولاتهم بفتاة جميلة أو فتاتين. لكن أصحاب الهمم في واجباتهم يجلسون محاطين بالأقارب ويحاولون الظهور بأنهم محط إعجاب الآخرين. يتمرن كبار الشخصيات السياسية بالذهاب والإياب. ولا أحد يستنتج من تحفظهم النبيل أنهم يعون كل حركة وهمسة بأن «ذلك السيد فلان». ينبغي أن يبلغ السياسي من الشهرة مبلغًا كبيرًا ولسنوات عديدة قبل أن يتجنب الجلوس في الشرفة المكشوفة في ذروة الموسم. يعرف روبرت تمام العلم الهمس الذي تبع تقدمه المهيب مع أنيت أويسيل، ولكنه انزعج لما رأى روبرت — مرافقته المعتادة لاحتساء الشاي — في حديث جاد مع مايكل هولدزوورث. ابتسمت له لما مرَّ بهما. تردد للحظة ثم لم يُعرِّفهما على أنيت.

على أية حال، سيخبر جراسي فيما بعد أن مقابلته مع الآنسة أويسيل كانت مقابلة عمل ولا يخفى أن حزنها يعفيها من لباقة السلوكيات المعتادة منها. لكنه يعي أنه لا يريد أن تتقابل الفتاتان. في النهاية، كان إحضاره لأنيت في الشرفة المكشوفة لفتة توحي بجرأته السياسية، ولما أمست معه أصبح لا يكاد يعرف ماذا ينبغي له أن يقول. كان يميل إلى إخبارها بشأن الأدلة التي توصلت إليها الشرطة حيث إنه أراد أن يزيد أهمية الموضوع في نفسه، ولكن لما كانت أنيت معه من دون صحبة أحد، فلحسن الحظ أنها كانت ودودة أكثر مما كانت حينما قابلته في الصباح رفقة كينيرد.

بعد الحديث في أمور عامة لبعض الوقت، قالت: «قابلت المحامين واطلعنا على أوراق جدي.» قبلت أن يُصبَّ لها الشاي بعد أن جلست من دون أن تصب لنفسها. سأل روبرت وهو يقاوم حرارة المقبض: «هل هناك أي أوراق مفقودة؟»

«يصعب الإجابة عن هذا السؤال. بالطبع أنا لا أعرف كل الأوراق التي كانت لديه. لكن هناك شيئًا يقلقني، وهو فقدان دفتر يوميات كان يحمله معه دومًا حينما يُجري مفاوضات بشأن الأعمال.»

«بالطبع أخبرتِ الشرطة عن ذلك.»

نفد صبر أنيت. «أنا أخبر الشرطة بأقل قدر ممكن من المعلومات. فأنا لا أثق بهم كثيرًا كما كان يفعل جَدي.»

«هذه ليست أمريكا كما تعلمين.» وابتسم روبرت وهو يقرب إليها الخبز والزبد.

«لا أهتم لذلك. الشرطة هي الشرطة في كل العالم. لقد أتيت إليك. فأنت سياسي. ولذا ستكتم السر.»

انحنى روبرت قليلًا امتنانًا. «يسرني أن أحظى بهذا الرأي المحبب بتلك السرعة.» أحب أن ينظر إلى أنيت — هادئة وساكنة للغاية على الرغم من روعة جمال يديها. أرادها أن تضع كمية كبيرة من السكر في الشاي في كوبه لربما ينظر إلى انحناءات أصابعها البيضاء الصغيرة وهي تُمسِك بملقاط السكر، ولكنه اضطُر إلى أن يضع السكر بنفسه.

عادت أنيت إلى حالة الصمت. ثم قالت بصوت منخفض: «أريدك أن تساعدني في العثور على دفتر اليوميات ذاك من دون إخبار الشرطة بفقدانه أو بأهميته.»

اعترض روبرت: «ولكن في الحقيقة يا آنسة أويسيل، لا تستطيع الشرطة أن تعمل من غير امتلاك حقائق. فلماذا لا تريدين إخبارهم؟»

«لأنه إذا ضاع ذلك الدفتر فقد ضاع، والأحرى ألا يعلم من أخذه أننا نوليه أي اهتمام خاص.»

«إذا كان الأمر كذلك، فسأساعدك. هلا أخبرتِني ما هو شكله؟»

«دفتر من الجلد الأسود، صغيرٌ للغاية ورثٌّ للغاية. المدخلات مكتوبة بشفرات. وإذا توصَّل اللصوص إلى حل الشفرة، فستكون كارثة كبرى. وإذا لم يتوصلوا إلى حلها، فأعتقد أن التحفظ في الحديث أفضل.»

قال ويست: «ولكن قد يكون ذاك الدفتر مفتاحًا مهمًّا. إذا عثرنا على الذين بمقدورهم أن يعرفوا الشفرة ...»

«لا أحد يعلم الشفرة. أخبرني جَدي ذات مرة أنه كوَّن تلك الشفرة مع صديق له منذ عدة سنوات.»

«إذن ذلك الصديق. هل تعرفين من هو؟»

«لا، ربما ليس على قيد الحياة الآن. أنا لم أسأل جدي أي أسئلة. لذلك كنت الشخص الوحيد الذي يحب أن يكون بالقرب منه مدة طويلة، عدا بيير بالطبع. لم أُظهر أدنى اهتمام بشئونه، ولم أشعر بأي اهتمام.»

سأل روبرت: «ألا يثير شيء اهتمامك؟» لم يُحسن في توجيه دفة الحديث إلى شيء شخصي أكثر من قضية جورج أويسيل.

أجابت أنيت بابتسامتها المتثاقلة: «أظن أنه حريٌّ بي ألا أُظهر ذلك إن أثار شيء اهتمامي. عشت ٢٠ عامًا مع جَدي يا سيد ويست. تلك فترة تدريب جيدة، صدقني.»

نهضت وجمع ويست قفازها وحقيبتها من أجلها. التدريب، نعم، ولكن من أجل ماذا؟ لماذا آل أويسيل كتومون إلى تلك الدرجة؟ هل لديهم أشياء يخفيها بعضهم عن بعض؟ هل أنيت تخفي شيئًا الآن، أم تُراها تحاول التلميح له بطريقة غامضة — فهي التي أصرت على أن الشرطة ينبغي ألا تستنتج أن جَدها قتل نفسه؟ وحينما كان روبرت يقودها في الحارة بين الطاولات المزدحمة، شعَر بالاهتمام تجاه تلك المرأة أكثر من أي إنسان قابله. لقد غرِق في التفكير بها لدرجة أنه لم يتذكر حتى أن يبتسم إلى جريس ريتشاردز وهما يمران بطاولتها.

الفصل الثامن

كانت غرفة تعليق المعاطف الخاصة بالأعضاء من أهدأ الأماكن لتبادل أحاديث القيل والقال الودية في مجلس العموم، ويكون لتلك الأحاديث في بعض الأحيان تأثير أكبر من تأثير خطبة رنانة استغرقت ساعة في قاعة الجلسات. تصطف شماعات المعاطف والقبعات في صف واحد في طرقة على شكل حرف L في أقدم جزء من المبنى. وفي نهاية الطرقة، غرفة صغيرة لا باب لها. إنها الغرفة التي وُقع فيها على حكم إعدام الملك تشارلز الأول. كثيرًا ما كانت أحاديث القيل والقال في غرفة تعليق المعاطف بمثابة توقيع غير مرئي لإنهاء حياة شخصيات معروفة. عفريتها رجل بدين يبيع أعواد الثقاب والسجائر والصحف البرلمانية وغيرها من الأشياء التي تساعد في إسعاد أعضاء البرلمان.

كان العقيد ستيوارت أورفورد خارجًا من غرفة تعليق المعاطف لما كان روبرت عائدًا إلى رواق الأعضاء بعدما أوصل أنيت إلى سيارتها.

«هل لي بكلمة معك يا روبرت؟»

استنكر عقل روبرت وانزعج، ولكنه تحلَّى بأسلوب متأدِّب ظاهريًّا، قال: «بالتأكيد»، وتبع العقيد إلى غرفة تعليق المعاطف وأسند نفسه على ميزان قديم أخبر الحقيقة التعيسة لأجيال من رجال الدولة الكثيرين. يتجسد في العقيد ستيوارت أورفورد الكثير من مبادئ حزبه النموذجية ما يمنع أي سكرتير برلماني خاص من تجاهله.

تتجسد في ستيوارت أورفورد تقاليد المقاطعة والدولة والجيش وبريطانيا العظمى.

«أنا مهتم بقضية أويسيل يا روبرت.»

«كلنا مهتمون أيها العقيد، أؤكد لك ذلك. والوزير مهتم أكثر من أي واحد منَّا.»

«أنا لا أولي اهتمامًا خاصًّا لموت هذا الرجل. ربما يفيد لو اتُّخذ إجراء تطهير وأُعدم أمثاله رميًا بالرَّصاص. ولكن يُخيَّل لي أن الحكومة قد علقت نفسها في براثن هؤلاء الرجال.

وأنا لا يعجبني ذلك يا روبرت. لا يعجبني ذلك تُرى ما الذي كان سيقوله بالمستر أو دزرائيلي بشأن فكرة أن تتذلل بريطانيا لهذا الرجل من أجل المال ... الحكومة البريطانية. اللعنة يا روبرت، هل خضنا الحرب من أجل الوصول إلى هذا الوضع؟»

«كنت في المدرسة حينما كنت تقاتل في تلك الحرب أيها العقيد، وأظن أنكم جميعًا كنتم تعلمون ما تفعلون، ولكن تسببت الحرب في فوضى كبيرة. وإنجلترا التي خلَّفتها الحرب ليست هي إنجلترا التي خلفها بالمسترون والملكة فيكتوريا. اضطُررنا إلى التعامل مع الوقائع، والدولارات الأمريكية هي أكبر تلك الوقائع. اضطُررنا إلى الحصول عليها، ولذا لا فائدة من التعالي والتكبر في تلك المسألة.»

يبرز شارب ستيوارت أورفورد الأبيض من وجهه الذي احمرَّ فجأةً، قال غاضبًا: «دع الاشتراكيين يتحدثون هكذا. أقول إنه كان على حزبنا أن يستعدَّ لسؤال كل بريطاني — نعم، كل بريطاني بدايةً من البلاط الملكي وحتى الأحياء الفقيرة — كي يقدم المساعدة بما يستطيع بدلًا من الاعتماد على شخصٍ كهذا.»

شعر ويست بالأسى تجاه الرجل العجوز، وكبريائه الجامح، ووطنيته التي لا ترى سوى جزيرة صغيرة تقود العالم. كان العصر الحديث صعبًا على ستيوارت أورفورد. حاول أن يُسلِّي عن الرجل.

قال بأسلوب غير متأدِّب: «الأمريكيون من خلق الله كما تعلم، حتى إن كنت تعتقد أن الله القدير كان من الأفضل لو خلق شيئًا آخر غير هذه القارة. علينا أن نتعايش معهم. العالم كله صغير مثلما كانت بريطانيا في عهد بالمسترون. أعني تواصل العالم بعضه مع بعض. بالطبع استحوذت أمريكا على معظم الذهب عندها بشكل أو بآخر، وستستحوذ على الباقي قريبًا، ولكن أيها العقيد، إنها ليست المرة الأولى التي يُضطر فيها رجل مثلك إلى التعامل مع رجل أتى من المنطقة التجارية واشترى حديقة قديمة بجوار حديقتك. تحاول أن تقنعه بطريقة ما، وهذا ما اضطُررنا إلى فعله مع أويسيل وجماعته.»

غادر ويست الرجل العجوز وهو يتمتم بأنه حتى الشاب المحافظ أصبح اشتراكيًّا. لا فائدة من الجدال. أدرك روبرت أنه يتحدث بلغة مختلفة عما يتحدث به ستيوارت أورفورد. شعر أن نيويورك التي تتميز بموسيقى الجاز والدولارات — أقرب إليه من إنجلترا — إذ من أبرز مظاهر الحياة فيها وسائد الأرائك الفيكتورية. لكن لماذا ينتحب هؤلاء المسنُّون مثل السيدات في أوقات العَوَز مثل المربية لدى العائلات الأرستقراطية التي لا تفتأ تتحدث عن أمجاد العائلات القديمة وترفض مواجهة وقائع العالم الذي تعيش فيه؟ إنهم يقفون على شفا جُرُفٍ هارٍ، ويغارون من إبحار السفينة نحو مغامرات جديدة.

بينما اندفع من الباب الدوار إلى ضجيج الرواق المركزي وضوئه، صاح عليه سانكروفت الذي كان واقفًا يتحدث مع بعض الزملاء الصحفيين: «بلاكيت يريدك. إنه بالخارج في الرواق العام. قلت له إني سأخبرك.»

«سأذهب إليه على الفور.»

«اسمح لي أن آتيَ أنا أيضًا. إذا كانت المسألة خاصة برمتها، فسأتفهم الأمر، ولكن لعلك تعلم أنك وعدتني أن تُشركني في تلك القضية.»

«بالطبع، يعتمد الأمر على بلاكيت. أود أن تكون معنا. لا بدَّ أن نُحرز أيَّ تقدم وإلا فسنواجه متاعب. هولدزوورث لا يدخِّر جهدًا في تلك القضية.»

كان سانكروفت في الشرفة المكشوفة في وقت سابق بعد ظهر ذلك اليوم، حذَّر قائلًا: «أعلم ... ولا تتجاهل السيدة جراسي متباهيًا.»

تقابل ويست مع بلاكيت ونزل الثلاثة إلى غرفة التدخين، إنها غرفة كبيرة رتيبة حوائطها مكسوة بالبلاط وتحتوي على مقاعد جلدية تحاكي المقاعد في غُرف الانتظار من الدرجة الأولى في أي محطة بريطانية كبيرة. الغرفة كبيرة ومليئة بالدخان وكانت بمثابة الملاذ المألوف والدافئ للعديد من أعضاء البرلمان الذين ينتابهم شيء من الحَيرة حيال المكان الغريب الذي أرسلهم إليه ناخبوهم.

قال ويست معتذرًا لما طلب المشروبات: «تلك الغرفة أفضل مكان من أجل التحدث يا بلاكيت. وزير الداخلية في غرفته، ومِن ثَم لا يمكننا التحدث هناك وفي هذا المكان الفسيح لا يوجد ركن هادئ نتحدث فيه.»

ولكنهم تُركوا بمفردهم في ركن بجانب النافذة. لما كانت الغرفة مكتظة بأعضاء البرلمان ولا تتوافر بها المرافق الملائمة من أجل العمل أو المشاورات، فقد دفع اليأس الأعضاء إلى ابتكار أسلوب خاص من العزلة. وعادة ما يُترك أفراد المجموعة الذين يتحدثون بجدية لأنفسهم.

أخذ بلاكيت يدخن غليونه. في وسط كل الغادين والرائحين، لم يستطع التركيز بسهولة مثل ويست وسانكروفت، حيث إنهما معتادان على العمل في تلك «البيئة».

قال ويست: «نجحنا في تخطي العقبة الأولى في المجلس اليوم، ولكن لم تنتهِ احتمالات المتاعب، وقد تأتي المتاعب من جانبنا بقدر ما تأتي من المعارضة. هل توصلت إلى أي خيوط بشأن اللصوص قد تساعد في كشف لغز موت أويسيل؟»

«توصلت إلى قصاصات، مجرد قصاصات وسأخبرك إياها يا سيد ويست. لكن تلك القصاصات لا يتوافق بعضها مع بعض. لم أتوصل إلى صورة كاملة. وهذا ما أريدك أن

تساعدني فيه. لا يمكنني الذَّهاب مباشرةً إلى وزير الداخلية حتى الآن، ولكن إذا أعطيتني قاعدة انطلاق، فقد أتمكن من التوفيق بين تلك القصاصات بحيث أكوِّن صورة تستحق أن أتحدث فيها مع الوزير. تعلم أن أي شيء تخبرني به سيكون في أمانٍ تامٍّ إذا كان ينبغي أن يظل موضعَ كتمان حتى وقتٍ لاحق.»

«أعلم ذلك، تحدث إذن.»

«حسنًا يا سيدي، عاودنا الحديث عن ذلك العشاء والأسباب الكامنة خلفه. يصر وزير الداخلية على أنها كانت مجرد مسألة شخصية، وتلك مجاملة بسيطة دائمًا ما تقدَّم عند إجراء مفاوضات من ذلك النوع — ولا بأس بذلك بالطبع إلا أن أويسيل لم يقبل البتة أيَّ مشاركةٍ اجتماعية في السنوات العشر الأخيرة على حد قول خادمه. إذن، يجب الاعتراف بأنها كانت صدفة أن يُقتل بالرَّصاص وتتعرض شقته للسطو في أول مرة يخالف فيها تلك القاعدة.»

«يمكنني تصحيح الأمر فيما يتعلق بوزير الداخلية. تحدثت معه هذا الصباح. وصلت المفاوضات إلى مرحلة حساسة. أرادت الحكومة الحصول على القرض في أقرب وقت من قبل حتى الاستعداد للإعلان عنه للعامة. كانت البنود صارمة وتضمنَّت بنودًا غير مقبولة. لا أعرف ما هي تلك البنود. لم يخبرني الوزير وبالطبع لا يجدر بي أن أخبرك على أي حال. لم يتيقَّن رئيس الوزراء هل أويسيل يهتم شخصيًّا بتلك الأحكام أم كان يستخدمها لمجرد فرض شروط فائدة أعلى. السبب الوحيد لإقحام وزير الداخلية في المسألة هو صداقته القديمة مع أويسيل، ومِن ثَم انتهز الفرصة لاستكشاف ما يمكنه عن طريق محادثة شخصية مباشرة.»

سأل سانكروفت: «هل من أجل عينيه أم من أجل الترتيب للحصول على رشوة؟»

سأل ويست مقتضبًا: «وهل تظن أن يخبرني بأمر كهذا؟ مبدئيًّا، استمعا إليَّ. لقد عرفت وزير الداخلية عن كثب مثل أي أحد، ربما أعرف عنه أكثر مما تعرف أسرته. قد يكون غبيًّا مثل البغل، لكنه ليس الرجل الذي يدخل في أي عمل قذر ومعقَّد. إنه أنزه رجل سياسي.»

قال سانكروفت مغتاظًا: «تأثرت دومًا بالثقة التي يُصر السياسيون المنتمون إلى الحزب نفسه على إظهارها بعضهم تجاه بعض في المناسبات الخاصة بالبلد، ولكن لا شك أن أي تزلف يفضله أويسيل قد يكون واجبًا وطنيًّا إيجابيًّا في تلك الظروف.»

هزَّ ويست كتفيه. «لا يُحتمل أن يخبرني وزير الداخلية عن البنود التي خُوِّل له عرضها؛ وعلى أية حال، لا أرى لذلك عَلاقة بلغز الجريمة. أعتقد أننا نحل تلك المشكلة من

الطرف الخطأ إذا ركزنا على ما حدث في الغرفة جيه. أنا على يقين أنه ينبغي لنا أن نبدأ العمل من الشقة.»

سأل سانكروفت: «هل أويسيل يزوره أناس كثيرون؟»

«كلَّفت رجلًا لمعرفة تلك المعلومة على وجه الخصوص. لا يزوره إلا قلَّة وهم أناس معروفون — اللورد فينسبورج من البنك المركزي، وفيشويك من وزارة الخزانة، وكينيرد، ومصرفي أو مصرفيان كبيران آخران.»

«لعل أنيت ساعدتك في معرفة ذلك يا بوب؟!»

تورَّد وجه ويست. لم تعجبه نبرة سانكروفت المضايقة، ولم ينشغل باله على وجه الخصوص بأن يشك بلاكيت في أي تعاون بينه وبين حفيدة أويسيل.

كي يغير دفة الحديث، قال لبلاكيت: «لكن ألا يستطيع دوبيسك أن يخبرك بشيء؟ لقد عمل مع السيد أويسيل لسنوات.»

«إما أنه لا يستطيع أن يخبرني أو لن يخبرني. لا يمكنني أن أعرف الكثير منه. لا أظن البتة أن السيد أويسيل اختاره لذكائه.»

قال سانكروفت وعلى شفتَيه ابتسامة: «ربما حصافته هي أهم صفة لديه.» تذكر ويست موقف أنيت عندما كانا يحتسيان الشاي. كأن أويسيل قد نقل العدوى لكلِّ مَن حوله بأن غرَس فيهم عدم إخبار الشرطة بأي شيء.

«لا يخلع دوبيسك تلك الصفة عنه، ويبدو أنه لا يوجد سبب للتشكيك فيما قاله بأن اللصوص خدَّروه بالكلوروفوروم بمجرد أن فتح لهم الباب. لا يمكننا الخروج منه بأي معلومات غير ذلك وغير واقعة خروج جينكس من أجل شراء الصحف الرياضية خصوصًا كي يعرف نتيجة مباراة كيد أوكلاي.»

«وبالنسبة إلى الشيال، ألم يشتبه في شيء؟»

«لم يكن يعلم أن أويسيل بالخارج. وقد أوصل رجلَين حسَنَي الملابس إلى المصعد. إنه لم يشتبه في شيء حتى لما سمع الرَّصاصة التي لا بدَّ أنها قتلت جينكس. ظن أن ذاك انفجار حدث في المحرك. اشتبه في الأمر لما خرج الرجلان بسرعة كبيرة من دون استدعاء المصعد، ومِن ثَم اتصل بالشرطة.»

قال ويست: «بالطبع يستحيل القول إن هذا محض صدفة. سبق أن تكتمنا على واقعة العشاء كي لا تعرف الصحافة، ولكن لا شيء مما يحدث في هذا المجلس يبقى سرًّا. قد يأخذ اللصوص العاديون بالنصيحة ويخرجون من أجل المال والمقتنيات القيمة، ومِن ثَم لا تكون هناك عَلاقة بين السرقة وجريمة القتل.»

قال بلاكيت: «ذلك الاستنتاج غير صحيح يا سيد ويست. في أحد الأدراج التي فُتحت، كان هناك سوار ساعة من الألماس اشتراه السيد أويسيل هدية لحفيدته. فُتحت العلبة ولكن لم تُمس الساعة. وحسبما أعتقد، فلا شك أن اللصين كانا يبحثان عن أوراق ما، وهذا ما أخذاه. كذلك يتفق كل من دوبيسك والآنسة أويسيل على أنه لم يحتفظ البتة بأي مقتنيات ثمينة أو أموال في مسكنه. إنه يحفظها دومًا في الغرفة المنيعة بالبنك.»

قال روبرت متأملًا: «إنها خَسارة كبيرة أن يُقتل جينكس على يد هذين الخنزيرَين. كان رجلًا يتمتع بذكاء استثنائي، ولا بدَّ أنه تمكَّن من معرفة الكثير عن شئون أويسيل. أعرف أن أويسيل أخبر الوزير بأنه كان يحاول أن يقنع جينكس كي يعود معه إلى أمريكا. ربما كوَّن بعض الاستنتاجات ... عن الزوار على سبيل المثال. قلت إنه لم يُعثَر على شيء بشأن جينكس، لا دفتر يوميات ولا أي شيء يمكن أن يساعدنا، أليس كذلك يا بلاكيت؟»

«تعالَ وألقِ نظرةً على ما يوجد هناك. لا أرى شيئًا ذا أهمية ... كلها متعلقات شخصية عن الملاكمة وبطاقات مواعيد وأشياء من هذا القبيل ... ما لم تكن الأرقام في مفكرته تعني شيئًا بالطبع.»

نظر إليه روبرت بحدَّة وقال: «هل تقول مفكرة يا بلاكيت؟ هل كانت معه مفكرة؟ لم تخبرنا عن ذلك.»

عندئذٍ تذكَّر الوعد الذي قطَعه لأنيت، وقال بمزيد من العفوية: «سآتي معك وأُلقي نظرة على متعلقات جينكس.»

الفصل التاسع

لَمَّا عبَر ويست ساحة القصر وانعطف إلى مقر شرطة سكوتلانديارد، ومن الواضح أنه يتحدث بشكل عفوي إلى المفتش بلاكيت، تملكه شعور كأن لغمًا يكاد ينفجر تحت قدمه. دقق النظر في ساعة بج بن عسى أن يجد الراحة وهي تقف مثل حارسٍ ضخم تحت قُبة السماء الزرقاء الصافية. بدا وجه الساعة مألوفًا جدًّا لدرجة أن ويست حاول التخلُّص من الفكرة التي كثيرًا ما كانت تطرأ في ذهنه في تلك الأيام، كان يفكر أن هذا كله ليس سوى واجهةٍ مزيفة وأن واقع البرلمان شيء مختلف تمامًا، وأن مقر الحكومة الحقيقي قد انتقل إلى مكان آخر، انتقل إلى شارع لومبارد أو ربما إلى ما بعد المحيط الأطلسي.

تحدَّث إلى بلاكيت بنبرة غير مألوفة: «أجد نفسي أفكر في أويسيل البائس المتوفى ... ثعلب قتلته ضربة من براثن أسد مُحتضَر.»

انذهل بلاكيت: «أسد مُحتضَر يا سيدي؟»

ضحك ويست. «إنه مجرد خيال. أنا لا أعرض عليك نظرية جديدة بشأن جريمة القتل.»

فتح بلاكيت خزانة في مكتبه الصغير البارد بمقر شرطة سكوتلانديارد، ووضع على الطاولة الأشياء التي تشكل ما أسماه «حرز جينكس» واحدًا تلو الآخر. مثيرة للشفقة تلك النثريات التي نخلفها وراءنا. اكتسب ويست العديد من التصرفات البسيطة النابعة من دماثة الأخلاق وينبغي أن يشكر عليها الرجل الميت، شعر بالخجل قليلًا حينما نظر إلى المحفظة البالية ومجموعة صغيرة من الخطابات وبعض الصور الفوتوغرافية والبطاقات المتعلقة بالأحداث الرياضية.

في النهاية، وضع بلاكيت على الطاولة مفكرة صغيرة ذات غِلاف أسود من الجلد المتهرِّئ.

شعَر ويست كما لو أن قلبه توقف عن النبض. أخذ المفكرة. وجد بداخلها بعض الأرقام المكتوبة بطريقة عشوائية على ما يبدو، وبعض الكلمات المكتوبة بحروف ذات لون أسود وكأنها شفرة، وبعض الطلاسم الغريبة. كل تلك التفاصيل تتطابق مع الوصف الدقيق الذي ذكرته أنيت عن المفكرة؛ إذ قالت إنها الشيء الفعلي الذي سعى اللصوص إلى سرقته.

إذن، كيف وصلت إلى جيب إدوارد جينكس، الرجل الذي أرسله وزير الداخلية خصوصًا كي يحرس أويسيل وكل ما يمتلكه؟

هل يُعقل أن يكون لوزير الداخلية يد في أي شيء؟ شعر كأن المكتب يدور به. لم يرفع روبرت عينيه عن المفكرة كي يُخفيَ حيرته التامة. بالطبع ربما لا يعلم وزير الداخلية شيئًا ... لكن ما معنى هذا كله؟ سُر روبرت أنه تمكَّن من كبح دهشته إذ لربما أثارت الشك في قلب بلاكيت. لا بدَّ أن يتبين طريقه إلى حل اللغز قبل أن يثق حتى بالمفتش، حيث إنه في النهاية موظف لدى شرطة سكوتلانديارد وليس موظفًا لدى الوزارة.

لا بدَّ أن ترى أنيت تلك المفكرة للتعرف عليها. لكن كيف يتمكن من الاستحواذ عليها كي يريها إياها من دون أن يوضح لبلاكيت أهميتها، إذ لن يسمح بإخراجها من مكتبه من دون سبب وجيه.

قال روبرت بنبرةٍ بطيئة وحذرة: «إذا فهمنا ما في تلك المفكرة يا بلاكيت، فربما توصلنا إلى أي معلومة مما نريد التوصل إليه.»

أخذ بلاكيت المفكرة وقلَّب في الصفحات. «هل تظن ذلك؟ يُخيَّل لي أن جينكس دوَّن ملاحظات عن رهاناته وربما ملاحظات في شكل شفرات من تأليفه.»

«لكن ربما تكون أهم من ذلك. ربما دوَّن جينكس ملاحظات عن تجاربه مع أويسيل. تعرف أن الرجل كان جيدًا في حكي القصص. وكثيرًا ما أخبرته أن يكتب ذكرياته يومًا ما.»

اخترع ويست تلك القصة في وقتها، ولكن يبدو أنها أثارت اهتمام بلاكيت. ففي النهاية، ويست يعرف جينكس أكثر مما يعرفه بلاكيت.

«ربما توجد معلومات في تلك المفكرة يا سيدي. سنكلف رجال فك الشفرات بالبت في شأنها على الفور. فربما يتوصلون إلى أي شيء قد ينطوي على أي معنًى.»

كان هذا الاقتراح آخر شيء يريده ويست.

قال متثاقلًا: «نعم، بالطبع، هذا اقتراح جيد. لكن ... إممم ... كما تعلم يا بلاكيت، تنطوي تلك القضية على العديد من المسائل الحساسة. اسمعني، لقد كنت خبيرًا كبيرًا في

فك الشفرات. وكان ذلك الشيء الوحيد الذي برعت فيه حينما كنت في الدراسة.» بدأ ويست يتخيَّل نفسه مستعدًّا لأن يكذب. «اسمح لي أن آخذ تلك المفكرة ليلة واحدة. ربما أتوصل إلى شيء منها، والأجدر ألا نُدخل أي مسئول مهما كان محلَّ ثقة في الوقت الحالي.»

تردَّد بلاكيت. الاقتراح مخالف للقواعد وكل ما تمرس عليه، ولا يُسمح بإبعاد المستندات عن يده أو من خزانته ولو للحظة واحدة. وعلى الجانب الآخر، كان ويست — نوعًا ما — يتحلى بالمسئولية أكثر منه في تلك المسألة من وجهة نظر الحكومة، واضطُر إلى أن يفكر في السيد جورج جليسون. لا بدَّ أن يبقى على اتصال مع ويست إذا كان عليه إنجاز أي شيء يتعلق بحل أي عقدة في تلك المسألة الشائكة التي لا يُعرف بدايتها ولا نهايتها.

قال: «الاقتراح مخالف للقواعد تمامًا يا سيدي.»

تحلَّى ويست بقدر كبير من المراوغة في مناقشة تلك النقطة.

قال ببساطة: «يجب أن يثق بعضنا ببعض يا بلاكيت.» شعر بعدم الارتياح إلى حدٍّ ما من التأثير الناتج لأنه لم يكن يثق ببلاكيت، لكن قال المفتش: «حسنًا يا سيدي. على أية حال، لن تُطلب المفكرة حتى الصباح. ستحرص على أن تكون أول شيء تعيده إليَّ. فقد نُضطر إلى عرضها في التحقيقات.»

وضع ويست المفكرة القيمة في جيبه وانطلق مباشرةً إلى مكتبه في وزارة الداخلية واتصل بأنيت هاتفيًّا. أرادت أن تراه على الفور. بدا وكأن سيارة الأجرة استغرقت فيما يبدو وقتًا طويلًا للغاية وسط الزحام إلى أن وصلت شارع كلارجيز.

شقة أنيت مصبوغة بطابَع شخصيتها الكتومة بدرجة غريبة. الجدران والسقف والسجاد والستائر، تحتوي كلها على المسحة نفسها من البرشمان القديم. الأثاث الحديث مصنوع من الخشب الأسود. مظاهر الألوان الوحيدة كانت في لوحة من تصميم جوجان وأنيت نفسها؛ إذ كانت ترتدي فستانًا طويلًا من القماش المخملي البرتقالي. من الواضح أن الحداد كان واجبًا تعيَّن عليها تحمله.

من الصفات المميزة لها أن الابتسامة هي وسيلتها الوحيدة في التحية. شعَر روبرت أن عليه تقمُّص الحزن مثلها. كان على أنيت أن تحقِّق ما يُرجى منها. أخرج المفكرة الصغيرة من جيبه وأراها إياها.

سأل: «هل كنتِ تقصدين تلك المفكرة؟»

«نعم»، وأطبقت أصابعها عليها.

التقط ويست أنفاسه في لحظة من الخوف الشديد. كانت المفكرة مدخلًا جيدًا، ولكن ماذا لو لم تعطه إياها مرة أخرى؟ شعَر بالحماقة الكبيرة والحَيرة وهو بجانب تلك المرأة الأنيقة؛ لم يفهم ما الذي تسعى إليه، ولكن لا بدَّ أن يبقى متحكمًا في الموقف.

قال: «لقد حصلت عليها بصعوبة كبيرة. وقد اقترضتها من قسم الشرطة لبضع ساعات فقط. يجب أن آخذها معي مرة أخرى الليلة.»

«ولكنها ملكي. ترك لي جدي كل شيء كان يمتلكه.»

«مبارك لك. ولكن تلك المفكرة ليست مجرد تركة. قد تكون أهم حلقة في سلسلة الأدلة برمتها، ويجب أن تساعديني كي أعثر على قاتل جَدك.»

نظرت إليه أنيت بعينيها الغائرتين الصامتتين. «بالطبع. أشكرك على تحمل كل تلك المتاعب. سأفعل كل ما تريده مني.»

شعر بوب أن هذا كان محيرًا بالقدر نفسه تقريبًا. سأل: «هل أنت متأكدة من أن اللصوص كانوا يبحثون عن تلك المفكرة؟»

«أعتقد ذلك. إنها كتاب الشفرات الذي يحوي ملاحظات عن كل تعاملاته المالية. وعلى حد علمي، بالتأكيد كانت أهم مستند في الشقة في تلك الليلة. ولكن أين وجدتها؟»

«في جيب جينكس.»

سألت أنيت: «لكن لماذا؟ ما الذي كان يفعله بها؟ هل تعتقد أنه كان يحاول سرقتها؟»

قال روبرت بنبرة يختلجها القلق: «حسنًا، لم أسمع شيئًا كهذا عن جينكس. وما عَلاقته بتلك المفكرة على أية حال؟ هل تظنين أنه استحوذ عليها من اللصوص قبل أن يطلقوا عليه الرَّصاص؟»

«وهل كانوا سيتركونها معه إذا كان الأمر كذلك؟»

«كلا، لا أظن ذلك، ولكن بالطبع هناك احتمال آخر وهو أن يكون جَدك أعطاه المفكرة بيده كي يحفظها له. ذلك الاحتمال يتفق تمام الاتفاق مع ما أعرفه عن جينكس. كان السيد أويسيل يكسر قاعدته بأن يبعد عن المنزل في الليل. إننا نعلم أنه فكَّر كثيرًا بشأن جينكس. ومن المؤكد أن أبسطَ شيء يعطيه إياه هو المفكرة كي يعتنيَ بها.»

ارتسمت ابتسامة متثاقلة على شفتَي أنيت. «لم تعرف جَدي حقَّ المعرفة، وإلا لعرفت أنه ما كان ليفعل هذا الأمر بتاتًا. لم يثق في أي شخص ولا حتى فيمن أحبهم ولا حتى أنا. إنه لا يثق في أي إنسان سوى نفسه. أعلم أن هذه خصلة فظيعة، ولكنها الحقيقة.»

جلسا صامتَين. تساءل روبرت عن التاريخ الحقيقي لهذين الغريبين اللذين ألقى بهما القدر في مهبِّ حياته. كانت أنيت مختلفة كل الاختلاف عن كل اللاتي عرفهن. ليس

معه مفتاح لمعرفة مزاجها. ود لو أنها تُرسم كما هي في جِلستها، مرتدية فستانها المخملي البرتقالي؛ إذ يعكس الألوان الغنية في لوحة جوجان التي تنبض بالحياة على الجدران التي تتخذ لون رق الكتابة القديم.

تتكئ بذراعها الأبيض على مسند كرسيها المصنوع من الخشب الأسود العادي، ولم يكن الخشب أشد لمعانًا أو سوادًا من شعرها. إنها تجلس ساكنة. كانت تتحدث من دون أن تتحرك، لكن لم يدرك روبرت السلام في سكونها، بل لمس قوة خفية تتحكم فيها بصلابة.

لم تُجدِ نفعًا محاولة جعل أنيت تتحدث بوجهٍ عام. ظهر هذا في تعاملها مع الصحافة. المشكلة أنه لا يعرف هل أرادت تقديم المساعدة، أم أن التحكم في الذات كان ستارًا تُخفي وراءه شيئًا، أم هل هذا موقفها المعتاد.

لكسر حاجز الصمت، قال بنبرة حزن: «إذن، تميلين إلى الاعتقاد بأن الأمور لا تبدو مُبشِّرة بشأن جينكس المسكين.»

فكرت أنيت في كلامه بعض الوقت، ثم قالت بنبرة هادئة: «لكن إن كان يحاول سرقة معلومات، فكيف عرَف أن هذه المفكرة هي المستند الأساسي الذي ينبغي سرقته؟ لا شك عندي أن جَدي لم يعطه معلومات عن ذلك. ما كان لأحد أن يعرف من الذي لا يجري مفاوضات فعلية معه.»

«إذن، هل تقصدين أن جينكس حاول الحصول على تلك المفكرة لشخص آخر يعرف أهميتها؟»

«يبدو لي أن هذا أوضح تفسير.»

«ربما يكون أحد أصدقاء جدك. هل تعرفينهم؟»

«نعم، أعتقد أنني أعرف كل الرجال الذين استقبلهم ضيوفًا. المهمة الوحيدة التي كان يطلبها جدي مني — مقابل كرمه السخي — أن أكون بمثابة مضيفة في حفلات عشاء العمل الصغيرة التي يقدمها. بالطبع كنت المرأة الوحيدة، وأغادر في نهاية الوجبة. لم أنضم إليهم البتة بعد احتساء القهوة. كانت تلك المهمة تافهة أمام كرمه معي.»

أعاد ويست على مسامعها الأسماء التي ذكرها بلاكيت. «سامحيني إن كنت تطفلت على شئونك بالفعل. هل كان هناك أحد غيرهم؟»

ابتسمت: «لا. يبدو أن معلوماتك كاملة تمامًا.»

أراد أن يذكر اسم فيليب كينيرد أمامها كي يرى ردة فعلها، ولكن يصعب قليلًا أن يسأل امرأة إن كان عشيقها لصًّا.

قال بأسلوب لبق: «أعرف كل هؤلاء الرجال جيدًا عدا كينيرد إذ لم أقابله سوى صدفة في المجلس. ألا تظنين أنه رتَّب تلك الأمور مع جينكس؟ أقصد ... إممم ... لا أريد أن أتهمه بالطبع.»

ظن ويست أن تنهال عليه بالقذع، لكن بقيت أنيت هادئة كما هي عادتها. «جينكس لم يحب فيليب كي يفعل شيئًا من أجله. هل تعرف طريقة فيليب مع الموظفين؟ إنه ليس لبقًا، ولم يكن جينكس موظفًا بالمعنى الحرفي للكلمة.»

«إذن، الاقتراح الوحيد الذي يمكن استخلاصه هو أن جماعة تنافس جَدك هي التي دبَّرت لذلك. لكن قتل رجل والسطو على شقته — على الرغم من غلبة تلك السمة على ولاية شيكاغو — تبدو طريقة غريبة نوعًا ما في إدارة عَلاقات الأعمال في لندن. إضافة إلى ذلك، لم يتصلوا هاتفيًّا برئيس الوزراء ويعرضوا عليه تولي الأعمال المتوقفة التي خلَّفها السيد أويسيل.»

ارتسمت ابتسامة أنيت المتثاقلة غير المعبرة على شفتيها. شعر ويست أنه لن يحصل على المزيد من المعلومات منها الآن. فقد تَثبَّت من هوية المفكرة. وعلى الرغم من أن المفكرة تعقد الأمور على ما يبدو في الوقت الحالي، فإنها بلا ريب مفتاح بالغ الأهمية، ولكن انطوت أنيت على نفسها مرة أخرى. عادت إلى حالة الصمت والموقف الدفاعي كما كانت في الصباح.

حاول ويست بشتى الطرق أن يُخرجها من تلك الحالة. أحسَّ أن شيئًا ما قد وقع في الساعات القليلة التي مرَّت منذ أن تحدَّثا في الشرفة المكشوفة. عندما كانت تحتسي الشاي معه، كانت ودودة وكتومة بعض الشيء. أما الآن، فكأنها استترت خلف لوح من الزجاج. لم يُجدِ نفعًا معها حينما قرر روبرت أن يحافظ على استمرار الحديث أطول فترة ممكنة إذ حاول أن يحوِّلها من التفكير في وقائع المأساة المحزنة إلى الحديث في الأمور العامة. لا يظهر منها أنها تريده أن يغادر. تساءل يا تُرى هل تشعر بالوحدة على الرغم من ثروتها أم تراها خائفة من شيء أو شخص ما.

انحنى إلى الأمام ووضع يده على يدها المتكئة على مسند كرسيها.

«آنسة أويسيل، أنا أريد المساعدة حقًّا. هل يقلقك شيء؟ لا أظن أنك ترغبين في الوثوق بي. ستشعرين أنني موظف لدى الحكومة البريطانية وحسب، وبالطبع لا بدَّ أنني كذلك، ولكن إذا كان هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك ...» توقف عن الحديث متحيرًا. أراد أن يقول: «أوه، اللعنة على الحكومة، اتخذيني حليفًا لك، أريد أن أخدمك»، ولكن لا يخفى أنه لم يستطع التفوُّه بتلك العبارات ولن تصدقه إن تفوَّه بها.

وجد نفسه يُحدِّق النظر في يده التي كانت تضغط على يدها، وأجبر نفسه على النظر إليها. عيناها الزرقاوان الداكنتان تلألأتا للحظة. للحظة، كادت الدموع أن تنزل منهما.

تمتم: «أنا آسف ... أنا ...»

نهضت ووقف هو بجانبها ولكن من دون أن ينظر إليها. «هل في يدي ما أفعله من أجلك؟»

قالت: «لا، ليت بيدك شيئًا.» استجمعت رباطة جأشها. «تلك المفكرة غاية في الأهمية. مهمة لأقصى حد. إن تمكنت من الوصول إلى من كان يبحث عنها، فأنا متأكدة من أنك ستجد الحل للقضية بكاملها.»

وضع المفكرة الصغيرة في جيبه الداخلي وكأنها هدية صغيرة منها. قال: «يمكنك الاعتماد عليَّ. سأعرف هؤلاء الأوغاد.»

ابتسمت ومدت يدها. انحنى وقبَّلها، ولكي يخفي الحرج الطفيف للرجل الإنجليزي في تلك المجاملة، قال بنبرة هادئة: «أشعر كما لو كنتِ ترسليننني إلى الحروب الصليبية.»

«ربما. إلى اللقاء يا سيد ويست. أرجو أن تزورني قريبًا.»

امتلأ عقل روبرت بذكريات الفستان المخملي البرتقالي وهو عائد إلى مجلس العموم في سيارة الأجرة، هزَّه الزحام في ساحة البرلمان وأعاده إلى وعيه. انذهل لَمَّا رأى حشدًا من الشرطة الخيالة بجوار نافذة مكتبه وفي الزحام. أخرج رأسه وألقى التحية على الشرطي المار به، إذ تعرَّف عليه الشرطي.

«ما الأمر أيها الضابط؟»

«مظاهرة بسبب البطالة يا سيدي. إن لديهم وفدًا مفوضًا للحديث عن سعر الخبز. لكنك ستمرُّ في بضع لحظات يا سيدي. الشرطة الخيالة عاكفة على إخلاء الميدان.»

شاهد روبرت الخيول المدربة وهي تفض الزحام أمامه. انزلقت امرأة معها طفل رضيع. فتح روبرت الباب كي يسحبها إلى سيارة الأجرة حفاظًا على سلامتها، ولكن ساعدها شرطي حتى وقفت على قدميها وجرفها الزحام معهم.

سعر الخبز. بذخ أنيت. لكن مسيرة من أجل الخبز لم تحدث في إنجلترا. أدرك روبرت فجأة أنه لم يشهد مسيرة من أجل الخبز في حياته من قبل. لقد قرأ عن المظاهرات في الثمانينيات والتسعينيات، والمسيرات الطويلة بسبب البطالة في عام ١٩١١. لكن إعانة البطالة حلت كل تلك الأمور. لقد خُفضت النفقات والخدمات إلى أقصى حد، ومِن ثَم ...

تحركت سيارة الأجرة ببطء في سكون ساحة القصر. احتشد رجال الشرطة عند المدخل بدلًا من الشرطيين الودودين المعتادين. عندما دفع ويست الأجرة، وقف بضع لحظات عند المدخل ينظر عبر الساحة الساكنة المحاطة بالزحام المتلاطم المظلم بالخارج.

بدا المجلس بنوافذه المضاءة هو المركز الهادئ في الدوامة التي تعصف بلندن. تفاوض وزير منهك مع ممول أمريكي بالداخل، وبالخارج تقف المادة الخام لمعاملاتهم المالية، إذ تدافع وتظاهر الشعب الذي انتخب الوزير وسيدفع الفائدة على القرض. إنهم يريدون الخبز. إنها ليست إنجلترا — كان ستيوارت أورفورد على حق في تلك المسألة. إنها إنجلترا جديدة، وما الذي ينبغي فعله إزاء ذلك؟

دقَّ جرس التصويت من أجل آخر تصويت في ذلك اليوم. جرى ويست على السلم من أجل التصويت. ليس لديه أدنى فكرة عن موضوع التصويت. لكن تلك منطقة الراحة في مجلس العموم. إنها تمنح كل فرد الشعور بالراحة بأن «شيئًا ما قد تم». لكن ما هو وكيف تم ولماذا، فحتى الأفراد الذين كانوا ينجزون هذا «الشيء» لديهم فكرة بسيطة غير التفاصيل المباشرة التي ذُكرت في ذلك اليوم.

الفصل العاشر

عندما نادى دونالد شاو على ويست في شقته في اليوم التالي كي يصحبه إلى التحقيق، تفاجأ لما وجد صديقه يعتريه قلق كبير. كان واضحًا أنه لم يهنأ بنوم في الليلة السابقة.

قال شاو: «أسرع يا بوب. إذا وقفت أمامي منصة الشهود مثلي، فسيوجهون إليك تهمة القتل من دون أن يتكلفوا عناء المناداة على الشهود.»

«أنا قلق يا دون. قلق للغاية. يدخل في تلك القضية العديد من القضايا الجانبية. يُخيَّل لي أن كل من له عَلاقة بتلك القضية يُخفي شيئًا ما. لا أحد يقول كل ما يعرفه ... ولا يمكن ... هذا أسوأ ما في تلك القضية.»

رد شاو: «لم تكن صريحًا مع نفسك من قبل يا بوب»، إذ شعر أنه لم يعلم عن القضية كثيرًا منذ المحادثة مع سانكروفت وبلاكيت في الليلة التي وقعت فيها الجريمتان.

«أعلم يا دون، أنا آسف. أعني بشأنك. لكن لا يمكنني إخبارك بكل شيء، وأعتقد أن الآخرين في القارب نفسه. صدقني أنا أخشى التحقيق. يجري التحقيق فوق برميل من البارود الدولي، وربما يشعل قاضي التحقيق الجنائي الفتيل من دون أن يعلم.»

«وما الذي سيجري إن فعل؟»

أجاب بوب بوجوم: «ربما تقال الحكومة بأكملها»، وعندها توقفت سيارة الأجرة عند باب محكمة التحقيق الجنائي. «لكن أكثر شيء يقلقني هو النزاع بين وزير الداخلية وجليسون بشأن أدلة الشرطة، ومِن ثَم قد يقع أي شيء إذا أراد محامي أويسيل إثارة المتاعب.»

لا شك أن العامة تهتم بالتحقيقات اهتمامًا كبيرًا. اقتصرت الشرفة الداخلية على حاملي بطاقات الدخول، وكذا لم يتمكن العديد من أعضاء البرلمان وغيرهم من الشخصيات المهمة من الدخول.

لم يستبشر ويست حين قال إن مايكل هولدزوورث يجلس في أول صف. بالطبع ما كان ليستبشر. عندما كان ويست ماشيًا في طريقه، لمس مسحة من الحزم الهادئ من جانب رجل لانكشاير. لقد أُعجب بذلك العزم حينها، لكن لم يسرَّه احتمال أن يُضطر إلى التعامل معه بنفسه.

أُخذت شهادات كل من ويست وشاو والطبيب ريدنج في البداية ولكن تم تجاهلها بسرعة كبيرة. فكل كلمة تفوَّهوا بها نقلتها الصحافة أو كتبت عنها من جميع الجوانب. اعتبر الطبيب ريدنج أن الفقيد ربما أطلق الرَّصاص على نفسه، لكنه رفض أن يُلزم نفسه بما هو أكثر من تلك الشهادة وكذلك لم يتم الضغط عليه أكثر من ذلك.

بعد ذلك نودي على خادم الضيافة. لاحظ ويست أن محامي أويسيل بعدما كان يطرح أسئلة روتينية حتى تلك اللحظة، بدأ اهتمامه يزداد بشدة.

على الرغم من ذلك، لا توجد تحقيقات يمكن أن تشكك في القصة البسيطة التي حكاها خادم الضيافة. غيَّر الأطباق بعدما غادر وزير الداخلية الغرفة. ثم أخبره السيد أويسيل ألا يُحضر القهوة حتى يعود الوزير. وهو لم يلاحظ أيَّ شيء غير عادي بشأن السيد أويسيل. كان خادم الضيافة على يقين بأنه لم ينشب شجار بينهما أثناء تناول الطعام. وكلما دخل الغرفة، وجد وزير الداخلية والسيد أويسيل يتحدثان بطريقة هادئة ويتخللها المرح.

سأل المحامي: «هل رأيت مسدسًا على الطاولة عندما غيَّرت الأطباق في المرة الأخيرة؟»

«كلا يا سيدي.»

«ولا في يد السيد أويسيل؟»

«كلا يا سيدي.»

«ماذا كنت تفعل حين غادرت الغرفة بعد تغيير الأطباق؟»

«ذهبت إلى نهاية الطرقة كي أُخبر الخادمة في غرفة الخزين أني لا أريد القهوة في الوقت الحالي. فدائمًا ما تُحضر القهوة طازجة وقت العشاء يا سيدي.»

«وأين تقع غرفة الخزين؟»

«جهة اليمين في نهاية الطرقة.»

«إذن، هل تقول إن أحدًا دخل تلك الغرفة في الفترة بين مغادرتك إياها ورجوعك إلى الباب من دون أن تراه؟»

قال الخادم مقتنعًا: «أوه، نعم يا سيدي. المسألة سهلة للغاية. فالطرقة مزدحمة بالناس ذَهابًا وإيابًا طَوال الوقت ولا أحد سيلاحظ أي أحد يدخل إلى إحدى الغرف الخاصة يا سيدي.»

«لكن هل خرج مرة أخرى بعدما سمعت صوت إطلاق الرَّصاصة؟»

«كلا يا سيدي، كنت واقفًا عند الباب مباشرة حينما أُطلقت الرَّصاصة، وكذلك كان السيد ويست يا سيدي.»

«لماذا كنت تقف عند الباب حينذاك؟»

«دق جرس التصويت حينها يا سيدي، لذا علمت أن وزير الداخلية لن يتأخر. كنت سأدخل كي أرفع أطباق الحلويات وأجهز كل شيء لإحضار القهوة حين عودة الوزير حسب التعليمات التي صدرت إليَّ يا سيدي.»

«إذن، هل كنت بداخل الغرفة في بضع ثوانٍ أخرى؟»

«نعم يا سيدي.»

«وهل رأيت كيف مات السيد أويسيل؟»

«أظن ذلك يا سيدي.»

علَّق قاضي التحقيق الجنائي: «لربما وفر علينا الكثير من المتاعب.»

كانت هناك موجة خفيفة من الضحك في المحكمة.

كان استدعاء أنيت أويسيل إلى منصة الشهود سببًا في تطاول الكثيرين بأعناقهم.

لما رآها بوب في التحقيقات الأولية متمالكة نفسها وغير مكترثة البتة بالنظرات الفضولية التي ترمقها من الشرفة الداخلية العامة، قال في نفسه: «غريب ذلك التأثير النابع من إطلالة الألوان حتى وهي ترتدي ملابس ذات لون أسود فاحم.»

تعرفت أنيت على المسدس وقالت إنه مسدس جدها. سأل قاضي التحقيق الجنائي: «أليس غريبًا أن يحمل مسدسًا معه في عشاء ودي في مجلس العموم؟»

ردت: «لم يخرج جدي من دون سلاحه البتة.»

«هل لديه أي أسباب خاصة تجعله يتوقع أي تهديد لحياته؟»

«ليس أكثر من المعتاد، لا يوجد سبب على الإطلاق في الحقيقة، ولكن هذا لن يُحدث فرقًا. لقد أُطلق عليه عيار ناري ذات مرة وأصيب بجرح سيئ للغاية حينما خرج من دون سلاحه. وبعدها لم يَعُد يترك مسدسه حينما يكون بمفرده ولو كان بالمنزل.»

علَّق قاضي التحقيق الجنائي: «لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرتين»، وسُمع الضحك بين الحشود مرة أخرى. لما كان روبرت يراقب كل حركة من أنيت، تعاطف مع ازدرائها الصامت لتلك الوقاحة.

«ولكن ماذا تقولين في عدم رؤية الخادم للمسدس حينما كان في الغرفة وينظف الطاولة؟»

«ذاك ما لا أعلمه. من واقع معرفتي بجدي، أنا على قناعة بأن الخادم غُطي طيلة الوقت الذي مكثه في الغرفة بينما كان السيد أويسيل بمفرده.»

«من دون أن يرى المسدس؟»

كان جدي راميًا خادعًا. يمكنه إطلاق النار من أي مكان. والمعتاد منه أنه يحمل مسدسه في جيب معطفه.»

سأل قاضي التحقيق الجنائي: «ولكن هل يمكن ذلك حيث إنه كان يرتدي ملابس السهرة ويرتدي معطفًا له ذيل؟»

«لا، ولكني رأيته يحفظ المسدس بين ساقيه والرجل الذي يتحدث إليه لا يعرف تلك الحقيقة البتة.»

«لو كان الأمر كذلك في تلك الحالة، أفلا يسقط المسدس على الأرض حينما أُطلق عليه الرَّصاص؟»

قالت أنيت: «هذا محتمل.»

قال قاضي التحقيق الجنائي: «ولكن من المؤكد يا آنسة أويسيل أن هناك تفسيرًا أبسط وهو أن السيد أويسيل أطلق الرَّصاص على نفسه وسقط المسدس من يده لمَّا خر من فوق كرسيه.»

«لا أصدق أن جدي انتحر. فقد كان يتمسك بالحياة بطريقة غير عادية.»

ذلك التلميح المؤدب من قاضي التحقيق الجنائي أوصل انطباعًا بأن هذا بالطبع هو المتوقع أن تقوله حفيدة بارَّة بجدها على الرغم من وجود أدلة دامغة مناقضة لرأيها. بدا الإحباط واضحًا على وجوه الحاضرين حينما انتهت أنيت من الإدلاء بأقوالها وتبدلت الأناقة الواقفة أمام منصة الشهود وحل مكانها شخصية المفتش بلاكيت المتبلدة وغير المثيرة.

اتبعت شهادة المفتش المسارات المعتادة إذ طاف به قاضي التحقيق الجنائي في القصة مرة أخرى. بعد ذلك تولى محامي أويسيل المهمة.

«هل تفحصت المسدس حينما سلمه الرقيب بورن؟»

«نعم يا سيدي. بالطبع ترك كل شيء على حاله حتى أتيت.»

«كم عدد الرَّصاصات التي أُطلقت من المسدس؟»

«واحدة يا سيدي.»

«وهل تعتبر أن الرَّصاصة التي قتلت السيد أويسيل قد أُطلقت من ذلك المسدس؟»

«ربما يا سيدي. إنها من العيار والمقاس نفسه.»

«ربما؟ هل يعني ذلك أنك لست متأكدًا تمامًا من أن تلك الرَّصاصة قتلته؟»

صمتت المحكمة كأن على رءوسهم الطير. قال بلاكيت بنبرته الهادئة والمتثاقلة: «أنا لست مقتنعًا بذلك يا سيدي.»

أحس ويست بأنين في صدره وقد اجتاح هذا الإحساس المحكمة المحتشدة بالحضور. لقد كانت أول إشارة بأن الشرطة تشكك في نظرية الانتحار بأي حال.

«هل لديك أي أسباب تدفعك إلى التشكيك في انتحار السيد أويسيل؟»

بأسلوب هادئ للغاية وغير منفعل، شرح المفتش بالتفاصيل الأسبابَ التي أقنعت بالفعل السيد جورج جليسون وهي عدم وجود شرارات، واستحالة أن يطلق الرجل النار على نفسه في مكان كهذا من دون أن يحمل المسدس على مسافة قريبة جدًّا من جسده بحيث يستحيل ألا يُحدث خروج الرَّصاصة شرارات.

استمسكت الصحافة والعامة بتلك الكلمات. لا ريب أن نظرية الانتحار سُحقت في عقول العامة.

همس دون: «هل كنت تعرف ذلك؟»

«نعم، ولكني تعهدت بألا أخبر أحدًا حتى يأتيَ ذلك التحقيق. أحمق لعين من يفشي الأمر بتلك الطريقة. جعلها تبدو وكأن الحكومة كانت تحاول التكتم على المسألة لفترة لأن لديها ما تخفيه.»

قال دون وعلى شفتيه ابتسامة: «لو لم تفعل الحكومة ذلك، لكان ذلك مستغربًا منها.»

«أعلم، ولكن هذا أسوأ من أن ترسل المنادي كي يذيع خبر الواقعة.»

عندما وصل محامي أويسيل إلى ما يريد، انتابه القلق مثل أي أحد حتى تبدَّدت الأجواء المثيرة التي تسببت فيها شهادة مفتش الشرطة. ارتبطت باقي الأسئلة الموجهة إلى بلاكيت بتفاصيل فنية.

عندئذٍ، أرجأ قاضي التحقيق الجنائي القضية لمدة أسبوع، وانتهت الجلسة.

لما نهض روبرت كي يغادر المحكمة مع دون، تلاقت عيناه مع عينَي مايكل هولدزوورث إذ كان ينظر إلى الأسفل من الشرفة الداخلية. ابتسم هولدزوورث.

فكر روبرت: «الآن، ينبغي أن نضع ذلك الفتى في الحسبان، والاعتذارات الرسمية ستترك أثرًا كبيرًا بعض الشيء فيه.» ثم قال ملتفتًا إلى دون: «لنذهب ونحتسي البيرة وقطعة من جبن ستيلتون في مطعم بارني.»

ردَّ الآخر: «يسرني ذلك. مرحبًا، هذا رسول آتٍ إليك.»

سلم شرطي شاب رسالة إلى بوب. وصلت الرسالة عبر الهاتف من مجلس العموم. هلَّا تفضَّل السيد ويست بزيارة وزير الداخلية في مكتبه بالمجلس فور انتهاء التحقيق؟

لما كان روبرت عائدًا إلى مجلس العموم، قرَّر ألا يضيع مزيدًا من الوقت ويخبر الوزير بما وُجد في جيب جينكس ويستشيره بشأن التفسير المحتمل. تأجلت المحاكمة لأسبوع واحد فقط، وكان روبرت مقتنعًا أن المحاكمة التالية ينبغي ألا يتخللها المزيد من أجواء الإثارة. ستُعقد التحقيقات بشأن جينكس غدًا، وربما يخرج أمر ما إلى العلن، على الرغم من أن أنيت حرَصت على ألا يسأل محاميها شيئًا عن المفكرة، هذا لو كانت أخبرته بالفعل عنها. لقد اهتمت كثيرًا مثل روبرت لئلا تفشيَ سر تلك المفكرة.

لذلك، انزعج ويست لما وجد السيد جورج جليسون مع الوزير، ولما رأى رزمة الصحف التي كانت أمامهما، علم أن اتصاله به لم يكن اتصالًا عابرًا. نظرة الوزير عندما حيَّاه بوب بينت أنه لم يتوقع حضور السيد جورج لما أرسل رسالة إلى السكرتير البرلماني الخاص. وبالطبع يستحيل مناقشة أي شيء بشأن جينكس في حضور السكرتير الرئيسي الدائم.

طرح الوزير أسئلة عن التحقيق وأخبره روبرت عن أقوال بلاكيت. لم يعلِّق روبرت وكذلك الوزير، ولكن عبرت نظرة بينه وبين السيد جورج ولم يستطع روبرت تفسيرها.

لما انتهى روبرت من تقريره، سأل وزير الداخلية مبتسمًا: «وهل تستمتع بدورك الجديد بصفتك محققًا مبتدئًا؟»

أردف السيد جورج بنبرة يختلجها ازدراء طفيف: «لم تتوصل إلى أي نتيجة رائعة حتى الآن، أليس كذلك؟»

تلاقت عينا روبرت مع عينيه بهدوء تام. من السهل أن يطيق المرء السخرية حينما تكون في يده ورقة قد يتبيَّن أنها الورقة الرابحة. ابتسم روبرت من داخله لما أحس بالأثر الذي قد يتركه في تلك اللحظة إن رغب، لكنه لم يكن مستعدًّا بعد. يجب أن يرى وزير الداخلية بمفرده أولًا.

سأل: «هل أراك في وقت لاحق يا سيدي؟» ولما نظر السيد جورج، أردف: «بشأن مسألة أخرى.»

«دعني أرى. لديَّ اجتماع في مجلس الوزراء في الساعة الرابعة. ومن المفترض أن ينتهيَ بحلول السادسة. فهل يناسبك هذا الموعد؟»

«يناسبني تمامًا. إذن، أعتقد أنني سأذهب كي أُحضر الغداء إذا لم تكن بحاجة إليَّ الآن.»

«انتظر لحظة. هل يمكنك فعل شيء إزاء تلك القضية؟ أعطى هولدزوورث إخطارًا بطرح المسألة للنقاش في الجلسة القادمة. وبالتأكيد لا تريد الحكومة عقد أي جلسة نقاش حتى تتوصل الشرطة إلى بعض الاستنتاجات. فذلك الجدال يضعنا في حرج مع السفارة الأمريكية. هلا تزوره بعد ظهر اليوم وتهدئه؟ بالطبع لا يمكننا رفض بعض البيانات إذا أصر، ولكن لن يسعفنا الحظ إذا اضطُررنا إلى مواجهة المسألة في المجلس في الوقت الحالي.»

من الامتيازات التي يحظى بها الأعضاء المستقلون وأكثر ما يخيف الوزراء من الوقوف في زاوية الإحراج هو حق أي عضو في طرح أي موضوع يهتم به العامة للنقاش بعد إخطار رئيس المجلس على النحو الواجب في الاقتراح الأخير لليوم، «وإلى هنا، تنتهي جلسة المجلس». تنتهي جلسة النقاش في الساعة الحادية عشرة والنصف، ولكن إذا انتهى جدول أعمال ذلك اليوم في وقت مبكر، فقد يجد عضو ليس ذا أهمية كبيرة الوقتَ لبَدء نقاش مهم بشأن مسألة ذات أهمية في نظر العامة. ولا ريب أن مايكل هولدزوورث سيعرض اقتراحه في أفضل يوم ممكن.

كنز هو السكرتير البرلماني الخاص الذي يستطيع تحويل حنَق أعضاء المقاعد الخلفية إلى قنواتٍ آمنة حينما يريدون الحصول على سبقٍ صحفي. روبرت كان حريصًا على أن يكون جديرًا بتقاليد منصبه. وفجأة، أدرك أن جراسي ربما تفيده في تلك المهمة.

وبنبرة واثقة مقصودة كي تترك أثرًا في نفس السيد جورج، قال: «دع أمر هولدزوورث لي يا سيدي.»

قال الوزير: «حقًّا يا روبرت، ستقدم لي مساعدة كبيرة»، والتفت إلى الموظف الكبير في الخدمة المدنية وكأنه يقول له عليك أن تُبديَ استحسانك.

قال السيد جورج: «أتمنى لك السعادة في حل مسألة هولدزوورث.»

أحسَّ روبرت أنه قد حان الوقت كي يُثبت لجليسون المتباهي أنه على الرغم من كونه مجرد سكرتير برلماني خاص (متطوع) في الوقت الحالي، فإنه عضو برلماني أيضًا.

قال بنبرة تباهٍ: «هناك طرق للتعامل معه إذا كنت تعرف الطريقة الصحيحة للدخول له منها.» أردف لرئيسه: «حسنًا، إذا لم تكن بحاجة إليَّ الآن، فسأذهب للغداء ثم أرى ما يمكنني فعله مع هولدزوورث. مع السلامة يا جليسون.»

شعر روبرت أن خروجه كان عظيمًا للغاية. ولكن عليه أن يكون جديرًا به. يجب التوافق مع هولدزوورث بطريقةٍ ما، ولم يرَ أملًا في ذلك من دون مساعدة جريس ريتشاردز.

موقف روبرت ويست من الشابة العصرية هو موقفه من شابٍّ صغير. إنه يفضل المرأة الذكية. إنه يحب أن يُرى ومعه امرأة اسمها معروف للناس. لكن عندما كان منشغلًا معها، توقَّع أن تنحي شئونها الخاصة جانبًا وأن تكون معه قلبًا وقالبًا. وعندما ينتهي من حاجته إليها، فيمكن أن تعود إلى الحديث عن شئونها مرة أخرى، ولكن يجب ألَّا تزعجه. ويسمي هذا الأسلوب السماح للمرأة أن تعيش حياتها الخاصة.

جريس إحدى سكان لندن، وقد سبق أن فازت بدائرة في انتخابات فرعية بعدما كسب ويست مقعده بعام تقريبًا، وعندما كان الاثنان في المجلس معًا، استطاع أن يرى الكثير منها بطريقة حذرة. لقد تصارعا بشدة على السياسة. يسأم روبرت «المرأة الموافقة على أي مقترح» وكاد يصل إلى وجهة نظر جريس أسرع مما كان في ترتيباته. لم يرَ أي سبيل آخر للخروج من هذا المأزق. لكن لم يكن لدى روبرت فكرة عما ستعتقده جريس بشأن صداقتهما غير المعهودة، وتلك الحقيقة زادت اهتمامه بها. لم تتربَّ جريس في رغد من العيش، بل تربت في المصنع وفي شوارع لندن. إنها ليست من النساء اللاتي يكشفن عن مكنوناتهن. وعلى الرغم من صراحة ظاهرها مثلما كانت أنيت أويسيل كتومة، فإن لها آلية دفاع خاصة، وهذا ما اكتشفه ويست بالفعل. لكن، يبدو دومًا أنها على استعداد لتنحية شئونها الخاصة حينما يريد التحدث إليها.

مشى ويست بين الطرقات يبحث عن جراسي، إذ من المفترض أنها انتهت من لجنتها الصباحية الآن. لم تكن في غرفة الطعام، ولكنه رمقها توقِّع على بعض الأوراق في مكتب التصويت، رمقها من تلك النافذة الصغيرة المريحة في زاوية الرواق المركزي الذي يثبت فيه الأعضاء مطبوعات حكوماتهم مجانًا.

أدرك أن الأفضل أن يعتذر عن تجاهله إياها في المرة الأخيرة. التحلي بالحيوية وعقد اجتماع بين سياسي وآخر بمثابة الطريقة التي ينبغي اتباعها مع جراسي، إذ على الرغم من أنها في ريعان العشرين من عمرها، كما أنها صغيرة ومحبوبة، فإنها كانت عازمة على أن تكون جديرة بالدور الذي اختارته بأن تكون مشرِّعة شرسة وليست جذابة.

بدا الأمر كوميديًّا في بعض الأحيان في نظر من يرونها ممن يكبرونها، ولكن كان هذا جهدًا شجاعًا.

ذهب روبرت خلفها وقال بسرعة: «أتيت لتوي من التحقيق. أريد التحدث معك. إنها مسألة مهمة. هل تناولت الغداء؟»

«لا، لقد وعدت أن أنضم إلى مايكل، ولكن إذا كنت تحب ...»

«جيد. إذن، لنتناول الغداء معًا. اسمحي لي أن أعثر على طاولة هادئة كي نستطيع التحدث.» أحسَّ روبرت بالرضا لما أخذ الفتاة من هولدزوورث العنيد.

أخبر جراسي بما جرى في جلسة التحقيق وهما يتناولان الغداء.

سألت غير صابرة: «لماذا كل هذا التكتم بشأن تلك القضية؟ هذا سيعطي انطباعًا لدى العامة قريبًا بأنك تعرف الجاني، وتحاول أن تتستر عليه.»

تلك هي الافتتاحية التي أرادها روبرت.

«إذا كنا نعرف الجاني أو لدينا أدنى فكرة عن الدافع وراء قتل السيد أويسيل، وهل لم يقتل نفسه — وعلى أية حال فتلك المسألة غير مؤكدة على الإطلاق — أو حتى إن كنَّا نعرف الدافع وراء السطو على الشقة، فعندها سنعلن كل التفاصيل بمنتهى الصراحة. لكن علينا أن نتوخى الحذر في تقدمنا لأننا لا نعلم وقد تطأ قدمنا لغمًا في أي لحظة.»

أرجعت جراسي كتلة شعرها الأسود الكثيف المستقيم بيدها. «لا أعرف السبب. قُتل رجلان. لكن جماعتك لا تهتم إلا لأمر السيد أويسيل، ولكني أعتبره لا يزيد أهمية على السيد جينكس.» (لقد أكَّدت في نطقها على كلمة «السيد» جينكس). «يجب أن تعثر الشرطة على الجناة ويجب أن يتلقَّوا عقابهم أيًّا من كانوا.»

«ليت المسألة كانت بتلك السهولة. أرجو أن ينال الفاعل عقابه أيًّا من كان، وأن ينال العقوبة الكاملة على فعلته. أحببت جينكس، ولست منزعجًا بأدنى درجة بشأن أويسيل باعتباره رجلًا. لكن كانت البورصة البريطانية في حالة تراجع. الأمريكيون محتدو الغضب — وتحوم كل أنواع الشائعات في الأجواء. إننا نعمل بكل ما أوتينا من قوة كي نتعقَّب الجناة. لقد كنت في العمل طَوال الليل البارحة.»

لما قال روبرت ذلك، وقعت عليه نظرة متعاطفة ومرعبة في آنٍ واحد، حتى إنه شعر بضرورة توضيح أن المقصود من «العمل ليلة البارحة» هو التحرك ذهابًا وإيابًا في غرفة النوم وهو يحاول التفكير فيما كان يفعله جينكس. لكنه شعر أن التوضيح بدا جيدًا وسليمًا مثل معظم تصريحات السياسيين.

قالت جريس: «لم أكن أعلم أنك معنيٌّ بالقضية إلى هذا الحد.»

قال روبرت متباهيًا: «لست معنيًّا فحسب، ولكني أظن أنني على المسار الصحيح. ليتني أستطيع إخبارك، ولكني أقسمت على الكتمان.»

«يا له من تشويق!» ابتهجت جريس كأنها فتاة صغيرة.

«أنا بحاجة إلى مساعدتك.» لو كان روبرت على مسرح ليسيوم، لتلقَّى التصفيق على نبرته التي توحي بضرورة الكتمان. كان يزهو بنفسه.

«بالطبع. تسرني مساعدتك، لكن كيف؟»

«هلا أقنعت هولدزوورث بعدم طرح موضوع تأجيل القضية للنقاش الليلة؟»

«هل ستسوء الأمور إلى هذا الحد؟ أم ...» وتحولت جراسي إلى الخصم السياسي المتشكك مرة أخرى «... هل تحاول أن تُخرج وزيرك من تلك الورطة؟ لأنني لن أساعد ذلك الغبي العجوز.»

«فتاتي العزيزة، عليك أن تتحلي بقدرٍ أكبر من التبجيل. الوزير ليس غبيًّا كما يُعتقد. ولكن على أية حال، فأنتِ لا تساعدينه هو. بل تساعدينني أنا.»

«ولماذا عليَّ أن أساعدك؟»

صُدم روبرت صدمة كبيرة. ما الذي يدفعها إلى مساعدته؟! في ظنها، ما الدافع من عمل المرأة في السياسة إن لم تقدم المساعدة؟ إنه ينحدر من عائلة سياسية. هل سبق أن سألت امرأة من عائلته ولمَ عليَّ أن أساعد؟ كان يوافق دومًا على أن تحصل المرأة على حق التصويت ولكن لأنه يستحسن وجودها في المكان. إنهن يرغبن دومًا في المساعدة — على الأقل اللاتي أُعجب بهن. وها هي جريس بعد أن جاملها ببعض المجاملات، تريد أن تعرف السبب والدافع قبل أن تقدم المساعدة في أهم قضية سياسية.

رد متأففًا: «هذا بالطبع إن أردت المساعدة، ليس عندي ما أقوله غير ذلك.»

حاولت جريس إخفاء ضحكها — حاولت تلك اللندنية الصغيرة الغريبة إخفاء ضحكها إذ ذلك يقلل من شأن روبرت ويست صاحب السمو والنفوذ.

قالت: «أوه، دعك من هذا. هناك كلام كثير، ولكن لا فائدة من اعتقادك أنه يمكنني منع أحد الأعضاء من شيء من دون أن يكون لديَّ أدنى فكرة عن السبب. إضافة إلى ذلك، فإنني لن أحاول. إما أن تثق بي، وإما تهتم بالأمر بنفسك.»

وقع روبرت في موقف لا يُحسد عليه. إنه لا يستطيع فعل شيء مع هولدزوورث المتشكك من دون مساعدة جريس. إنه يرى ابتسامة جليسون إن فشل. إضافة إلى ذلك، أصبحت مكانته عند وزير الداخلية ذات أهمية كبيرة الآن. اختلجت في رأسه أفكار آيسة: «أوه، اللعنة على المرأة العصرية.» لو أنها تصبح إما عصرية وإما امرأة، ولكن الجمع بين الاثنين غير عادل في الحقيقة لشخص يُضطر إلى التعامل معها!

رمق روبرت رفيقته بنظرة عادةً ما تصنع العجائب. «والآن، لو كنت أنا امرأة وكنت أنت عضوًا برلمانيًّا ذكرًا ووقع في ورطة، واضطُررت إلى البَدء في استخدام فن الإغراء. فماذا سيكون المقابل؟ لا شيء. هذا ليس عدلًا.»

رمقته جريس بنظرة غامضة. «يمكنك قول الحقيقة بالطبع. ربما قولها غير معتاد ... لكنه ينفع في كثير من الأحيان.»

«جراسي، لا أستطيع. صدقًا، أنا لا أطلب أي شيء مخالف لحزبك. إن استطعت أن أتفرغ في عطلة نهاية الأسبوع من أجل تلك المهمة، وأعتقد أنني سأتمكن من الوصول إلى المسار الذي يوصلنا بالجناة. ولكن إن عُقدت جلسة النقاش الآن واضطُر الوزير إلى الاعتراف بعدة أشياء، فهذا سيُنذر الجناة ما يدفعهم إلى التستر على كل القرائن التي معي. ألن تثقي بي؟ بإمكان هولدزوورث — أو أنتِ إن أردتِ — عقد جلسة النقاش الأسبوع المقبل. ألن تساعديني؟»

«ما ينبغي لي أن أقلق بشأن فن الإغراء المفقود يا روبرت. فأنت تبلي بلاءً حسنًا.»

«اللعنة يا جراسي، هل ستساعدينني؟»

«بالطبع سأساعدك. سأذهب الآن وأعثر على مايكل.»

عندما نهضت، أشار روبرت ووقَّع هو على فاتورتها. ما الذي كان ينبغي أن يفعله المرء مع امرأة كهذه؟ عندما عاد إلى الرواق المركزي، وجد نفسه يتفكر في شخصية المرأة التي يحب أن يتزوجها. كان يفكر في كل من جريس وأنيت قبل أن يوقظه من أفكاره الحالمة صحفيان يريدان معرفة آخر الأخبار عن جريمة القتل.

الفصل الحادي عشر

عاد المفتش بلاكيت إلى مقر شرطة سكوتلانديارد بعد جلسة التحقيق في حالة من المزاج السيئ بقدر ما تسمح به طبيعة شخصيته الهادئة. أحسَّ أنه لم يلقَ معاملةً منصفة تمامًا. الأقوال التي أدلى بها في التحقيق قررها رؤساؤه في العمل. ما أزعجه أكثر تلك الحواجز الخفية والعالية التي بدت وكأنها تنشأ كلما سعى وراء مسار تحقيقات يبعث على الأمل. شعر أن الضربة آتية له ممن هم أعلى منه منصبًا، وحتى السيد جورج جليسون بدا حريصًا على أن تبقى التحقيقات ضمن الحدود المرسومة أكثر من اهتمامه بالعثور على الجناة.

جلس بلاكيت على مكتبه وسحب بعض أوراق الفولسكاب نحوه. اعتاد حين يفكر في مشكلة أن يرسم أشكالًا صغيرة للأشياء التي تشغل تفكيره. اكتسب موهبة الرسم الدقيق والمضبوط وأفادته تلك الموهبة كثيرًا في القضايا السابقة. هذه المرة، رسم صورة المسدس الذي وُجد بجانب السيد أويسيل.

ثلاث إجابات ينبغي الوصول إليها في تلك القضية. هل الرَّصاصة التي استقرَّت في جسد السيد أويسيل أُطلقت من ذلك المسدس؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فمن أطلقها؟ وإذا كانت الإجابة بلا، فمن أي مكان أُطلقت الرَّصاصة؟

شهادة الخبير بشأن الرَّصاصة لم تكن قاطعةً على الإطلاق. نظر في التقرير المرسَل. ربما أُطلقت الرصاصة من ذلك المسدس. إنها من العيار والشكل نفسه، ولكن ذلك المسدس القياسي لا يُسعفه في استنتاج الكثير. عندما كان السلاح موجودًا في الغرفة وكانت أبواب الغرفة ونوافذها مغلقة، فقد يفترض للحظة أن الرَّصاصة انطلقت من المسدس الذي عُثر عليه بجانب الجثة.

إذن، يد مَن التي أمسكت المسدس؟ هل رأى خادم الضيافة تلك اليد عند الباب؟ لكن تلك النظرية لن تصمد كثيرًا. رأى ويست خادم الضيافة خارج الباب المغلق حين سمع صوت الرَّصاصة. الانتحار هو النظرية التي تتوافق مع كل تلك الوقائع، باستثناء حالة الجثة نفسها.

بناءً على معرفة بلاكيت المكتسبة من الخبرة، فقد أقنع رؤساءه أن العجوز لم ينتحر، وبعد هدم نظرية لا تخفى ملاءمتها من وجهة نظر الحكومة، أحسَّ أنه إن فشِل في القبض على القاتل، فالأفضل أن يترك الأمور على حالها.

انقطع حبل أفكاره بوصول ساعٍ يحمل بطاقة، وإشارة مفادها أن الوزير قد أعطى أوامره بضرورة أن يقابل المفتش بلاكيت الزائر بعد عودته من جلسة التحقيق. البطاقة احترافية وذات جودة عالية ومنقوش عليها «جون باوز، مصور فوتوغرافي». العنوان المكتوب هو شارع ديوك، سانت جيمس.

نظر المفتش من دون اهتمام خاص إلى الرجل النحيل الذي دخل إلى الغرفة. كان نحيل الجسم. يرتدي ملابس من دون اعتناء ولكنها من أقمشة جيدة. رأسه مثل رأس عالم إذ كان أصلع وذا جبهة منحسرة.

«صباح الخير يا سيد باوز. هل تريد مقابلتي؟»

«كلا، ليس أنت على وجه التحديد. طلبت أن أقابل الضابط المسئول عن قضية قتل أويسيل، وأُخبرت أن أنتظرك.»

وجه المفتش بلاكيت اعتراه تعبيرات الاهتمام. «يسرني للغاية أنك أتيت إليَّ إن كان لديك أي شيء تقوله لي. لقد وُضعت القضية بين يدي. أنت مصور فوتوغرافي، أرى ذلك من بطاقتك يا سيد باوز.»

رد الآخر بلكنة اسكتلندية خالصة: «نعم، هذا صحيح. ولكني لا ألتقط صورًا لأشخاص، بل عملي متخصص إذ يرتبط معظمه بالمتاحف. أنا أصور الوثائق القديمة. ومؤخرًا، صورت وثيقة ربما تهمك.»

«حقًّا يا سيد باوز.» حافظ بلاكيت على «إخفاء تعبيرات وجهه»، ولكن زاد اهتمامه كثيرًا.

«هل تتعرف على تلك الوثائق؟» وضع جون باوز رِزمة من الصور الفوتوغرافية كبيرة الحجم على الطاولة.

أمعن بلاكيت النظر فيها. سأل متفاجئًا: «نعم، أعتقد ذلك. أين عثرت عليها؟»

ابتسم الرجل النحيل. «إذن، هل وصلت إلى هذا الحد؟»

«أوه، نعم، لقد وصلنا إلى هذا الحد. والآن، ستخبرني كيف وصلت إلى تلك الوثائق. أنت من التقط الصور الفوتوغرافية، أليس كذلك؟»

«نعم. التقطتُ الصور بنفسي.»

«ولمن التقطت تلك الصور؟»

«هذا ما أتى بي إلى هنا. الأسبوع الماضي، أتاني رجل وسألني إن كان بإمكاني التقاط صور لوثائق معينة بسرعة. رتب أن يأتي بها يوم الإثنين في الساعة الثامنة والنصف. قال إنه لن يستطيع المكوث أكثر من نصف ساعة. ويجب تصويرها في تلك المدة.»

«ألم تشكَّ أن هناك خطبًا ما بشأن تلك الوثائق؟ لا بدَّ أن الأمر بدا غير عادي نوعًا ما.»

هزَّ السيد باوز كتفيه. «يحدث في لندن العديد من الأشياء غير العادية نوعًا ما. هذا ليس من شأني.»

«وهل أتى حسب الموعد؟»

«أتى والتقطتُ الصور. دفع لي مقدمًا ووعدني أن يتصل في اليوم التالي ويطلب مسودات الطباعة.»

«وهل اتصل؟» كانت هناك لمسة تلهُّف في صوت بلاكيت.

«لم يتصل البتة أيها المفتش.»

«هل يمكنك وصفه لي؟»

«لا حاجة إلى وصفه. ها هو الرجل»، ووضع جون باوز على المكتب قُصاصة من جريدة يومية بها صورة فوتوغرافية. إنها صورة إدوارد جينكس!

«اليوم هو الخميس يا سيد باوز. لقد استغرقت وقتًا حتى تنبَّهنا إلى تلك الصور. بالطبع نكنُّ لك كل الامتنان، ولكن هل لي أن أسألك لماذا لم تأتِ إلى الشرطة في يوم الثلاثاء؟»

«أنا رجل مشغول أيها المفتش. ولا أقرأ الصحف اليومية. أنا لا أهتم بها. لقد رأيت تلك الصورة بمحض الصدفة.»

«سؤال واحد فقط. تلك الوثيقة، على حد تسميتك، هل تصفها لي؟»

«إنها مفكرة عادية أوراقها مجمعة بحلقات وغِلافها من الجلد الأسود. يبدو لي أنها استُخدمت كثيرًا. فقد كانت بالية.»

«لم تتمكن من تصوير كل الصفحات في تلك المدة.»

«صورت كل الصفحات التي بها كتابة.»

«هل قال لك السيد جينكس أي شيء عن تلك المفكرة؟ هل أبدى أي تفسيرات لطلبه الغريب نوعًا ما؟»

«لا، لم أسأله. فهذا ليس من شأني.»

احتجَّ ضابط الشرطة منذهلًا نوعًا ما: «لكن في الحقيقة يا سيد باوز، لا بدَّ أنك أدركت أن ما طُلب منك شيء ربما كان جزءًا من أفعال إجرامية. في الحقيقة، من المرجح أن هذا ما كنت تفعله.» كانت نبرة صوت المفتش جادة.

ظل الاسكتلندي النحيل هادئًا غير متأثر. «ليس من عملي أن أطرح أسئلة تخص عملائي. لقد طلب إنجاز مهمة من اختصاصي تمامًا في عجَل. وأنا أنجزت المهمة. وقد دفع أجري. هنا تنتهي المسألة بالقدر الذي يعنيني.»

«لكن لا تنتهي المسألة عند هذا الحد يا سيد باوز، إذا لم يدرك المواطنون المحترمون واجبهم تجاه الشرطة في تلك المسائل ...»

نهض السيد باوز وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة معروفة عن الاسكتلنديين. «ليس لدى الشرطة مسوغ حتى الآن يدفعها إلى الشكوى من تصرُّفي. أنا لست مجبرًا على اللقاء بك على الإطلاق. كان بإمكاني وضع الصور في المدفأة، وهنا ينتهي دوري في تلك القضية.»

بدأ بلاكيت يشعر أنه لم يكن كيِّسًا. وبأسلوب متثاقل معهود لدى الشرطة البريطانية، حاول أن يكون ودودًا لما أوصل الزائر إلى الساعي كي يوصله إلى الباب الأمامي، ولكن مقالة افتتاحية كاملة في صحيفة «ويكلي سكوتسمان» تتحدث عن طرق الشرطة الإنجليزية تمثلت في تعبيرات كتفَي جون باوز عندما هم بالمغادرة.

بعدما غادر الزائر، جلس بلاكيت لبعض الوقت على مكتبه ينظر إلى الصور. تمعَّن في مطابقتها مع صفحات المفكرة. لا شك أن تلك الصفحات هي الأصلية. ما تفسير ذلك؟ ما الذي يدفع جينكس إلى تصوير مفكرته؟ هل كان يتوقع الوقوع في المتاعب ومِن ثَم كان بحاجة إلى دليل ما؟ لم يطلع بلاكيت بعد على المعلومات التي أفضت بها أنيت إلى ويست. لا يعرف أن المفكرة تخص أويسيل. لكنه شعَر أن ويست أدرك أهميتها وربما عرف شيئًا عنها. هل تمكن ويست من فك شفرة أي كلمات مشفرة؟ ما فعله ببساطة أنه أعاد المفكرة في ذلك الصباح وعليها ملاحظة مكتوبة: «أراك بشأنها لاحقًا.» لذلك فكر بلاكيت في نفسه، ومن الواضح أنه لن يستطيع فعل المزيد حتى يرى ويست ويطَّلع على ما يعرفه عن تلك المفكرة.

ذهب إلى مجلس العموم وهو يرجو ألا ينتظر ساعة حتى تدور بطاقته في أرجاء المبنى بحثًا عن ويست. عثر على روبرت البائس بعد فترة وجيزة، وكان الشاب غير المحظوظ في وسط الرواق العام محوطًا بعدد كبير من السيدات اللاتي يبدو الجد في مُحيَّاهن. وقف شرطي في الخدمة على الباب؛ إذ كان صديقًا لبلاكيت وأوضح مبتسمًا أن رابطة الناخبات الداعمة لوزير الداخلية قد وصلت «جماعات» كي يأخذن جولة في المجلس ويُقدَّم لهن الشاي. هرب وزير الداخلية بعدما طمأنهن بمدى سعادته لرؤيتهن، وأن السيد ويست يسره أن يريهن كل شيء، وكم هو مستاء لأن اجتماع مجلس الوزراء سيمنعه من أن ينال هذا الشرف بنفسه.

نظر ويست إلى بلاكيت آيسًا من وسط هذا السيل من صاحبات الأزياء المطبوعة. هرب لدقيقة كي يشرح.

اقترح عليه بلاكيت حبًّا في المساعدة بابتسامة عريضة: «دعني أوضح لهن أنك مطلوب في قضية القتل.»

«حتى لو كنت السياف نفسه، فلن يتركنني حتى آخذهن في جولة أولًا. لقد ادخرن من أجل تلك الرحلة يا بلاكيت، ويردن الحصول على مقابل أموالهن.»

سأل بلاكيت: «كم ستستغرق الجولة؟»

«لن أنتهيَ قبل ساعتين، وعليَّ أن أرى الوزير في الساعة السادسة.»

«لا بدَّ أن أراك قبل أن تذهب إليه. لا بدَّ أن أراك الآن. ألا يمكنك أن توكل تلك المهمة لشخص آخر؟»

«هل هذا ممكن؟ حتى عضو البرلمان لديه متاعبه الخاصة. سأحاول مقابلتك الساعة الخامسة. سأقابلك في الحانة بالطابَق العلوي. ... نعم، أيتها السيدات، هذا هو الرواق العام، لكن بالطبع لستن غريبات الآن، بل أصبحتن ناخبات ... عندما قامت الناشطات لحقوق المرأة ...»

هرب بلاكيت من تلك القصة القديمة ولجأ إلى تلك الحانة الهادئة؛ إذ يلوذ إليها المتواجدون في المجلس من غير العاملين به بحثًا عن السلام وبعيدًا عن الحشود المضطربة في الردهات.

قال بلاكيت حينما انضمَّ إليه ويست في الساعة الخامسة حسب الموعد: «أرجو أنك لم تقذف بهن في النهر.»

«أخبرتهن قصة مروعة عن الأزمة وتركتهن يحتسين الشاي إذ يقدمه جميع خدم الضيافة الموجودين في المكان. أخبرت كبير الخدم أن يعطيهن كل ما يردن وأن يرسل الفاتورة إلى وزير الداخلية. إنه يستحق هذا. والآن، ما آخر الأخبار؟»

أخبره بلاكيت عن قصة جون باوز. شعر ويست بسعادة غامرة لأنه لم يُلزم نفسه بشيء في الملاحظة التي كتبها لما أعاد المفكرة في ذلك الصباح. أصبح بإمكانه أن يأتمن بلاكيت على السر من دون أن ينكشف أنه كان يخفي عنه شيئًا. صارح بلاكيت وقال له إنه عرض تلك المفكرة على الآنسة أويسيل وإنها تعرَّفت عليها وقالت إنها المستند الأساسي الذي كان اللصوص يبحثون عنه بلا شك.

نظر الرجلان كلٌّ منهما إلى الآخر. سأل المفتش: «إذن، ما الذي كان يفعله تيد جينكس بها؟»

أشعل ويست السيجارة وشاهد عود الثقاب وهو يحترق ببطء. قال: «أعتقد يا بلاكيت أننا ظللنا نشك في جينكس مدة طويلة. لقد وُجد ميتًا وفي حوزته المفكرة. حاولنا أن نتوصل إلى سبب وجودها معه. التفسير العقلاني هو أنه كان يحاول إخفاءها من اللصوص ومات دفاعًا عنها على الرغم من أننا لا نرى كيف. والآن، علمنا أنه ترك شقة أويسيل وصوَّر بعض صفحات تلك المفكرة من دون علم أحد. وتلك المعلومات لم تكن تفيده، حتى إن فك شفرتها. فهل كان يستحوذ على تلك المفكرة من أجل شخص آخر؟ يبدو الأمر كذلك. والآن، يجب أن نفكر في ذلك الشخص.»

أخرج بلاكيت غليونه. «أظن أنه يمكننا استبعاد احتمالية أنه كان يصور تلك الصفحات من أجل السيد أويسيل وبأوامرَ منه.»

«اقترحت على الآنسة أويسيل أنه ربما أعطى جَدها المفكرة لجينكس كي يحفظها معه، ولكنها نبذت تلك الفكرة تمامًا. كذلك لا يُحتمل أن يدخل أويسيل في كل تلك المتاعب من أجل تصوير شيء يملكه، ولكن على أية حال، ما سبب تصوير تلك المفكرة في الليلة التي كسر فيها قاعدته المعتادة وغادر منزله من أجل العشاء؟»

«إذن، يجب أن نفكر فيمن أراد تلك المعلومات. لا بدَّ أنهم معدودون على الأصابع. ألا تظن أن وزير الداخلية قد يساعدنا في ذلك؟ لقد كان طرفًا في المفاوضات. سيعرف إن كان هناك أي شخص آخر مشترك في تلك المهمة ومَن الذي يعتبر منافسًا لمجموعة أويسيل.»

نظر ويست في ساعة يده. «عندي موعد معه في الساعة السادسة، وكنت قررت أن أخبره عن شكوكنا إزاء جينكس. تعلم أن سيكون صاعقًا له إذ سيبدو وكأنه كان متواطئًا حينما أرسل جينكس إلى أويسيل. بالطبع، أي شخص يعرف الملابسات سيرى أن هذا غير

وارد. ذهب جينكس على مرأًى ومسمع من السيد جورج جليسون. ولكن، قد يكون الأمر محرجًا نوعًا ما في البرلمان إذا انكشفت تلك القصة.»

«سيكون محرجًا إن انتشرت.»

«بالطبع، لكن كل شيء يعتمد على الطريقة التي تُعرف بها. في السياسة، لا تسنح فرصة للطرف الآخر أفضل من أن تظهر وكأنك مجبر على نشر الوقائع. وأفضل طريقة للحفاظ على سر سياسي أن تدعوَ إلى اجتماع في القاعة الكبيرة وتُلقي خطابًا بشأن المسألة. وعندها، لن ينتبه أحد.»

ابتسم بلاكيت: «لم يرُقْني البتة أن أكون سياسيًّا يا سيد ويست، ولكن بعد تجربتي في هذا الأسبوع، فإني أفضل أن أقضي عقوبة الأشغال الشاقة على أن أذهب إلى ويستمنستر.»

جالَ ويست ببصره في الحانة المكسوَّة بألواح البلوط، قال: «لا تقل ذلك. يجب أن تعترف أننا نصنع الراحة لأنفسنا. إضافة إلى ذلك، لا نرى أن القيود التي تُفرض على أي حانة أخرى لا تُفرض على الحانة هنا. وكل هذا يساعد على تحمل الحياة كما تعلم.»

«أوه، تلك الأماكن مريحة للغاية، ولكن ما لا أفهمه عن أعضاء البرلمان هو السبب الذي يدفعهم إلى خوض الكثير من المتاعب وعندما ينجحون في الانتخابات ويحصلون على مقعد لهم في المجلس، فإنه لا يستقر بهم المُقام ولا يستمتعون به. وما يكادون يأتون إلى المجلس حتى يفسدوا كل شيء من أجل خوض متاعب الانتخابات مرة أخرى، في حين أن كل ما يريده العامة هو الاستقرار في أعمالهم الخاصة وترك السياسيين يفكرون في شئونهم. وهذا أسميه سخفًا.»

«ربما أنت على حق يا بلاكيت. ولكن تلك هي السياسة.»

لما أوشكت الساعة على أن تدقَّ السادسة حينما ترك ويست المفتش، فكَّر أن ينظر إلى جلسة النقاش في المجلس ويرى ما يجري. يحرص بضعة سياسيين مشهورين على الظهور كثيرًا في قاعة الجلسات إلا في فترات الذروة في الجلسات التي تناقش القضية من جميع جوانبها، أو حينما يحاولون لفت انتباه رئيس المجلس. ويسود اعتقاد أن الأعضاء الموجودين في القاعة من أجل الاستماع إلى المناقشات فقط لا يتواجدون إلا لأنه ليس لديهم أفضل من الاستماع.

وقف روبرت بضع لحظات عند حاجز قاعة الجلسات وهو عبارة عن شريط ضيق محيك من الجلد في السجادة الخضراء المفروشة على الأرض يفصل بين «أروقة المجلس» وفي ذلك المكان، يكون العضو على مرأًى من رئيس المجلس وربما يقوم للتحدث أو يتوجب

عليه الجلوس والمكوث هادئًا، يقف الأعضاء في ذلك المكان — على الرغم من تواجدهم داخل قاعة الجلسات — ويتحدثون بأصوات مسموعة، ويتصرفون وكأنه لا توجد جلسة نقاش على الإطلاق.

لم يحضر في تلك الجلسة إلا القليل. أحد الموضوعات المملة التي تتكرر كثيرًا — مشروع قانون الصرف في الأراضي الزراعية — كاد يُطرح في المناقشة الثانية غير المنهجة. كان روبرت يلتفت كي يغادر القاعة حين لحق به مايكل هولدزوورث.

«إذن، لقد أخبرت جريس ريتشاردز كي تمنعني.»

«هل أخبرتك بذلك؟»

«هل هذا ممكن؟»

«إذن، أهنئك على فطنتك.»

«وهل هناك داعٍ ... من أجل التهاني أقصد؟»

«وهل وعدتها؟»

«هذا طبيعي. لكن ما الذي تحاول أن تخفيه يا ويست؟ ألا ترى أنت — أو بالأحرى وزيرك — أن الأمور تتفاقم وتنذر بأزمة بسبب قضية أويسيل؟ أتساءل في بعض الأحيان هل الوزراء في مجلس وزراء بريطانيا يكلفون أنفسهم ويطلعون على الأخبار المالية في الصحف اليومية أم لا. وإن كانوا يطلعون عليها، يتصرفون وكأن كل الأخبار عدا الواردة في الصفحة الأولى لا تستحق اهتمامهم المهيب.»

«إذن، في ضوء الأخبار المالية، هل تقول إن جلسة النقاش الخاصة بتأجيل المحاكمة ستفيد بأي شيء في الوقت الحالي؟»

رد هولدزوورث بأن رفع أحد كتفيه قليلًا. «بإمكان جريس أن توقفني أنا عن الحديث، ولكن ليس لها تأثير في شرطة سكوتلانديارد. لقد تولت الشرطة القضية منذ يوم الإثنين. الأفضل أن تجعل وزيرك يستعد ببعض الحبال التي ستُشنقان بها معًا عندما يحين الوقت. هل أنت حقًّا تسير في المسار الصحيح لحل القضية؟ لمحت جريس أنك في المسار الصحيح، ولكني أظن أنك لم تُحرز سوى تقدم ضئيل.»

نظر ويست إلى الوجه المجعَّد للرجل الواقف بجانبه. على الرغم من أن هولدزوورث كان شابًّا، فإنه لم يكن جديدًا على اللعبة البرلمانية. إنه يعرف كل حركة. ودَّ ويست لو يتخطى الحديث عن القضية، ولكن كان هذا مستحيلًا بالطبع. لم يكن عضوًا متعصبًا لحزبه حتى، ولكنه اتخذ سمتًا شبه شيوعي خاص به هو. وعدم ولائه لأي حزب هو ما

جعله خَصمًا خطيرًا للغاية. وكل الأحزاب في مجلس العموم البريطاني تلتزم بشكل أو بآخر بالحفاظ على جعل الأمور تحت السيطرة. لا تخلو الدنيا من وجود رابطة نقابية في مكان ما تُخرج إنجلترا أُم البرلمانات من أسوأ الأزمات حين يختلف أفراد عائلتها. لكن هولدزوورث من النوع الذي يفرح حين يذم تلك الأم العجوز الموقرة متى سنحَت له الفرصة. كما أنه لم يكن من المحتمل أن يتأثر بالإطراء بأن يدخل تحت مظلة ثقة الوزراء، تلك أقوى الطرق في التعامل مع عضو خطير حقًّا من غير المنتمين إلى الحكومة.

قرر ويست أن الطريقة الأفضل هي التودد إليه.

«سأقابل وزير الداخلية في الساعة السادسة. سأخبره بما تقول.»

«ولمَ التعب؟ ليس هو من سيقرر ما يقول. الأفضل أن تخبر جليسون. ما رأيه في القضية برمتها؟»

«ذاك ما لا أعلمه. يجب أن أمشيَ الآن.» عندما أدار روبرت ظهره وغادر القاعة، أدرك أن تلك هي الحقيقة البسيطة. لم يكن جاهلًا بما يفكر فيه السيد جورج جليسون. هل ينبغي أن يذهب إليه ويخبره بما نما إلى علمه؟ كلا، الأفضل أن يتحدث في المسألة مع وزير الداخلية أولًا، حتى لو كان ذلك يعني إزعاجه بإخباره أشياء تبدو عدم ولاء من جينكس الذي كان مخلصًا إلى تلك اللحظة.

الفصل الثاني عشر

لم يكن وزير الداخلية في مكتبه حين ذهب إليه روبرت. من الواضح أن اجتماع مجلس الوزراء لم ينتهِ بعد؛ حيث إن وزير الداخلية يزهو بنفسه في مسألة الالتزام التام بالمواعيد. إنه يتصف بكل الخصال المملة للشخصية العامة. تذكر روبرت أنه وعد الوزير أن يقرأ عليه التقرير السري الذي أعدته إدارة التفتيش بشأن الظروف في السجون النسائية. اطلع على الأوراق الموضوعة على مكتب الوزير، ولكنه لم يجد التقرير.

بدأ يبحث في الأدراج ووجد أن الوزير تركها كلها في حالة ترتيب باهرة. يتمسك روبرت بالرأي القائل إن الترتيب لدى أي شخص أعلى من رتبة كاتب علامة على تدنِّي العقل، ولكن الوزير لا يحب أن يرتب السكرتير أوراقه على الرغم من أنه لا يعترض على خدمات روبرت في هذا الشأن. يُمدح كثيرًا في ولاء ويست المتفاني تجاه رئيسه حيث إنه يقضي ساعات في ترتيب الأوراق لوزير الداخلية بحيث لا يجد الوزير ما يتذرع به غير الاطلاع على الأوراق.

لما كان يبحث في درج الوزير الخاص عن التقرير المفقود، وقعت عينه على مِلفٍّ داخل ظرف مكتوب عليه «أوراق مجلس الوزراء. سري.» لما كانت أي ورقة تُعرض في اجتماع مجلس الوزراء — حتى التقارير الروتينية — يُكتب عليها دومًا كلمة «سري»، لم يتردد روبرت في فتح الملف. ولما أعطاه الوزير الحق في فتح مثل تلك الملفات، كان ذلك من دواعي جفاء السيد جورج جليسون تجاه ويست. كان السيد جورج شديد التمسك باتفاقية السرية الخاصة بمجلس الوزراء وحتى التدمير الحذر للورق النشاف بعد الاجتماع.

بينما كان يقلب في الأوراق غير مكترث، إذ لم يبدُ أنها تحتوي التقرير الذي كان يبحث عنه، ارتفعت دقات قلب روبرت فجأة. التقط ثلاث أوراق من مذكرات مجلس العموم مثبتة مع بعضها بمشبك. أخذها إلى النافذة كي يتفحصها عن قرب أكثر. لا يساوره شك

بشأن تلك الأوراق. المكتوب في تلك الورقات بالتحديد كان قائمة الأرقام والشفرات المكتوبة بحروف كبيرة والطلاسم التي ظل متحيرًا بشأنها لساعات ليلة البارحة. لا يوجد احتمال سوى أنها نُقلت من مفكرة أويسيل، والذي نقلها وزير الداخلية نفسه. يعرف روبرت خط يده تمام المعرفة. نظر إلى الملاحظات على الجنب، وكانت مكتوبة أيضًا بخط الوزير. من الواضح أنها كانت ترجمة تقريبية للكلمات المشفرة، كما أنها متعلقة بالمفاوضات على القرض. تلك المعلومات بعينها التي ما كانت تقدَّر بثمن لو كانت بحوزة الحكومة البريطانية في أثناء المفاوضات مع أويسيل.

أعاد روبرت الأوراق في الملف ووضعها مرتبة في الدرج وعاد متباطئًا إلى النافذة. لا يكاد عقله يصوغ الكلمات: «ما الذي يعنيه هذا؟» لكن ما معنى هذا؟ متى كتب وزير الداخلية تلك النسخة؟ كيف وصلت المفكرة إليه؟ بالطبع إن رآها بعد موت السيد أويسيل، فهذا تفسير منطقي. لكنه يعرف الشفرة؛ تلك الشفرة التي لا تعرفها أنيت، والمؤكد أن العجوز — الكتوم بشأن كل شيء — سيخفي سر شفرته الخاصة عن كل ما عداه. لكن وزير الداخلية يعرفها … وهو ليس خبيرًا. هل أمر الخبراء في وزارة الداخلية بفكها؟ لكن لو فعل، لعلم بلاكيت بالأمر لا محالة.

ثم جينكس — لكن لا، أحس روبرت أنه لن يستطيع مقابلة وزير الداخلية الآن. يجب أن يفكر لبعض الوقت. كان يحدق عابسًا في مشهد ساحة القصر لما فُتح الباب. التفت روبرت متفاجئًا. قال لنفسه لما رأى أن الداخل ليس وزير الداخلية: «الحمد لله.» لم يكن غير سكرتير الخدمة المدنية لدى الوزير، إنه شاب لطيف يتحلى بخصلة مرح ويكأنه يقول «أنا لست قلقًا» وعادة ما يروق لروبرت. اسمه برترام بريجز.

قال بعفوية: «سيستمر اجتماع مجلس الوزراء لعصور. اتصل مورتيمر لتوه. يقول الوزير لا تعطل نفسك بالانتظار. سيراك بعد العشاء.»

لمح وجه روبرت لما كان يسير نحو المكتب. «بربك يا ويست، هل أنت مريض؟ حالك لا يسر. هل آتيك بشيء؟»

«لا، شكرًا لك. أنا بخير. أظن أنني منهك وهذا الجو الحار. أرى أن أذهب إلى الشرفة وأستنشق بعض الهواء المنعش.»

جلس بريجز على حافة المكتب وأخذ يهز ساقه، سأل: «أنت تساعد في قضية أويسيل، أليس كذلك؟»

قال روبرت بعفوية: «يبدو أنها وقعت في طريقي، ولكني أظنك تعلم بشأن القضية بقدر ما أعلم.» وكان ينظر في عين بريجز كي يرى كيف استقبل تلك الكلمات. هل نما إلى علمه شيء بشأن مفكرة أويسيل بأي حال من الأحوال؟

قال بريجز: «ليس أنا. أنت تعلم كيف هو الوزير، إنه شديد الكتمان. أنت من المقربين له، يا لغضب جليسون من ذلك! لقد صعَّب عليك الأمر تمامًا. وأتساءل ماذا سيحدث إن ترقيت وأصبحت وزيرًا للداخلية قبل أن يتقاعد. هناك شيء غريب في السياسة هذه الأيام، أي شخص يمكن أن يصبح أي شيء.»

«شكرًا، ولكن ربما يصبح هولدزوورث هو الوزير يومًا ما.»

«لن يُحدث هذا فرقًا، سواء كان شيوعيًّا أو محافظًا، يتولى من هم على شاكلة جليسون مقاليد الأمور. إذا كانت لديهم خبرة طويلة في السياسة، فإن الوزراء لا يريدون إزعاج أنفسهم ويتركون الأمر لنا. وإذا كانوا حديثي عهد بها، فإن عقدة النقص لديهم لن تسمح لهم بمعارضتنا، لذا ذوو الخبرة الطويلة في الخدمة المدنية يحركون تلك الدمى.»

«ربما تندلع ثورة يومًا ما كما تعلم.»

«ما الفرق الذي ستحدثه غير أن الثوريين لن يتجرَّءُوا على خفض رواتبنا؟ سيُضطرون إلى دفع ضعف الراتب لنا ويتوسَّلون إلينا كي نستمر في القيام بأي عمل كنا نقوم به.»

صاح ويست! «اللعنة عليك يا بريجز، وعلى أصحاب الخدمة المدنية المتعجرفين المعتدِّين بأنفسهم!»

«ليس تعجرفًا. لكننا فقط نستمر في الاضطلاع بعملنا. أنتم السياسيين تعتقدون أنكم تستطيعون الارتجال مع الحكومة مثل ارتجال موسيقى الجاز على البيانو، وأنكم إذا قلتم شيئًا في خطبكم فسيحدث من تلقاء نفسه. وهذا لن يحدث. كثيرة هي النماذج والاستفتاءات ولا يُحصى عددها.»

قال روبرت عابسًا: «سأذهب وآتي بذلك الشراب»، وشد الباب بقوة خلفه.

عاد روبرت إلى الشرفة وحاول التفكير في الآثار المترتبة على اكتشافه الجديد. يرتفع ضباب خفيف من النهر. وذهب الضيوف بعد احتساء الشاي. لا يوجد غير حفنة من الناس يروحون ويجيئون بطول الرصيف الطويل المرصوص بالأعلام إذ يحاولون خفض أوزانهم الرهيبة. كل شيء هادئ وجميل. وكأن جسر ويستمنستر يوحي بالاطمئنان الكبير وهو يقف شامخًا ومتحملًا حركة المرور التي لا تتوقف. وكأن قصر لامبيث بأحجاره السكسونية يهمهم برسالته المطمئنة:

«تبقى الحياة كسابق عهدها.»

لما مد روبرت رأسه من فوق الحاجز ومدَّ بصره إلى أمواج المياه المتلاطمة تحته، لم يكن في حالة يقين. كانت أسباب إيمانه بالطبيعة البشرية تنهار. ومثل السياسيين الشباب في تلك الفترة، لم يفكر روبرت ويست البتة في مسألة الدين إلا إذا تصادف وطُرح باعتباره مسألة سياسية، كأن تطلب كنيسة مالًا من أجل بناء المدارس أو تطلب كنيسة أخرى مشروع قانون من أجل منع شخص ما من ارتكاب فعل ما. تدرب روبرت على أعراف المدارس العامة الملحق بها كنيسة صغيرة إجبارية، ومِن ثَم تشرَّب المبادئ التوجيهية لحياته الأخلاقية إذ تقول إن هناك أشياء معينة لا يفعلها أناس معينون. لا تنطبق كل الأعراف على الجميع، ولكن يجب على المرء أن يتمسك بما ينطبق على من هم على شاكلته. قد لا يستطيع الوزير القيام بأعمال ربما يتغاضى عنها الأعضاء غير المنتمين إلى الحكومة.

ما الذي كان يفعله وزير الداخلية؟ هل يمكن أن يكون هو اليد الخفية وراء لغز قتل جورج أويسيل في الغرفة جيه وعملية السطو على شقة أويسيل التي راح جينكس ضحية لها؟ تفتقر تلك الصورة المخيفة إلى العديد من الأجزاء، ولكن هل سيظهر وزيره فيها إن اكتملت تلك الصورة؟

هل ينبغي أن يتصل ببلاكيت كي يأتي ويتحدثا مرة أخرى؟ أتت ردة فعل روبرت الغريزية على خلاف ذلك. بات بلاكيت حليفًا ودودًا الآن، ولكنه قد يُضطر إلى تنفيذ واجبه، سواء كان ذلك وزيرًا أم غيره.

هل يبحث عن سانكروفت ويتناقش معه في تلك المسألة؟ كان سانكروفت مخلصًا ويمكن ائتمانه على السر، ولكنه مستقل في تفكيره. ولأنه صحفي مهتم بما يجري في أروقة البرلمان، فإنه يقفز إلى الاستنتاجات ويتمسك بها. أراد ويست أن يتحدث في تلك المشكلة ولكن من دون الوصول إلى استنتاج. إنه يخشى الاستنتاجات المحتملة، لا سيما الاستنتاج الذي من المؤكد أن يقفز إليه سانكروفت غير الموقر.

دون هو الجدير بتلك المحادثة. يمكنهما تناول العشاء معًا على الطاولة نفسها التي جلسا عليها ليلة الاغتيال ويتحدثان في القضية كلها.

عندما هاتف شاو ووعده بأن يأتي من فوره، عاد ويست إلى حالة ضيق الصدر إذ ظل يروح ويجيء في الشرفة التي بدأت تمتلئ الآن بالضيوف من أجل العشاء. تمكن من الفرار كي لا ينضم إلى حفل مقابلة النجمة السينمائية الجديدة روزالين راي إذ كانت تعقد جلسة صغيرة في نهاية الشرفة الخاصة بالنبلاء، وأن يهرب من حضور حفل مكتب استعماري يضم محامين وتربويين من غرب أفريقيا.

لم يطع وكيل الوزارة النشيط الذي قرَّر أن يأتيَ ويتلطف مع «مرءوسيه المختلفين معه في العرق»، فقال: «دعك مني يا روري. أعلم أنه ينبغي أن أحضر وأكون ودودًا، ولكني لم أعرف البتة ما يقال لأناس تابعين إلى الإمبراطورية غير «أنها إمبراطورية قديمة، أليس كذلك؟» وغالبًا هم لا يعتقدون ذلك. وفي قرارة أنفسهم، يشعرون أنهم مضطهدون وأننا لا نؤدي واجبنا تجاههم، ومِن ثَم يصبح الوضع غير ملائم. أنا لا أعرف شيئًا عن مقايضة الإبر بحبوب الكاكاو، لذا أخرجني من ذلك الموقف.»

أشار إلى روبرت عدد كبير من الناس وهو يروح ويجيء منتظرًا شاو ولا يستقر به المقام لفعل شيء آخر. لا تزال قضية أويسيل هي محور الحديث الأساسي. لا يزال الناس يتمتعون بروح الدعابة في تلك القضية ويستاءون كذلك من الفوضى التي يُحدثها الأمريكيون. ينبغي أن يتفهم الأمريكيون أن الشرطة لا تدخر جهدًا. لكن روبرت يعلم — وكذلك الحكومة تعلم — أن تلك الأجواء لن تطول أكثر من أسبوع. بعد ذلك سيُضطرون إلى عقد جلسة نقاش وإصدار بيان ومِن ثَم ينتشر الخبر في العالم. استاء روبرت من تلك الأفكار. لكن وزير الداخلية العنيد والمتسلط والتقليدي ينبغي أن يوضع تحت مجهر الشك في تلك القضية — ووجد روبرت نفسه لا يكاد يصدق، لكنه أحس بفضول تجاه رئيسه أكثر مما شعر به في كل تلك السنوات منذ أن عرَفه. لم يَقدُره حق قدره منذ طفولته كما فعل مع تمثال الملكة فيكتوريا في ميدان بلده الأم. هل التمثال البشري واجهة تخفي وراءها شيئًا غريبًا إلى أقصى حد؟

بدأت مصابيح غرف الطعام المطلة على الشرفة تضاء. كانت الساعة التي تسبق العشاء في ليالي شهر يونيو في الشرفة من مصادر البهجة في حياة أعضاء البرلمان. في ذلك الوقت، ليس مطلوبًا من الناخبين تحقيق ما يرجى منهم بطريقة تثير الإعجاب. إنه الوقت المخصص للأصدقاء المقربين والحفلات البسيطة الودية. أولى روبرت ظهره إلى جدار مسكن رئيس المجلس، وذلك الجدار يسد أحد أطراف الشرفة، نظر إلى الممر المرصع بالأعلام ويبلغ طوله ربع ميل. تلطفت ألوان الجدران المليئة بالزخارف القوطية في ضوء الشفق. أمست مياه النهر متشبعة باللون الأزرق المعكوس من السماء وقت الغروب. خرج أعضاء البرلمان لاستنشاق الهواء. بدأ الضيوف في الوصول. أقيمت عدة حفلات عشاء. أثير الاهتمام في المكان لما ظهرت «بنات الذوات» للمرة الأولى وهن يرتدين الفساتين الطويلة ذات الأقمشة المخملية والدانتيل التي تلاعب الأحجار القديمة. أضفت المعاطف المخيطة من التويد التي يرتديها الأعضاء أبناء عمال المناجم لمسة من التعايش. جمع المكان بين كل الأطياف وكلهم يتحدثون الإنجليزية وكلهم يتحلَّون بالود.

لم يكن مظلمًا سوى نوافذ الغرفة جيه. لم يُقَم حفل عشاء فيها منذ ليلة وقوع جريمة القتل. لسوء حظ روبرت أنه يعرف السر، ويرى تلك الغرفة المظلمة بمثابة رمز للعفن المكدس تحت تلك الحياة التي ظاهرها البهجة. لم يكن الحال في إنجلترا في هذه الأيام كحالها حين بُني هذا المكان وافتتحته الملكة فيكتوريا. أحس بضآلة القدر الذي يعرفه عن العالم خارج جزيرته، وبالقوى العظمى التي تكتسح عالمه المحمي. روسيا وأمريكا — القوتان العظميان في الشرق والغرب — وبينهما إنجلترا صاحبة الأعراف والطرائق القديمة والماضي الباهر. لكن ماذا لو لم تصمد تلك الأعراف وكان الحصن مليئًا بالثغرات؟

لم تكن المرة الأولى التي يحنق فيها روبرت ويست على التعليم الحكومي الذي لم يُعطه مفتاحًا يدخله على هذا العالم الجديد. يبدو أن بعض أنصار حزب العمال — لا سيما الشباب منهم — يعرفون ما كان يجري. لكن هل هو مختلف كل هذا الاختلاف عن ستيوارت أورفورد الذي يبكي على أطلال الزمن الغابر ويبكي على الأعراف التي يرى أنها تُنتهك؟

انقطع حُلم يقظته بوصول بطاقة من دون شاو. قرَّر ألا يأخذ شاو إلى قاعة هاركورت على أية حال. سيتناولان العشاء في غرفة الغرباء المرحة التي تعج بالضوضاء، تلك الغرفة الرثَّة المزدحمة الممتلئة بالدخان حيث يعزم أعضاء البرلمان ضيوفهم على أرخص الوجبات في ويست إند. قال روبرت شارحًا: «أنا لست وضيعًا يا دون. ولكني أريد أن أبدوَ مرحًا قدر الإمكان.»

تشدق شاو بصوته اللطيف: «أَخرِج كل ما في صدرك. لن أقاطعك.»

قصَّ عليه روبرت القصة كلها بسرعة كما يعرفها، وترك طعامه يبرد في الطبق غير مبالٍ به. لم يبدر من شاو أي إشارة على الاندهاش. لما انتهى بوب، قال بعد نفاد صبر: «وماذا بعد؟»

قال دون: «يبدو أنك عزمت على التفكير بصورة سيئة عن رئيسك»، ولم يزد على ذلك.

«لكن يا دون، اللعنة على كل هذا، هذا ما لا أريد أن أفعله، ولكن هل هناك تفسير آخر؟»

«أظن أن لي رأيًا مختلفًا يا بوب، دعني أتطرق إلى تلك النقاط وسأحاول أن أطرح حالة محتملة لوزيرك.»

«جيد. هذا ما رجوت أن تفعله. لنبدأ بالنقطة الأولى. جينكس — حارس وزير الداخلية — أعاره الوزير مباشرةً إلى أويسيل على الرغم من مخالفة ذلك لكل اللوائح.»

«تلك النقطة سهلة. على حد قولك، فعل الوزير هذا كي يُطمئن أويسيل الذي لم يساوره شك بشأن عَلاقة جينكس السرية مع وزير الداخلية. كان السيد جورج جليسون أيضًا على علم بذلك، وقد أجاز تلك الفكرة حتى لو لم يكن موافقًا عليها.»

قال بوب: «كلامك صحيح. لننتقل إلى النقطة التالية. يعرف جينكس المستند الأساسي ويسرقه كي يأخذ نسخة منه.»

«ليس لديك أي دليل على أنه نسخه من أجل وزير الداخلية. بل على العكس تمامًا، إذ من الواضح أنه كان قادرًا على الحصول على نسخ من مصادر أخرى. وهذا يتركنا مع سؤالين ينبغي أن نحلهما؛ لصالح مَن يعمل جينكس، ومن أين وصلت تلك النسخة إلى الوزير؟»

دوَّن روبرت هاتين النقطتين على ظهر ظرف. قال: «سنتطرق إلى هذين السؤالين فيما بعد، لكن يجب أن تعترف أنه من الغريب ألا يكون لدى جينكس غير فرصة واحدة لنسخ صفحات المفكرة عندما تمكن وزير الداخلية من جعل أويسيل يكسر قاعدته بشأن الطعام للمرة الأولى.»

أحضر شاو لنفسه المزيد من البطاطس، وقال: «بالتأكيد تلك الفرصة سنحت لجينكس، ولكن ليس بالضرورة أن يعنيَ ذلك أن وزير الداخلية تعمَّد توفير تلك الفرصة له إذ ينالك الحظ الأوفر في تلك النقطة. إذا فعل جينكس فعلته لصالح مجموعة تنافسية، فربما واتته تلك الفرصة بمحض الصدفة.»

«لننتقل إذن إلى النقطة التالية؛ اغتيل أويسيل وسُطِي على شقته وقُتل جينكس لما عاد من مهمة تصوير المفكرة. أين تتقابل كل تلك الأمور؟»

«حسنًا، إنها لا تتلاءم مع نظريتك بشأن وزير الداخلية. لو كان هو الرأس المدبر، لكانت تلك الأفاعيل دأبه على الأقل. أعود إلى نظريتي الأساسية يا بوب، وهي أن مجموعة أخرى دبرت لتلك المسألة. بالتأكيد يمكنك الحصول على معلومات عن ذلك.»

هزَّ ويست كتفيه. قال: «تقترض الحكومة تلك المبالغ الضخمة من بضعة مصادر، ولا يبدو في تلك الحالة أن المصادر الأخرى كان لديها أدنى اهتمام بالمسألة. وعلمت من مورتيمر سكرتير رئيس الوزراء أنهم حاولوا مع المجموعة الوحيدة المحتملة ولكنها لم تأتِ إلى المفاوضات. بالطبع تلك المعلومات سرية لأقصى درجة. وإفشاء تلك المعلومات سيضر بريطانيا.»

أجاب دون: «إذن، وصلنا إلى النقطة الخامسة والأخيرة. إنها العثور على بعض صفحات من المفكرة بين أوراق وزير الداخلية وبخط يده. والسؤال، من أين وصلته تلك الصفحات؟ هل كانت المفكرة بحوزته لما عُثر عليها مع جينكس؟»

«لم تخرج من خزانة بلاكيت طَوال الوقت. أعلم هذا.»

«ولكن أنت أخذتها ليلة، فلماذا نفترض أن الوزير لم يستعِرها؟»

«أنا متأكد من أن بلاكيت سيخبرني لو كان الوزير أخذها.»

«هل بإمكان أي مسئول آخر أن يأخذها من أجل الوزير إذا طلبها على وجه الخصوص؟ هل من طريقة تعرف بها تلك المعلومة؟»

«يمكنني أن أتصل ببلاكيت. يمكنني أن أشرح له المسألة بأريحية تامة. سأذهب وأتصل به الآن.»

لم يُطلْ ويست غيابه. لما عاد، كان بحوزته أخبار أن وزير الداخلية طلب أن ينظر في أي أوراق وُجدت مع جينكس. أُرسلت الأوراق إليه وأعادها بعد ساعة مكتوبًا عليها عبارة التعزية بخط يده لزوجة جينكس، وورقتين من فئة خمسة جنيهات كي تُضَمَّن عندما ترسل وزارة الداخلية الأموال التي وُجدت في محفظته إلى زوجته. «بالطبع هذا شيء طبيعي أن يفعله، ومِن ثَم لم يذكره بلاكيت لي. من الواضح أنه لم يفكر في أي شيء. ولكنه يؤكد أن وزارة الداخلية لم تطلب خبراء من أجل فك تلك الشفرات.»

قال دون مفكِّرًا: «الشيء الغريب في نظري هو لماذا يعيد وزير الداخلية تلك المفكرة في حين أنه يعلم أهميتها. بالطبع يمكنه أن يحتفظ بها في عهدته الخاصة إذا أراد ذلك، أليس كذلك؟»

«نعم بالطبع. لا سيما إذا تحدث مع جليسون. والآن، لماذا أعادها من دون أن يقول شيئًا؟»

سأل شاو: «ألا تعتقد أنه من الأفضل أن تقابل الوزير وتناقش معه المسألة بكاملها؟ ربما يكون لديه تفسير بسيط للغاية لما يبدو غريبًا في ظاهره. في الحقيقة، قد تكون المسألة بسيطة للغاية لدرجة أنه لا يرى السوء فيما ستبدو عليه الأمور إذا فهمت العامة المسألة بالطريقة التي فهمتها بها. وإذا انخرط هولدزوورث وأفراد شرطة سكوتلانديارد في تلك المناقشات، فقد يتوصَّلون إلى شيءٍ مما توصلت إليه. تخيَّل أن تنتشر كل تلك المعلومات في المجلس من دون أن يدرك الوزير التفسيرات التي تُبنى عليها!»

أجاب ويست: «نعم بالطبع، يجب أن أقابله، ولكن هل سيناقش المسألة معي؟ إنه يغضب بسرعة شديدة إن اعتقد أنني أُحاججه في شيء فعله، على الرغم من أنني أقرب إليه من أي شخص في هذا المكان. لا أظن أنه سيسمعني حتى.»

قال شاو بعد نفاد صبره: «إذن، عليك الذَّهاب إلى شخص يجعل الوزير يستمع إليه.» أحسَّ شاو بالضجر من موقف ويست وبلاكيت إذ يعتبران أنه من الطبيعي إحاطة وزير المملكة بهالة من القداسة وأنه يجب مقابلة التقلبات المزاجية لدى رجل عجوز على أنها مسألة ذات أهمية حقيقية.

قال روبرت: «أول شيء سأفعله في الصباح هو أني سأقابله، وإن وجدت جليسون معه فسأقف عند عتبة الباب ولن أدخل. وإذا سافر إلى مدينة إيشر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، فسأعلق في عتبة باب سيارته إذا لزم الأمر وأنادي عليه من النافذة. ليس بوسعي أكثر من ذلك.»

نظر شاو منفعلًا بعواطفه تجاه تفكير صديقه الوسيم. «في الحقيقة، لا أظن أنه سيلزم أن تقوم بتلك الإجراءات المضنية، ولكن يجب أن توقفه وتجعله يستمع إليك. يبدو لي كمن يجلس بهدوء على برميل من البارود ويخشى أن ينفجر من تحته في أي لحظة.»

«تلك المسألة ستأخذ في عقبيها الكثير من الأشياء الأخرى. يا إلهي، ما تلك الحياة، ويظن الناس أن مجلس العموم ملاذ هادئ لكبار السن والعجزة! بعد ما مررت به، ستبدو العراق هادئة نسبيًّا، أليس كذلك يا دون؟»

الفصل الثالث عشر

بعدما ذهب شاو، ولا تزال الجلسة منعقدة في المجلس، وألزم ويست نفسه بالبقاء حتى نهاية تجمع موراي جراي الذي ظل قائمًا لبعض الوقت في غرفة الطعام المجاورة للغرفة جيه. لما دخل، كان كينيرد في الغرفة وأشار إليه من الطرف الآخر للطاولة. لم يكن روبرت يشعر بالانتشاء على وجه الخصوص، ولكنه كان في مزاج للشرب، بل شرب الكثير. احتسى النصف المتبقي من زجاجة الشمبانيا ولم يتوقف عن شرب كل ما يوضع أمامه. دقت الأجراس إشارة إلى انفضاض المجلس، ولكن لم يلحظ أحد من الموجودين في هذا الجمع. دقت ساعة منتصف الليل حين استطاع رئيس خدم الضيافة التنبيه على صاحب التجمع أنه لم يتبقَّ سواهم في المبنى.

لما خرجوا إلى الطرقة، بدأ خدم الضيافة يُطفئون الأنوار من خلفهم. وعندما خرجوا إلى ساحة القصر، هُرع الباقي من الموظفين إلى الخروج. انتظر ويست قليلًا بجانب سيارة المضيف يتحدث عن أعمال اليوم بعبارات غامضة.

فجأة، لما انطلق موراي جراي بسيارته وكان ويست يعبر الساحة، تذكر أنه نسي حقيبته في الغرفة التي كان فيها التجمع. ارتعب لما أدرك أن الحقيبة تحتوي على كل الملاحظات التي اعتنى بتدوينها عن قضية قتل أويسيل. يستحيل أن يتركها في ذلك المكان حتى إن كان الجميع قد ذهب. الفكرة الوحيدة التي سيطرت على عقله المخمور هي حتمية استعادة تلك الحقيبة بأي ثمن.

لما تحدث مع الشرطي الواقف عند المدخل، هُرع إلى دخول المجلس وصعد السُّلَّم ومنه إلى الرواق المركزي. لا يوجد مكان أغرب من مجلس العموم حينما يذهب الجميع. في غضون نصف ساعة بعد النبض بالحياة والحركة، يُهجر المجلس ولا يوجد على الأرض في الممرات الطويلة سوى مصابيح رجال الإطفاء ما يزيد من عمق الظلال على الجدران

العالية. تلمَّس طريقه وهو ينزل على السُّلم إلى الأبواب المترنحة التي تؤدي إلى طرقة قاعة هاركورت. المكان تخلله ضوء خافت من النهر ثم تحول إلى ظلام دامس. لم يتذكر روبرت مكان المفاتيح لكنه فكَّر أن يتلمَّس طريقه إلى الغرفة إتش التي تجمع فيها جمع موراي جراي. تساءل هل الشرطي يظل في خدمة حراسة الغرفة إي طَوال الليل أم لا. كانت أوامر جليسون واضحة بألا تُترك من دون حراسة، ولكن ربما يكفي أن تُقفل الأبواب ويقف الشرطي الحارس عند المدخل الخارجي.

لما تلمَّس طريقه بطول جدران الطرقة، انتاب روبرت إحساس غريب بأنه ليس بمفرده. بدأت دقات قلبه تتسارع.

قال بصوت حاد: «هل أحد هنا؟ هل يوجد أحد هنا؟»

لم يردَّ عليه أحد. إذن، ربما لا يكون الشرطي.

حتى إن كان هناك أحد لا يزال في عمله، فلن يقف في الظلام الكالح. مشى إلى مسافة أبعد قليلًا بهدوء تام، وأخذ يتحسَّس علبة الثقاب لديه. وبحركة سريعة، أشعل عود ثقاب. أشعله بسرعة كبيرة. لَّما اشتعل رأس العود، طار العود من يده. ولكن في جزءٍ من الثانية في أثناء سقوط العود، أحدثت النيران قوسًا من الضوء الخافت، وارتعب روبرت لَّما رأى في هذا الضوء حذاء رجل له شريط تزيين من عند ساق السروال. شخص ما يقف على مسافة لا تزيد على ثلاث ياردات منه.

قال مرة أخرى: «من هناك؟» تسلل إلى قلبه شعور بأن أحدًا كان يتحرك بهدوء تام. أدخل أصابعه في علبة الثقاب كي يُخرج عودًا آخر.

قال بصوت عالٍ: «أوه، اللعنة، لقد كان آخر عود.»

عندئذٍ، لعن نفسه على هذه الحماقة. لقد أعطى أحدهم معلومة قيمة لما تفوَّه بتلك الكلمات. لا بدَّ أن أحدًا بالمكان. ذلك الحذاء بداخله قدم.

خوف مميت أيقظ روبرت من سكرته. أيًّا ما كان الواقف في الطرقة، فهو ليس صديقًا ولا شرطيًّا، وإلا فلتحدث إليه. من ذلك الواقف، وما جنسه، وهل يوجد غيره؟ ما الذي يفعله في الظلام؟

في تلك اللحظة، شعر روبرت متيقنًا أن الدليل إلى قاتل أويسيل — وربما القاتل نفسه — على بُعد خطوات منه وفي أشد المباني حراسةً في لندن وبينه وبين الشرطة مسافة ٢٠٠ ياردة. كاد يصاب بالجنون.

إن وصل إلى إحدى غرف الطعام الصغيرة، فربما تقع يده على مفاتيح الأضواء. كل تلك الغرف على صف واحد مع الغرفة جيه التي يعرفها عن ظهر قلب. تحسَّس روبرت

طريقه بحذر بالغ وهو يشق طريقه بجانب الجدار وكاد قلبه ينخلع من مكانه من قوة ضرباته. ففي أي لحظة، قد تقع أي كارثة في الظلام مثل العيار الناري الغامض الذي قتل جورج أويسيل في تلك الغرفة الفارغة.

وصل إلى الغرفة جيه وحاول فتح الباب خلسةً. وجد الباب مقفلًا. إذن، الشرطي ليس واقفًا في خدمته. أم يا تُرى هل عاد صاحب الحذاء إلى داخل الغرفة؟ تحسَّس طريقه حذرًا إلى الباب التالي للغرفة إتش. انفتح الباب لما أدار مقبضه. تنفس الصُّعَداء لما عثر على المفتاح وأضاء المصباح. لكن حتى مع فتح الباب، كان جزءًا كبيرًا من الطرقة لا يزال مظلمًا. ومِن ثَم لا يرى أحدًا. إنه من يقف في النور، ما يجعله هدفًا سهلًا لأي عدو يتربص به في الظلام.

وجد عُلبة ثقاب متروكة على الطاولة. أشعل روبرت عود ثقاب ومشى بطول الطرقة. بالطبع لن يجد أحدًا في ذلك الطريق. ولكن على الأقل هذا يعني أنه لن يدخل في قتال. عاد إلى الغرفة إتش. لا بدَّ أن يُحضر الشرطة إذ لا تزال هناك فرصة لئلا يتمكن صاحب الحذاء من الهرب.

لما عاد إلى الغرفة إتش، كاد أن يصرخ. رأى وجهًا يضغط على النافذة. لكنه اختفى بمجرد أن رآه. وبحركة خاطفة، أطفأ روبرت المصباح. فهو في أمان أكثر في الظلام. تحسس طريقه إلى النافذة ونظر إلى الشرفة المكشوفة حذرًا. الظلام يُخيِّم على المكان كله؛ ولا تومض سوى مصابيح جسر ويستمنستر على مسافة بعيدة. عاد إلى الباب وفتحه على حذر. نسمة من الهواء المنعش داعبت وجهه. شخص ما فتح الباب الذي يفتح من الطرقة على الشرفة.

أضيء مصباح يدوي وسُلط على وجهه. قال روبرت: «الحمد لله. من أين أتيت؟» كان شرطيًّا.

«كنت في الشرفة حين أضيئت الغرفة إتش. ظننت أنها الغرفة جيه، وسررت لما رأيتك هنا يا سيدي، ولكن يبدو أنك مرتعب حقًّا.»

«هل أنت واقف في الخدمة طَوال الليل؟»

«نعم يا سيدي. إنها الأوامر بشأن الغرفة جيه. لم أتركها من قبل يا سيدي، ولكني أشعر بشيء غريب ... شعرت أن الغرفة تدور. وأحسست أن لا بدَّ من الذَّهاب إلى الشرفة وأشم بعض الهواء ... أنا ...» صدرت من الشرطي حركة وكأنه يمسك شيئًا في الهواء ثم خرَّ عند قدمَي ويست.

همس ويست: «اللطف يا رب!» لم يتوقع المرء مطلقًا أن يرى شرطيًّا مريضًا. أفكار مرعبة عصفت بعقل ويست. هل تخدر الشرطي؟ هل يحاول أحد ما أن يخدر الحارس؟

ترك الشرطي ممددًا على الأرض وتلمَّس طريقه حتى وصل إلى الهاتف في الغرفة التي تركها لتوه. اتصل بالرقيب بورن. لم يردَّ عليه أحد. وصل إلى غرفة الشرطة عند مدخل الأعضاء. رد عليه صوت مبهج. وكأن الصوت شريان حياة ممدود من عالم سليم العقل.

لما كان روبرت منتظرًا حضور الشرطة، عاد إلى الشرطي الممدد على الأرض. أشعل المصباح اليدوي المعتاد وأرعى سمعه. كان كل شيء ساكنًا كأنهم بين القبور إلى أن سمع تسارع وقع أقدام رجال الشرطة وهم ينزلون السُّلَّم. هل تمكن صاحب تلك القدم من الهرب؟ بالتأكيد كانت أمامه كل الفرص، ولكن لا بدَّ أنه يعرف المكان أفضل من روبرت نفسه. تلك نقطة مهمة ينبغي تذكرها كي يقولها لبلاكيت.

عندما وصلت الشرطة، ترك روبرت شرطيًّا مع الشرطي المريض وبحث مع الباقين في المطابخ وغرف الطعام. فتحوا الغرفة جيه وأضاءوا كل المصابيح في المكان، ولكن لا يوجد أحد.

اتصل روبرت على بلاكيت في منزله الكائن بمدينة كامدن وطُلب منه أن يبقى في مكانه إلى أن يصل المفتش. حينئذٍ تمكَّن الشرطي الذي يرتدي شارة الإسعاف من إفاقة الشرطي الفاقد للوعي بإعطائه جرعات كبيرة من الملح والماء. ما شغل روبرت هو عدم إفشاء ما حدث في تلك الليلة قدر الإمكان. هل الشرطي بحاجة إلى أن يُنقل إلى المستشفى؟

كان المسعف يعطيه جرعة من البراندي، إذ قال: «لا داعي. إنه بخير حال الآن. هل تناول بعض المخدرات يؤثر في رجل مثلك يا روبنسون؟»

الحمد لله على تفادي خطر تسريب تلك الأحداث إلى الصحافة! انتفض ويست لما تخيل الصحف الصباحية إن تسربت أخبار تلك الليلة. لَمَّح إلى كبار رجال الشرطة بضرورة التكتم على تلك الأحداث. «ينبغي أن أقدم تقريرًا إلى الحكمدار يا سيدي.»

قال روبرت: «نعم بالطبع، لكن احرص على ألا تتسرب تلك الأخبار إلى الصحافة. أنا متأكد من أن المفتش بلاكيت سيهتم بتلك المسألة كثيرًا.»

حين وصل بلاكيت، كان الشرطي بخير حال ولكنه لا يزال مصدومًا وشديد القلق من مغادرة الغرفة جيه. قال إن خدم الضيافة دائمًا ما يتركون فنجان قهوة له أو لأي شرطي يحرس تلك الغرفة كل ليلة. كلا، إنه لم يرَ خادم الضيافة الذي ترك القهوة في هذه الليلة. لقد وُضع الفنجان على رف الخدمة خارج الغرفة جيه. لقد شربه قبل أن يدخل إلى

الغرفة وأُخذ الفنجان. بعدما شرب القهوة، دخل إلى الغرفة جيه وبدأ يشعر بالتعب. كلا، لم يشعر بالتعب من فوره، بل اعتراه التعب رويدًا رويدًا. اعتقد أن المكان يضيق به ومِن ثَم قرَّر أنه لا ضرر من الذَّهاب إلى الشرفة كي يتمشَّى ويبقي عينه على الغرفة جيه من مكانه.

سأل بلاكيت: «هل رأيت أحدًا في المكان؟»

«كلا أيها المفتش. كان السيد ويست والسيد موراي جراي آخر من خرجا بعد انتهاء التجمع، ولم يستغرق خدم الضيافة أكثر من دقيقتين بعدهما.»

«هل احتسيت قهوتك قبل أن يغادر خدم الضيافة؟»

«نعم يا سيدي. قال لي أحدهم «أسرع في احتساء القهوة؛ إننا نريد الفنجان»، ومِن ثَم شربته بسرعة.»

تبادلت النظرات بين بلاكيت وويست. «أي خادم ضيافة قال ذلك؟»

«إنه ذلك الشاب الصغير، الأصغر فيهم صاحب الوجنتين المكتنزتين، لا أعرف اسمه.»

قال ويست: «إنه ليس الخادم المسئول عن الغرفة جيه. هل كان الخادم الذي وضع لك القهوة على الرف أيها الشرطي؟»

«لا أعلم يا سيدي. لا أعلم من وضع الفنجان. الشاب الصغير أخذ الفنجان يا سيدي، لكن أحدهم أحضره.»

قال ويست لبلاكيت: «ينبغي إجراء مزيد من البحث في ذلك المطبخ.»

قال بلاكيت: «لقد بحثت كثيرًا هناك ولكني لم أحرز تقدمًا كبيرًا، ولكن ما حدث ينغص عليَّ حياتي. على أية حال، لا يمكننا فعل المزيد الليلة.» عندئذٍ كرر تعليمات ويست لرجال الشرطة بألا يقال شيء مما حدث في هذه الليلة باستثناء التقرير الذي سيُرفع إلى الحكمدار.

بعدما أُرسل الشرطي المريض إلى المنزل ووُضع حارس آخر على الغرفة، ذهب ويست كي يبحث عن حقيبته وأحسَّ بالراحة لما وجدها حيث تركها.

لما كان بلاكيت عائدًا معه إلى شقته، قال: «لا يخفى أن هذا الشرطي خدَّره شخص أراد الدخول إلى الغرفة جيه.»

«نعم، لكنه لم يُحسن فعلته. أظن أنه لم يُرِد سوى إعطائه كمية تكفي لجعله يغطُّ في النوم ريثما يفعل ما يريد، بحيث لا يستيقظ قبل أن يحل الصباح وتثار التساؤلات. من الواضح أنه لم يقدِّر الكمية الكافية التي يحتاجها رجل ضخم مثل روبنسون حق التقدير.»

«لا بدَّ أن خُططه فشِلت لأنه بدلًا من أن يغطَّ الشرطي في النوم داخل الغرفة، تمكَّن من قفل الباب من خلفه والذَّهاب إلى الشرفة، ثم أشغل نفسه بالذَّهاب والإياب لفترة.»

«نعم، ربما، لكن السؤال الذي نريد الإجابة عنه هو قدم مَن التي كانت في الحذاء الذي رأيته؟»

«لا بدَّ أنه شخص يعرف المداخل والمخارج في المكان جيدًا — خادم ضيافة، أو ربما ... عضو.»

«هل ذهب كل الموجودين في الجمع قبلك؟»

«نعم، أعتقد أنني آخر من خرج مع موراي جراي. لقد خرجنا جميعًا بشكل غوغائي كما تعلم ... كذلك ... إمممم ... لا أود القسم على كل ما كان يحدث وقتئذٍ. لقد شربنا كميات كبيرة من الشراب. موراي جراي ليس ممن يحتاطون في المجلس.»

«هل يمكنك أن تتذكر الموجودين حينذاك، بجانب السيد كينيرد والسيد موراي جراي؟»

حاول ويست التفكير. «لا أخفيك سرًّا، أنا مشوش، ولكن يمكننا الحصول على قائمة بهم من موراي جراي غدًا أو في وقت لاحق اليوم.»

«لكن هل كان بينهم من لم يكن من أعضاء البرلمان؟»

«أوه، نعم، الغالبية على ما أظن. بلغ مجموع الرجال في الغرفة ١٥ أو ١٦. لكني على يقين أن موراي جراي ليس له عَلاقة بأي سلوكيات مؤذية. إنه نزيه لأقصى حد.»

«لا أظن أن له علاقة. لكن يجب ألا نُغفل حقيقة أنه يوجد طريق خالٍ يمكن لغير الأعضاء في مجلس العموم أن ينزلوا منه إلى الطرقة السفلية بعدما تنفضُّ الجلسة وعندما لا يوجد أحد آخر في المبنى. والآن، هل تتذكر شكل الحذاء الذي رأيته؟ هل كان حذاءً بكعب على سبيل المثال؟»

«كلا، كان حذاء رجل يمشي. ولكن هذا لن يفيد كثيرًا — لا أحد من ضيوف موراي جراي كان يرتدي ملابس سهرة.»

«هل تتذكر إن كان الحذاء حسن المظهر؟ كأن يكون من أحذية خدم الضيافة على سبيل المثال.»

«لا أعلم ماذا أقول. ولكن ما أتذكره جيدًا أني رأيت حذاءً عليه حافة سروال أسود. دعني لحظات أتذكر ... لا أتذكر بالضبط»، وبدا الأسف على وجه ويست.

«حسن إذن. لقد تذكرت الكثير. ربما كان الحذاء لأحد خدم الضيافة أو لضيف أو ربما شخص لا عَلاقة له بكليهما.»

«ربما كان حذاء أحد خدم الضيافة، ولكن ذلك الانطباع بشكل أو بآخر لم يُترك في عقلي ... إنه حذاء ثمين غير الأحذية التي يرتديها خدم الضيافة في المجلس.»

بذلك، وصلا إلى الشارع الضيق في سوهو حيث يستأجر روبرت شقته الصغيرة الغريبة. توقَّف بلاكيت لحظة تحت عمود الإنارة في الركن كي يُشعل غليونه مرة أخرى. انتظره روبرت واقفًا على الجهة الأخرى من الطريق على بُعد أربعة أبواب من مدخل السلالم الضيقة الموصلة إلى شقته. تفاجأ لَمَّا رأى رجلًا نحيفًا يرتدي مِعطفًا خفيفًا ويسحب قبعته على عينيه ويخرج من البوابة ويعبر الشارع بسرعة.

اندفع روبرت في الشارع وأمسك بلاكيت من ذراعه. «من ذاك؟ إنه يخرج من بوابة منزلي.» جرى روبرت خلف الرجل وبلاكيت في عقبه، ولكنه كان قد انعطف عند الناصية. ولما وصلا إلى الناصية، لم يريا أحدًا. اختفى الرجل في ظلام الممرات الضيقة لشوارع سوهو الخلفية.

لما عادا إلى السُّلَّم الموصل إلى شقة روبرت، قال بلاكيت: «الأفضل أن أدخل أنا أولًا. هل تظن أنه كان يختبئ في المدخل؟» يوجد ممر بطول ١٠ أقدام على الأقل قبل الباب الثقيل لمدخل البيت الذي يقطنه روبرت.

لم تكن هناك أي علامة على أن أحدًا حاول الدخول عَنوةً. صعد الرجلان حذرَين على السُّلَّم الدائري ووصلا إلى الباب الفعلي لشقة ويست. لم يجدا أي علامة على أن أحدًا حاول العبث بالباب. فتح ويست الباب وأنار المصابيح. الشقة فارغة ولم يُمس أي شيء بها.

قال بلاكيت: «ربما كان الرجل يأوي إلى المدخل أو يتخذ المكان مبيتًا في الليل.»

قال ويست مفكرًا: «ربما.» ثم قال متباطئًا: «شيء غريب يا بلاكيت، فعلى الرغم من أنني لم أرَ وجه الرجل، فإن فيه شيئًا مألوفًا لديَّ. أشعر أنني رأيته من قبل، أو أنه ذكَّرني بشخصٍ ما، لكني لا أتذكر من هو. أمر عجيب. أنا، لا، لا يمكنني تذكُّر التفاصيل الدقيقة ... شعرت للحظة أني تعرفت عليه.»

اقترح بلاكيت: «أتُراه أحد المتسولين كان بانتظارك وأُحبط لما لم يرَك آتيًا إلى البيت بمفردك؟» ثم أردف مهتمًّا: «أم هل يُحتمل أن يكون صاحب الحذاء الذي رأيته في الظلام؟»

قبع روبرت على حافة الطاولة. «أنا لم أرَ حذاءه، ولكني أشعر أني أعرف الرجل. أوه، يا إلهي!» وأردف بسخط اليائس: «يا لها من ليلة! تكون الأشياء قاب قوسين أو أدنى طَوال الوقت ولا يستطيع الإنسان الإمساك بها! اللعنة!»

ابتسم بلاكيت: «أحضر القهوة التي وعدتني بها. ربما تتذكر الصلة بذلك الرجل.»

«جيد. سأشغل ماكينة القهوة التي تُسبب الدُّوار. إني أحذرك من أنها قد تُصدر هبة عنيفة يا بلاكيت، ولكن ذلك الجبان يحتاج إلى بعض القهوة السوداء الثقيلة. تبدو بخير حال على الرغم من أنك استيقظت من نومك في الواحدة صباحًا، وأخشى أن يكون هذا علامة على عدم الاستمتاع بالشباب.»

ابتسم بلاكيت وهو جالس على كرسي بذراعين بجانب مدفأة الغاز وتمنَّى لو كان كل زملائه في العمل ممن له عَلاقة بهم يتحلَّون باللطف في التعامل مثل هذا السياسي الشاب الجذاب والودود.

أخيرًا قدَّم له روبرت القهوة الثقيلة وامتنَّ له وقبلها. لما كان يقلب بضع مكعبات من السكر، قال مفكِّرًا: «إني أتساءل حقًّا هل الرجل الذي كان في الطرقة كان يحاول الدخول إلى الغرفة جيه؟»

«إن كانت له عَلاقة بقضية أويسيل، فلا بدَّ أنه كان يحاول دخولها. فتلك الغرفة هي مسرح وقوع الحادث على أية حال.»

قال بلاكيت بنبرته المتثاقلة المتأنية: «نعم، ولكن هذا ما يشغل عقلي. ركزنا كلنا على الغرفة جيه. افترضنا أن وسيلة قتل أويسيل لا بدَّ أنها بداخل تلك الغرفة. حسنًا، هل تقتضي الملابسات أن هناك شيئًا في الغرفة؟ بدأت أشك في ذلك.»

«لكن لا بدَّ أن الرَّصاصة كانت في الغرفة، وإلا ما كانت لتستطيع قتله.»

«صحيح، ولكن المسدس الذي انطلقت منه الرَّصاصة لا بدَّ أنه كان في تلك الغرفة. ذاك ما يقلقني حتى الآن.»

«هل تقصد أن أيًّا من كان في الطرقة الليلة كان يحاول إخفاء آثار لم نكتشفها بعد؟»

«إما ذلك ... أو أنه كان يخطط لعملية اغتيال ثانية.»

«يا ربي! ما الذي جرى في العالم يا بلاكيت؟»

أردف بلاكيت: «ما أشعر به إزاء تلك القضية هو أننا كنا ندور داخل دائرة صغيرة، إذا جاز التعبير. لم ننظر إلى الأشياء الأكبر وراء تلك القضية، إن فهمتني.»

أخذ ويست يفكر في الملاحظات التي اطلع عليها في ملف وزير الداخلية، تمتم بصوت واهن: «نعم، نعم.»

«عندما شرعنا — أعني الشرطة — في التحقيقات بشأن عملية السطو التي وقعت في تشارلتون كورت، دخلنا في سلك التحقيقات المعتاد. ولم نتوصل إلا إلى نتيجة واحدة.»

«وماذا كانت تلك النتيجة؟»

«إنها لم تكن عملية سطو فحسب — ليست عملية سطو بالمعنى المعتاد، بل تأكدنا من أنها لم تكن عملية سطو عادية البتة. كل الدلائل تشير إلى شخص يعرف معالم المكان جيدًا.»

«هل تشتبهون في أحد؟»

«اطلعنا على قائمة الزوار المترددين على الشقة كما تعلم. ولا يوجد أحد نشتبه فيه من بين هذا العدد الكبير. ويُكَن لهم الاحترام مثل رئيس الأساقفة.»

«وماذا عن كينيرد؟»

«تحريت عن شئونه جيدًا، ولكني لم أتوصل لشيء يجعله محل اشتباه. تأثر بعض الشيء بالركود، ولكن من الذي لم يتأثر؟ وعلمت أن أصدقاءه لم يقفوا بجانبه. ولا يوجد حافز من جانبه. إنه خطيب الآنسة أويسيل، وكان على وفاق تام مع العجوز. لا، توصلت إلى نتيجة وهي ضرورة بَدء التفكير انطلاقًا من القرض. أعتقد أن وراء هذا القرض سرًّا مشينًا.»

وعلى الرغم من إنهاك روبرت، فإنه ابتسم قائلًا: «أو أنه هو السر المشين نفسه.» كان يتوق إلى النوم، ولكن لما بات لبلاكيت ونيس، كان له مزاج للحديث.

«وهذا ما يقلقني من جانب وزير الداخلية.»

انتفض روبرت واقفًا ومنتبهًا. «لماذا؟»

«حسنًا، هل أعتبر مسألة القرض تلك منتهية؟» أحسَّ روبرت أنه يجب توجيه المفتش إلى مسارات حديث أكثر أمنًا.

«إنها بعيدة كل البعد عن اهتماماته. لم يتدخل في تلك المسألة إلا لأنه كان يعرف السيد أويسيل معرفة شخصية. والآن خرج السيد أويسيل من المسألة وكذلك خرج وزير الداخلية.»

قال بلاكيت مفكرًا: «لا أطمئن إلى ذلك. ليتني أعرف المزيد عن ... إمممم ... حسنًا، مدى عَلاقة الصداقة التي تربط بين وزير الداخلية والسيد أويسيل.»

«لا أفهم ما عَلاقة ذلك بالقضية.»

أخرج بلاكيت غليونه منفعلًا. «حسنًا، أنا أجادل هكذا على الرغم من أن الصورة لم تتبين أمامي حتى الآن. كان هذا القرض يضم مبلغًا كبيرًا لشخص ما.»

قال روبرت بنبرة حادة: «ليس لوزير الداخلية»، ولكنه لما قال ذلك فكَّر في الملاحظات المكتوبة في الملف، وشعر بالسأم.

«لا، ولكن صداقته مع السيد أويسيل ربما منعت شخصًا آخر من أن يكون له دور، وربما يُستغل نفوذه بتلك الطريقة الآن.»

«كل تلك التفسيرات رائعة حقًّا يا بلاكيت، إنها رائعة حقًّا. هل معنى كلامك عن جريمة قتل ثانية أن أحدًا يحاول إقصاء وزير الداخلية من طريقه كي يكون له دور في مسألة القرض؟ كيف بحق السماء يمكن أن يساعد ذلك في معرفة المسئول عن قتل أويسيل؟»

«ربما توقع أن ينال من الوزير في المرة الأولى. من يعرف أنه سيخرج من الغرفة في وقت تقديم العشاء؟ هذا شيء غير محتمل إلا في حالة التصويت.»

«نعم، هذا صحيح. ما كان ليخرج لغير هذا السبب، ولو بقي لكان هناك شاهد على جريمة القتل.»

«أو جثة أخرى.»

«أو ...» لكن عقل روبرت نبذ أن يتصور حتى الخوف الذي يكبر بداخله ويطارده بأن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يقول كيف مات جورج أويسيل هو آخر رجل رآه على قيد الحياة. ونظرية بلاكيت عن وجود عصابة دولية كانت أكثر أمنًا على أية حال. وينبغي الترويج لتلك الفكرة.

قال ويست: «عندي ما يقال عن نظريتك يا بلاكيت. لم تتوقف العصابات الدولية عن جرائم القتل على نطاق واسع في الماضي. والحروب هي أدوات تجاراتهم. أظن أنه لا يوجد سبب يمنعهم عن تجارة التجزئة، إن جاز التعبير. المعضلة الوحيدة بالنسبة إليَّ هي أنني لا أفهم كيف يتوقعون الاستفادة من النتائج.»

قال بلاكيت: «أنا لا أتهم الممولين المحترمين.»

قاطعه ويست متحدثًا بأسلوب جلف: «لا يوجد أي ممول محترم.»

«ما أقصده أن أويسيل كان عميلًا صعبًا ولا يوجد أي وازع يوقفه. أظن أنه عرف الكثير والكثير عن عالم الجريمة. كذلك تعرَّف عليه وزير الداخلية قبل أن يصبح بهذا الثراء الفاحش. التقى هذان الرجلان مرة أخرى عندما أصبح أحدهم وزيرًا والآخر مليونيرًا. لكن ربما كانت هناك ديون قديمة ينبغي سدادها. واحد منهما كان أهلًا لأن يدفع. هل الحادث الذي تعثرت به في طريقك له عَلاقة بتصفية حسابات أحدهم تجاه الآخر؟ هذا ما أريد معرفته.» جلس الرجلان صامتَين ويفكِّران في هذا الحديث. ثم نهض بلاكيت كي ينصرف.

قال ويست بضحكة متثاقلة يودِّع زائره في تلك الليلة: «بلاكيت، لم أتوقع البتة أن تكون رومانسيًّا. على أية حال، يبدو أن جدول أعمالك مكتظ.»

رد بلاكيت: «يسرني أن ثمة تقدُّمًا ولو بسيطًا من جانبك. الوصول إلى طريق مسدود وعدم القدرة على الحصول على مفتاح في أي مكان هو ما يؤرقني.»

عندما ذهب بلاكيت، رمى ويست بنفسه في كرسي. كان مجهَدًا، ولكن جفاه النوم. ربما يستهزئ بنظرية بلاكيت، ولكن للأسف يعرف أن فيها مسحة من الحقيقة. لدى وزير الداخلية ما يُخفيه. ربما هناك تفسير وجيه لتلك الملاحظات في ملفه، انتابه الفضول حينما أُحضرت إليه أوراق جينكس، ولما كان على علم بأن صاحب المفكرة هو أويسيل (ولا بدَّ أنه كان يعلم)، فما كان له أن يعيدها إلى بلاكيت من دون أن يسأل كيف وصلت إلى حوزة جينكس — هذا غريب لدرجة أنه يصعب قَبول أي تفسير خالٍ من سوء الظن تمامًا.

لا يزال غريبًا أن يفكر في وزير متزمت وله سابقة أعمال غير قانونية. العطلة التي قضاها في الغابة تبدو تفسيرًا وجيهًا لصداقته مع السيد أويسيل، ولكن كما أشار بلاكيت، كانت في مرحلة ما قبل الثراء الفاحش لدى أويسيل.

وذلك الحذاء في الظلام. من الذي كان واقفًا في الطرقة وتسلل في الليل من دون أن يراه أحد؟ شخص يعرف أساليب المجلس، لا شك في هذا. ومن هو الرجل الذي كان يختبئ في مدخل البيت؟ على أية حال، لا توجد أعمال ينبغي إنجازها الآن، ولكن يجب أن يقابل وزير الداخلية في أقرب فرصة في الصباح. لما خلع روبرت ملابسه، دخل إلى السرير وغطَّ في نومٍ عميق جرَّاء التعب الشديد.

الفصل الرابع عشر

«الحذر من عطلة نهاية الأسبوع»، نصيحة سديدة لأي حكومة يُحتمل أن تكون على مشارف الوقوع في أزمة.

عندما يمر وزير بوقت عصيب ويزور المجلس الذي تنعقد جلساته في أيام الجمعة في الساعة الحادية عشرة صباحًا مرتديًا بدلة عادية أو من نسيج التويد إشارة إلى تراخي الاهتمام السياسي، فسيقول لنفسه: «الحمد لله أنهم سيهدءُون لليومين التاليين.» لكن الأعضاء الكسالى يذهبون إلى المنزل ويتحدثون إلى زوجاتهم أو أصدقائهم في النادي، أما المفعمون بالحيوية فيذهبون ويتحدثون في الاجتماعات والمؤتمرات. وإذا كان هناك تلميح إلى وجود لغز يحوم في الجو، فلا يُتوقع من أي عضو أن يوقف نفسه عن التلميح إلى وجود «أزمة». ولذلك يكره الوزراء يوم الإثنين.

بعد الأحداث التي جرت ليلة البارحة، عزم روبرت على رؤية وزير الداخلية في أقرب وقت ممكن في صباح هذه الجمعة. أسرع إلى وزارة الداخلية، وما ناله سوى أن أخبره بريجز أن وزير الداخلية ذهب في عطلة نهاية الأسبوع.

قال بريجز: «بالتأكيد أنت تتذكر. ذهب لمباركة سفينة جديدة بناها ناخبوه.»

قال روبرت غاضبًا: «ولماذا بحق الجحيم يريد الذَّهاب في رحلة قصيرة كهذه في وقت كهذا؟»

«لا تحرم وزيرًا من ملذاته، وإلا فما الفائدة من أن يكون وزيرًا؟ ألا تحب أن تستقبلك فرقة الآلات النُّحاسية؟ أوه، تركت السيدة بيل كلينتون رسالة عاجلة. تريدك أن تتصل بها في أقرب وقت ممكن. هل آتي لك برقم هاتفها؟»

انتظر روبرت كدرًا لما انشغل بريجز بالهاتف. شحذ همته استعدادًا لما قد يكون أبغض وأصعب حوار، والرئيس الذي اهتم روبرت أن ينقذه من أفعال يظن روبرت أنْ لا بدَّ أنه ارتكبها، انطلق في رحلة ترفيهية كي يبارك سفينة!

قال الصوت الناعم للسيدة بيل كلينتون عبر سماعة الهاتف: «هل أنت روبرت؟ أريدك أن تأتي إلى كلينتون باردسلي في نهاية هذا الأسبوع. والآن، لا تقل إن لديك موعدًا آخر ... ببساطة عليك أن تأتي.»

كانت السيدة بيل كلينتون شخصية مهمة حيث إنها عضو في البرلمان كما أنها زوجة وزير الدولة لشئون الحرب. لو كانت الدعوة في وقت آخر، لرحب بها روبرت مبتهجًا، ولكنه لا يستطيع مواجهة الناس في حفل منزلي في الوقت الحالي. أحسَّ بالظلم، وكأنه الجندي تومي إذ بعد إصابته بالإعياء للمرة الخامسة قام يسأل عن بقية الجيش البريطاني. أوصل تلك الرسالة عبر الهاتف بأسلوب لبق قدر الإمكان.

«قد تحدث أي تطورات في قضية أويسيل ومع وزير الداخلية خارج المدينة، وأعتقد أنه يجب أن أكون على أهبة الاستعداد. طلب مني الوزير أن أتعاون مع المفتش بلاكيت كما تعلمين.» لم تخلُ نبرة روبرت تمامًا من الاعتداد بالنفس. ظن أن آيفي بيل كلينتون تمازحه، ولكنها قالت: «لهذا السبب يجب أن تأتي. أنيت أويسيل آتية، وطلبت مني أن أدعوك على وجه الخصوص.»

كانت أنيت قد طلبت حضوره! أحسَّ فجأة أن العالم أصبح مبهجًا.

«إذن، سآتي بالطبع. أريد أن أقابلها بشأن أمور كثيرة.»

أجابت السيدة بيل كلينتون بنبرة خالية من العاطفة: «توقعت أن توافق. سأقلُّك معي من المجلس بعد الغداء إن أحببت.»

عاد روبرت إلى سوهو مسرعًا كي يحزم حقيبته وهو يكاد يطير من السرور. هل طلبت أنيت حضوره لأن لديها معلومات تريد أن تخبره إياها بشأن اللغز أم أنها — وهنا أحس روبرت بحرارة في صدره — طلبت رؤيته على أية حال؟

دائمًا ما يشعر روبرت بالاستمتاع أكثر من الرهبة إزاء فخامة كلينتون باردسلي، ويرجع السبب في ذلك إلى شخصية آيفي بيل كلينتون التي تصعِّب على المرء أن يرهب أي شيء مرتبط بها. آيفي بيل ابنة ووريثة صاحب أكبر شركة جعة في العالم، وتزوجت البارون أنطوني كلينتون، وتمتد جذور عائلته إلى شجرة أكبر من معظم العائلات في أوروبا. ولكنها أصرَّت على أن تحمل الاسمين؛ لم تكن تخجل من أصلها، وجعلت من مقر كلينتون باردسلي مكان اجتماعات حيويًّا للأشخاص الذين يقومون بعمل جدير بالاحترام في الدنيا ومن يحملون آراءً مختلفة اختلافًا بينًا.

تستمتع السيدة بيل كلينتون كثيرًا بحث الناس غير العاديين على الاختلاط معًا، ولكن الحفلة التي حضرها روبرت ويست في تلك المناسبة كانت من الحفلات فائقة الاحترام.

حضر إلى الحفلة وزير ومعه زوجته ولا ريب في أنها ذهبت إلى حفل التعميد، وهي ترتدي ثوبًا من نسيج الكريب الحريري الرقيق ذي اللون الأسود ودانتيل قديم؛ ورجلان من المنطقة التجارية لم يحضرا زوجاتهما؛ وسيدة حاصلة على بطولة في الجولف؛ واللورد دالبيتي وهو رجل حديث عهد بالطبقة الأرستقراطية؛ إذ لم يُدرج اسمه ضمن طبقة النبلاء إلا من ستة أشهر.

نظر ويست باهتمام إلى دالبيتي؛ إذ لم يقابله من قبل، ولكنه سمع عن الوصف الذي أطلق عليه «ملك القراصنة» نتيجة غاراته المثيرة والناجحة في أوساط التمويل الكبرى. بدا دالبيتي هادئًا ومعتدًّا بنفسه، وابتسم روبرت لما تذكر آيفي بيل كلينتون وهي تشبهه بالدمى الروسية، حيث يوحي مظهرها بالقوة ولكنك تتفاجأ بما تحتويه من أشياء بداخلها حينما تفككها. إخراج ما في جَعبة اللورد دالبيتي عملية مثيرة للاهتمام حتى في نظر خبيرة مثل السيدة بيل كلينتون.

لم تظهر أنيت حتى وُزعت كئوس الخمر قبيل العشاء. انزعج روبرت في البداية لما رأى كينيرد يلازمها في معظم الوقت، ولكنه كان يُسَر عندما يفكر في أمور ثانية. أمل أن تَسنح له الفرصة للحديث أكثر عن أويسيل وشئونه.

في أثناء العشاء، أحسَّ روبرت كأنه دمية في عرض غريب في مسرح العرائس. كان الحضور يأخذون أماكنهم حول مائدة بيضاوية ضخمة مثل التي في غرفة طعام لويس كوينز. احترامًا لأنيت — الصامتة ذات الوقار بفستانها الأسود، لم تُناقش القضية في مجلس العموم على الرغم من أنها الشيء الذي يفكر فيه كل الحضور باستثناء السيدة لاعبة الجولف. ولحسن الحظ، سُد الباب أمام أي فرصة محرجة للحديث بفضل صوت السيدة روكينجهام العالي ومختاراتها التي لا تنتهي عن قصص مباريات الجولف. نظرت السيدة بيل كلينتون إلى روبرت بتعبيرات على وجهها لما فتح الباب كي تخرج السيدات. شعرت بالضجر لما أمسى ضروريًّا أن تذهب وأن تكون سيدة في غرفة الاستقبال عندما أرادت أن تكون عضوًا برلمانيًّا وأن تبقى للحديث. مجلس العموم يجعل المرأة العضو في البرلمان تنسحب من العادات البسيطة للروتين الاجتماعي المرسوم للسيدة بيل كلينتون.

لما مرت كئوس الخمر، التفت دالبيتي إلى صاحب الحفل وهو وزير الدولة لشئون الحرب الذي بدا في هدوء ومبتهجًا، وعلَّق قائلًا: «أنت تتوانى إلى حدٍّ خطير بشأن قضية أويسيل، أليس كذلك؟»

«أنا ... وماذا عساي أن أفعل؟»

«أنت وزير في مجلس الوزراء.»

«بالضبط. وهل تتوقع مني أن أُنجز مُهمَّات الشرطة كذلك؟ أفهم أن روبرت تحول إلى محقق مبتدئ في تلك القضية، وبناءً على ما علمته من جليسون ...» وهنا التفت السيد أنطوني إلى ويست بابتسامته البسيطة الحذرة «... أنت لا تحظى بشعبية كبيرة في وزارتك بسبب ذلك.»

قال دالبيتي: «ولكن هل تدرك — أو لعل أحدًا في مجلس الوزراء يدرك — أن تلك القضية تثير بلبلة في المنطقة التجارية؟»

التفت السيد أنطوني بعينيه الزرقاوين اللطيفتين إلى ضيفه. «لا أرى أن لها صلةً بالبلد.»

صوت دالبيتي اختلجته مسحة من السخط: «حقًّا يا كلينتون، أعتقد في بعض الأحيان أنه حتى الوزراء ينظرون من وقت لآخر إلى العالم خارج أبواب وزاراتهم. كل شيء يؤثر في البلد. الشائعات المغرضة تنتشر بجميع الأشكال. مجلس الوزراء يمشي مُغمَض العينين نحو أزمة بشعة.»

نظر السيد أنطوني بيل كلينتون إلى الرماد في سيجاره هادئًا. «تحب المدينة أن يكون تحت يدها شيء تبرر به الاضطرابات. ولكن هذه القضية برمتها من اختصاص وزارة الداخلية. ولا شك عندي أن وزير الداخلية سيقدم تقريرًا إلى مجلس الوزراء حينما يكون لديه أي معلومات يبلغ بها.» ثم التفت إلى فيليب مثل شخص لبق يحاول تغيير الموضوع، ثم علَّق قائلًا: «بناءً على ما سمعته، فإن أنيت الجميلة وريثة يحالفها حظ وافر.»

ابتسم كينيرد ابتسامة لطيفة: «قالت لي إنها تشعر بقلق كبير إزاء مسئولية تلك الثروة.»

ضحك الناس على تلك العبارة. أردف وزير آخر: «مسئولية لا شك أن أحدًا سيشاركها إياها عما قريب.» أحسَّ روبرت مرة أخرى بأنه يريد المشاركة في تلك التمثيلية. كان كل واحد يتفوَّه بملاحظة بسيطة ولطيفة وكأنهم يكررون أجزاءً في عرض مسرحي. نظر إلى دالبيتي. تبدو الجدية على مُحيَّاه. وكذلك كينيرد. رجال يواجهون الحياة. تساءل ويست إن كان هو الآخر تبدو عليه صفات الدمى التي يتشاركها البرلمانيون الآخرون من بين الحضور.

عندما كان هناك توجُّه عام للالتحاق بالسيدات، وجد روبرت دالبيتي بجانبه. سأل العجوز: «هلا أتيت في نزهة معي؟»

«لا شيء أفضل من ذلك، ولكن هل السيدة بيل كلينتون ...؟»

«أوه، لا بأس في ذلك. آيفي تريد الناس أن يفعلوا ما يحلو لهم.»

أشرقت حدائق منزل كلينتون باردسلي بضوء القمر. قال روبرت مستشعرًا الجمال الباهر من حوله: «هذا أجمل مكان دخلته.»

قال دالبيتي بنبرة خالية من العاطفة: «نعم، أتساءل كم يبلغ دخل بيل كلينتون كي يستمر هذا الحال. انتهت أيام اقتناء الأصول الثمينة ذات الكلفة الباهظة.»

قال روبرت بنبرة حادة: «هذا خزي. أعني، أنهم ظلوا يدافعون عن شيء لن يتكرر مرة أخرى.»

نظر إليه دالبيتي متفاجئًا. «نما إلى علمي أنك شيوعي متزمت وخطير! تلك البيئة أنشأت أنطوني كلينتون، وهو له فائدة في العالم الحديث بقدر فائدة بوذا المصنوع من العاج. ولكن لنتحدث الآن عن قضية أويسيل. هل توصلت إلى نتيجة بنفسك بشأن القضية؟ علمت من وزير الداخلية أنك توليت تلك القضية. يسرني أن أحدًا يتولى تلك القضية.»

«حتى إن كان مجرد سكرتير برلماني خاص؟»

ضحك دالبيتي. «هؤلاء لهم فائدة أيضًا.»

تردد روبرت. لمس في دالبيتي قوة الشخصية. مال إلى إلقاء ما في جَعبته عن القصة بكاملها، حتى فيما يتعلق بمخاوفه بشأن وزيره. لكن آداب اللباقة منعته. يجب أن يرى وزير الداخلية أولًا. لم يجرؤ على التفوه بما يعرفه وبشكوكه.

أساء دالبيتي تفسير تردده.

قال بنبرة هادئة: «أنا لا أتطفل في تلك المسألة بالمعنى الحرفي. ولكني كنت أنصح رئيس الوزراء بشأن المسائل الفنية المتعلقة بالقرض. وكنت أعارض بشدة أن يقابل وزير الداخلية أويسيل بشكل شخصي.»

أحسَّ روبرت بضرورة أن يظهر على وجهه أنه يقول الصدق. قد يكون الإفصاح عن القليل هو الطريقة المُثلى للحفاظ على السر الأكبر. قال: «أظن أنك تعرف أكثر مما أعرف. كل ما توصلنا إليه حتى الآن أن حارس وزير الداخلية إدوارد جينكس كان يحرس أويسيل، ويبدو أنه خدع كل من أويسيل والوزير. اكتشفنا أنه كان يحاول سرقة بعض المستندات المهمة. على الأقل، الدليل الذي معنا يشير إلى ذلك. وتلك ليست نتيجة قطعية.»

توقَّف دالبيتي عن مشيته المتأنية المتباطئة والتفت إلى روبرت محملقًا فيه. «حارس وزير الداخلية يحاول سرقة مستندات مهمة من أويسيل. يا له من رجل! إنه أسوأ مما تخيلت.» لما لم يكن السر الأصغر غريبًا على روبرت، فإنه تفاجأ من تأثيره في رفيقه.

قال لنفسه: «إنه أسوأ من ذلك بكثير، أو ربما هو كذلك بالفعل.» قال بصوتٍ عالٍ: «حسنًا، الدليل ليس قطعيًّا كما قلت.»

«لا يلزم أن يكون قطعيًّا. الاشتباه كافٍ. كم فردًا يعرف حتى هذا القدر؟»

«فقط أنا والمفتش المسئول عن القضية.»

«ولكن بالتأكيد وزير الداخلية ... ما قوله في ذلك؟ أنت لا تحاول أن تجلس فوق بركان وفي عقلك فكرة حمقاء تحاول بها كسب بعض الشهرة، أليس كذلك؟»

أحسَّ روبرت بالاستياء، وأظهر ذلك. «ظِلِتُ أحاول التحدث إلى وزير الداخلية بمفرده لمدة يومين، ولكنه كان مشغولًا للغاية.»

«وسيظل مشغولًا. سيظل يرتب أوراقه حتى في يوم النطق بالحكم. أين هو الآن؟ لنأخذ سيارة ونراه من فورنا.»

دالبيتي جعل روبرت يشعر كأنه متكاسل مثل السياسيين الذين كان يزدريهم على العشاء.

«لا يمكننا مقابلته في عطلة هذا الأسبوع. إنه في اسكتلندا يبارك سفينة.»

جلس دالبيتي متثاقلًا على مقعد: «يا إلهي! كيف يسيِّر ذلك البلد شئونه بتلك الطريقة؟ إننا على مشارف أزمة كبرى قد تؤدي إلى حل الحكومة. حارس وزير الداخلية متورط ومحل اشتباه في تلك الأزمة، ووزير الداخلية مسموح له أن يسافر بعيدًا كي يبارك السفن من دون أن يُخبَر بتلك الأزمة. ماذا تظن نفسك بحق الجحيم يا ويست؟»

شعر روبرت بالخوف فجأة. هل كان يتخيل نفسه محققًا مبتدئًا من دون أن يدرك العواقب الكبرى لتلك القضية؟ هذا الرجل جعله يشعر كأنه تلميذ قُبض عليه ومعه أعواد ثقاب وعبوة بارافين. حسنًا، كان من الأفضل أن يعرف دالبيتي الأسوأ، لربما يتولى تلك القضية اللعينة برمتها.

قال بنبرة خوف على الرغم من أنه يستمتع بالتأثير الذي كان على وشك تحقيقه: «هذا ليس كل شيء. خرج جينكس كي يصوِّر تلك الأوراق في الليلة التي قُتل فيها أويسيل، وعثرت على نسخة من تلك الشفرة بخط الوزير بين ملفاته. إنه يعرف الشفرة أيضًا. استطاع فك الشفرة وكانت الملاحظات كلها متعلقة بالقرض.» أخرج كل ما في جَعبته مندفعًا من دون أن يتوقف. دالبيتي تملَّكه هدوء تام.

«هل أنت مجنون يا ويست، أم تُراك ثملًا؟»

«سأصاب بالجنون عما قريب يا لورد دالبيتي إن ظللت أفكر في تلك المسألة أكثر من ذلك. أعلم أنك تظنني أحمق، ولكني لم أكتشف أن وزير الداخلية لديه تلك الشفرة إلا هذا

الصباح. حاولت أن أقابله. إني أحاول أن أتحدث معه منذ أن علمت ما علمت عن جينكس، ولكن صدقني لم أستطع الانفراد به خمس دقائق. لا يدعه جليسون يغيب عن ناظره هذه الأيام.»

قال دالبيتي وكأنه يتحدث مع نفسه: «وهذا شيء جيد أيضًا. كلا يا ويست. لا أظنك أحمق ... أو أي شيء ولكن. يبدو أنك الشخص الوحيد الذي تعامل مع تلك المشكلة بجدية، بخلاف الشرطة بالطبع. هل أقول إن الشرطة تعرف كل هذا؟»

«لا تعرف أي شيء بشأن وزير الداخلية. احتفظت بذلك السر لنفسي. ولكن بالطبع تعرف المعلومات بشأن جينكس.»

«يسرني أنك لم تُفشِ تلك المعلومة. هل أنت متأكد من أنه لا أحد غيرك يعرفها؟»

أحسَّ روبرت أنه حري به ألَّا يُفسد الانطباع الذي لا يخفى تأثيره في اللورد دالبيتي بمحاولة أن يفسر له ما حكاه لدون شاو. وعلى أية حال، كان شاو جديرًا بالثقة إلى حدٍّ بعيد لدرجة أنه لا يُعتد ضمن العارفين بالسر.

قال روبرت: «كلا، لم أخبر أحدًا آخر. لكني سأقابل الوزير يوم الإثنين. سأطلب منه أن أكون معه بمفردي.»

قال دالبيتي متجهمًا: «سيقابلك. والآن، سنخرج بسيارتي ونذهب كي نقابل رئيس الوزراء.»

لهث روبرت: «رئيس الوزراء؟ لكن لا يمكن أن نفعل هذا قبل أن أقابل وزير الداخلية.»

«بل يجب أن نقابله. هناك أشياء على المحك أكبر من اعتداد ذلك العجوز بنفسه. الله أعلم ما الذي يسعى إلى تحقيقه. أظن أنه كانت لديه فكرة رائعة بشأن أويسيل المخادع. وكأن أرنبًا يحاول إخفاء شيء في جحره.»

لما كانا عائدين إلى المنزل، قال روبرت: «ولكن الكلب هو الذي مات.»

«أنت على حق يا ويست، ورجل ذكي كذلك إذا جاز التعبير. ألم تكتشف أن وزير الداخلية قتل أويسيل باعتبار ذلك مساهمة حسنة النية لحل المشكلة الدولية أم لا؟»

ضحك ويست. لم يستطع أن يمنع نفسه عن الضحك. أحسَّ أن همَّه أزيح من صدره لما حكى ذلك الكابوس لشخص قادر وفطن مثل دالبيتي. ثم تذكر المقابلة القادمة مع رئيس الوزراء. وجد نفسه يأمُل ألا يكون الشخص المهيب في منزل تشيكرز أو في أي مكان ذي شأن، ولكنه في الوقت نفسه يبتهج من فكرة أنه نفسه — مجرد سكرتير برلماني خاص — يصل متباهيًا مع دالبيتي صاحب النفوذ من أجل مقابلة في منتصف الليل. لا

يوجد نبيذ يصيب المرء بالانتشاء مثل شعور أن يكون للمرء دَور في قلب الأحداث الكبرى الجارية.

حتى السيدة بيل كلينتون التي لا يمكن كبح جماحها شعرت بالهيبة تجاهه عندما أرسل دالبيتي خادمه الشخصي إليها كي يخبرها بأنه اتصل برئيس الوزراء — إذ بقي في شارع داونينج لأداء وظيفة ليوم السبت — وأنه سيذهب إليه مع روبرت من فورهما. إنها تتمتع بمهارة كبيرة في إدارة الحوار مع الرجل حتى يطرح أسئلة حينما يبدو التوتر على كليهما. ستكون الصديقة المقربة لكل منهما على حدة حينما يهدآن. إضافة إلى ذلك، قد يخبرانها المزيد وقتئذٍ. تُفضل السيدة بيل كلينتون أن تتعامل مع رجل واحد فقط في كل مرة.

الفصل الخامس عشر

في أثناء الرحلة الطويلة إلى لندن بسيارة الرولز رويس الخاصة بدالبيتي، وُضع روبرت في تحقيق حثيث حول كل تفاصيل القضية. ثم هدأ دالبيتي بعض الوقت. قال فجأة: «أعتقد أنه يجب الفصل بين قضية القتل ومسألة جينكس. وزير الداخلية تراوده أفكار غريبة فجأة. أنا أعرفه منذ وقت طويل، ولا يمكن توقع ما سيفعله حينما تطرأ فكرة في رأسه. ولكني لا أزال أصدق أنه نزيه بقدر ما هو غبي. يجب أن نخيفه كي يخبر رئيس الوزراء بما كان يسعى خلفه، ولكن لغز قتل أويسيل لا يزال قائمًا وهذا ما يضع الحكومة في موقف محرج للغاية.»

قال ويست: «لا يبدو أن الحكومة قلقة إزاء تلك المسألة كثيرًا. أعني أنه إذا كانت المسألة خطيرة إلى تلك الدرجة، فينبغي للحكومة أن تفعل شيئًا، أليس كذلك؟»

أبدى دالبيتي تعجبًا ينمُّ عن نفاد صبره. «كثيرًا ما أتساءل يا ويست ما الذي يحدث لمعظم الرجال — وليس كلهم بالطبع — حينما يتولَّون منصبًا في الحكومة. يبدو أن كل الأحزاب مصابة بحمى خفيفة. أظن أن الرجال ينشغلون تمامًا بوزاراتهم، والشيء الأصعب هو الاهتمام ببلد كبير مثل بريطانيا، ناهيك عن الإمبراطورية بكاملها. أتذكر حينما لم يكن قد تبقَّى سوى ثلاثة أيام على حل الحكومة السابقة بعدما مُنيت بهزيمة نكراء، تحدثت إلى أحد الوزراء وكان يعد الخطط بهدوء للسنة التالية. إنه لم يسمع عن المشكلة الجارية. يبدو أن الأمر لا يصدَّق، ولكني أؤكد لك أن هذا ما تم بالفعل. لم يكن الرجل أحمق، بل وزيرًا كفؤًا.»

عندما وصلت السيارة إلى باب المنزل رقم ١٠ بشارع داونينج، عادت الحماسة إلى روبرت. سبق أن حضر تجمعات رسمية في الحديقة ويعرف الصالة والمكتب الرئيسي. كذلك سبق أن رأى الغرفة التي اجتمع فيها مجلس الوزراء. ولكنه لم يرَ الجزء الخاص في

المنزل. لما كان ويست يصعد على درَج السُّلَّم المفروش بسجادة خضراء بسيطة، والصور الفوتوغرافية ذات الإطارات الرخيصة المعلقة على الحائط، بدأ ينجذب نحو البساطة التقليدية في حياة الشخصيات العامة الإنجليزية. من الواضح أن دالبيتي يعرف المنزل، ومِن ثَم تبعه وعبرا من غرفة الطعام المبطنة بألواح البلوط ولكنها داكنة اللون إلى غرفة استقبال صغيرة بابها في نهاية غرفة الطعام. إنها غرفة بسيطة إذ أعدها صاحبها الحالي. يتضمَّن تأثيث الغرفة كراسيَّ مريحة لها أغطية ذات أقمشة قطنية لامعة، ومكتبًا كبيرًا لرئيس الوزراء، وبضعة كتب، ولا بدَّ أن تلك الجدران الأربعة سمعت محادثات مهمة أكثر من أي أربعة جدران أخرى في العالم.

كان قلق روبرت يتزايد وكان يحاول جاهدًا ألا يفكِّر كثيرًا فيما في جَعبته، وابتهج لما نهض رئيس الوزراء من فوق الكرسي ذي الذراعين مرتديًا ملابس نوم ونعلًا ناعمًا. تصافح مع اللورد دالبيتي أولًا ثم صافح روبرت، قال مبتهجًا: «كنت غيرت ملابسي حينما اتصلت بي، وأعلم أنك ستسامحني على مقابلتك بهذا الشكل.»

رد دالبيتي بلطف معهود: «لا يُغتفر لي البتة إزعاجي لكم في هذا الوقت، ولكنك تعلم أنني ما كنت لأفعل ذلك لو لم تكن المسألة ملحَّة»، وعندها رأى روبرت أن التعامل بين الرجلين قائم على مبدأ المساواة التامة.

لما كان رفيق ويست يشرح الأسباب العامة التي جعلته يأتي به بتلك السرعة، حاول روبرت أن يعتاد على رؤية رئيس الوزراء بتلك الملابس الغير الرسمية محل الشخصية المبهرة التي تقبع في المقعد الأمامي في مجلس العموم، وحينها التفت دالبيتي إلى روبرت وقال: «والآن، أعتقد أنه حقيق بك أن تخبر رئيس الوزراء القصة التي قصصتها عليَّ كاملة.» أحسَّ روبرت أن الدم يهرب من وجهه. لكن سرد كل التفاصيل التي تجول في عقله لدرجة أن سرده للحكاية كلها كان متسقًا بدايةً من الخطاب الأول الذي كتبه باسم وزير الداخلية إلى جورج أويسيل وحتى عثوره على الملاحظات المشفرة في الملف الخاص بالوزير.

كان رئيس الوزراء مستمعًا جيدًا. جلس على الكرسي وأسند ظهره منصتًا من دون أن ينبس ببنت شفة. عندما انتهى روبرت، التفت إلى الرجل الكبير وتحدث بصوت هادئ لم ينبئ شيئًا عما يشعر به، ثم وجَّه سؤالًا: «حسنًا، ما قولك في كل هذه القصة يا دالبيتي؟»

«قصة لا تصدَّق، ولكن ... حسنًا، سأقول رأيي. ويست ليس أحمق. لماذا تركت الوزير يتولى المفاوضات على القرض؟ تعرف أني كنت ضد تدخُّله في المسألة ... منذ البداية.»

«أرجوك. لن نخوض في كل تلك الأمور مرة أخرى. رجوت أن تفيدنا العَلاقات الشخصية لوزير الداخلية مع السيد أويسيل — ولا شك أنهما كانا على معرفة شخصية — خاصة في المراحل الأولى من المناقشات.»

«ولكن ما الذي كان يسعى إليه؟»

ارتسمت ابتسامة غير مكتملة وكُدْرة على شفتَي الوزير. «لا بدَّ أن ننتظر تبريراته. لكنني متأكد من أن ما فعله أيًّا كان نابع من نية صالحة.»

ضحك دالبيتي ضحكة متجهمة. «أوه، ما أنزه هؤلاء الناس! إنهم يتسببون في أضرار أكبر مما يتسبب فيها المحتالون. وحينما نقع جميعًا في ورطة، فسينزعج إذا لم يقدم له أحد خطاب شكر رسميًّا. إنه الآن في اسكتلندا يبارك سفينة غير مكترث بتلك المصيبة التي خلَّفها. فتيل المصيبة ضُبط على الانفجار يوم الإثنين. فهل أتوقع أن يعود لحضور جلسة النقاش الخاصة بتأجيل المحاكمة؟»

قال ويست: «لن يعود قبل الحادية عشرة.»

قال رئيس الوزراء: «يستطيع أن يأتيَ في السابعة والنصف، سيأتي إن تعجل وأتى بأقصى سرعة. وأرجو أن تتكتم هذا السر يا ويست تكتُّمًا صارمًا.»

«أؤكد لك يا سيدي أن لا أحد يعلم هذا السر.» روبرت وخزه ضميره مرة أخرى لأنه أخبر شاو، والحمد لله أن دون موثوق به — وما أحسنه أنه لم يقل شيئًا لبلاكيت!

أخرج رئيس الوزراء غليونه ووضعه على الموقد.

«الشخصيات، الشخصيات، يا إلهي، ما أصعبهم من مشكلة!»

في تلك اللحظة، أحس روبرت بمسحة من الشفقة تجاه هذا الرجل الوحيد، وتجاه أي رجل رفعه منصبه إلى مكانة أعلى ممن حوله وفي النهاية تركه من دون وسيلة للتعامل مع الشخصيات المتحاربة من حوله غير فطنته. ولما كان روبرت حسَّاسًا للأجواء من حوله، أحسَّ أن الرجلين يريدان أن يكونا بمفرديهما. لا بدَّ من مواجهة العاصفة التي تلوح في الأفق. غريب ما حدث على الرغم من أنه لم يقابل دالبيتي قبل العشاء في هذه الليلة، وسرَّه أن يقابل رئيس الوزراء شخصيًّا في وقت يجب فيه مواجهة أزمة كتلك. قام وتحدث إلى رئيس الوزراء بنبرة احترام: «إذا لم يكن لي عمل آخر يا سيدي، فهل أذهب الآن ...؟»

قال دالبيتي: «سيعود بك قائد سيارتي إلى كلينتون باردسلي. أخبره أنني سأمكث في المدينة اليوم. يمكنه أن يأتيَني مرة أخرى غدًا.»

«عندما أعود، سيكون الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير. وربما يكون من عدم اللباقة أن أجعل السيدة بيل كلينتون تنزل في هذا الوقت.»

«لن تسامحك إن لم تَعُد.»

نظر رئيس الوزراء في ساعة المنبه. «هل تظن أنه من الأفضل أن يعود إلى هناك يا دالبيتي؟ ليس هناك قلق من نوايا السيدة بيل كلينتون، ولكن قد يصعب على ويست كثيرًا أن يتكتم كل ما حدث إذا أصرت على أن تعرف.»

ابتسم دالبيتي. «يخيل إليَّ أن ويست يعرف كيف يتعامل مع امرأة حسناء. ستقل الأحاديث إن عاد. فكر في حكاية محبوكة يا ويست في طريق عودتك؛ إذ لا بدَّ أن تقول شيئًا لآيفي. هل تعتقد أن بمقدورك التحدث إلى كينيرد في يوم الأحد ولكن بالطبع من دون أن تُلمِّح له بشيء عن الشفرة؟ أريد أن أعرف طبيعة عَلاقته الحقيقية مع أويسيل وهل الآنسة أويسيل ستقبل به زوجًا أم لا.»

سأل رئيس الوزراء منفعلًا: «وهل الوقت مناسب؟ سنقدم السرية على كل ما سواها إلى أن نرى وزير الداخلية. قد يُحتال على ويست من رجل ماهر مثل كينيرد ويُحصَل منه على معلومات من دون أن يعرف.»

ابتسم دالبيتي إلى روبرت ابتسامة مشجعة. «يبدو أن الفتى يُحسن عمله حتى الآن. أعتقد أنه يمكن الوثوق به.»

خرج روبرت إلى السيارة التي تنتظره وصدى هذه الكلمات في أذنيه، وظل طَوال الطريق يفكر في مشكلة تعد مشكلة محورية في كل وزارات الحكومة، وظل يتساءل عن سبب ندرة أصحاب الشخصيات القوية أمثال دالبيتي ممن وُلدوا كي يكونوا قادة في السياسة النشطة. يريد أن يتبع لواء دالبيتي في معركة طاحنة. لقد شكر القدر بأن تجمل بما يدفعه إلى الثقة به والاعتراف له في الحديقة بعد العشاء.

كانت الساعة الثانية حينما وصل روبرت إلى منزل كلينتون باردسلي. الكل خلد إلى النوم ما عدا السيدة بيل كلينتون وفيليب كينيرد حيث إنه جلس معها. عبرا الصالة بمجرد أن سمعا صوت الإطارات على حصى ممر السيارات.

لما أخذت صاحبة الضيافة روبرت إلى غرفة الجلوس الصغيرة؛ تلك البقعة ذات الراحة غير التقليدية في هذا المكان الفسيح، ضحكت وقالت: «أرجو أن يكون التفاني هو الذي أجلس فيليب معي وليس الفضول وحده.» شكرها روبرت على القهوة الساخنة التي أعدتها على السخان الكهربي وعلى كومة الشطائر التي تُركت له.

«والآن، ستكافئنا بقولك إن كل المعلومات سرية للغاية ولا يمكن أن تتفوه بكلمة. ولكن أخبرني. كيف اغتال وزير الداخلية السيد أويسيل المسكين؟»

ضحك روبرت. رتَّب أفكاره في عقله بشأن الحبكة التي سيرويها كما نصحه دالبيتي. ولما كان كينيرد موجودًا، وربما أخبرته أنيت عن جينكس، ربما يكون من المثير للاهتمام رؤية ردود أفعاله.

«وهل يمكن الوثوق بك بألا تتفوهي بكلمة أمام أحد؟»

«يا لدهشتي منك أيها السيد روبرت ويست الشاب! لقد التحقت بالبرلمان وأنت لا تزال في المدرسة الإعدادية.»

داعبها روبرت: «إذن، أنت في البرلمان منذ فترة طويلة وتعرفين أن العمر ليس دليلًا على الفطنة. الفكرة هي — حسبما أتوقع أن الآنسة أويسيل أخبرتك — أننا لا نستقر على رأي بشأن إدوارد جينكس.»

«كلا، لم تخبرني الآنسة أويسيل شيئًا. إنها من النوعية الكتومة كما تعلم.»

اندهش روبرت. ألم يكن كينيرد على وفاق مع أنيت كما ألمح من قبل، أم هل تلك الفتاة المتحفظة تكتم أسرارها حتى عن أقرب الناس إليها؟ هل أخطأ لما أخبر كينيرد الكثير؟

قال محاولًا الابتعاد عن تلك النقطة: «الدليل الذي معنا ليس قطعيًّا. السبب الوحيد الذي يدفعنا إلى التكتم هو أن جينكس كان على عَلاقة خاصة بوزير الداخلية. ولا يمكننا فعل شيء حتى يعود يوم الإثنين.» لم يظهر اهتمام خاص على وجه كينيرد.

فكر روبرت: «تُراه يعتقد أنني أقول هذا الكلام لمصلحة آيفي، أم أنه لا يهتم حقًّا.»

طلب كينيرد فنجانًا آخر من القهوة. سأل: «هل لدى الشرطة أي نظرية بشأن اللصوص الذين قتلوا جينكس؟»

حرَص روبرت على إبقاء المحادثة ضمن المسائل العامة الآمنة. «بالطبع، سيتمكن اللورد دالبيتي من مساعدتنا في هذا الشأن. إنه يميل إلى النظرية القائلة بأن مجموعة قراصنة في المنطقة التجارية لها علاقة بتلك الواقعة بشكل أو بآخر. تلك النظرية تبدو رائعة بالنسبة إليَّ، إنجلترا ليست أمريكا؛ ومِن ثَم ينبغي فرض تعريفة جمركية على العصابات إذا بدأت الولايات المتحدة الأمريكية في تصديرهم لنا.»

لم يقل دالبيتي كلامًا من هذا القبيل، ولكن ظن روبرت أن هذا اختلاقًا منمقًا وآمنًا. لقد تفاجأ من التأثير الذي أحدثه في كينيرد.

قال غاضبًا: «أعتقد أن الآنسة أويسيل ينبغي أن تعرف إن كان اللورد دالبيتي له يد في شئونها. أؤكد لك أن تدخله لن يرضيها.»

نفثت السيدة بيل كلينتون عدة حلقات دخان من سيجارتها. «تلك القضية لا تخص أنيت وحدها، وهل تخصها وحدها إذا كان سوق الأوراق المالية البريطاني آخذ في الانهيار

وستقع أزمة برلمانية الأسبوع القادم؟ يسرني أنك وثقت في ديك دالبيتي يا روبرت. أشعر بالأمان حينما يتولى أي قضية. والآن، لن نزعجك بمزيد من الأسئلة. فليخلد كلاكما إلى النوم.»

روبرت راوده انطباع أن كينيرد أحب أن يتخلف ويتحدث إليه بمفردهما، ولكن آيفي بيل كلينتون حرمته من هذا الرجاء لما ساقت الرجلين ضاحكة أمامها على السُّلَّم واتخذت دور صاحبة الضيافة الكريمة وهي تريهما غرفتيهما. خلع روبرت ملابسه متباطئًا وهو يفكر في هذا التعقيد الجديد. لم يذكر دالبيتي أن لديه أي معرفة خاصة بشأن كينيرد أو عائلة أويسيل. لم يطلب منه سوى أن يحاول معرفة هل خطبة أنيت من فيليب محتملة الحدوث أم لا. هل دالبيتي مهتم لأمر أنيت؟ دالبيتي متزوج، تذكر روبرت بصورة مشوشة أنه رأى صورها في الصحف الرياضية المصورة، ومِن ثَم لا يمكن أن يكون دالبيتي نفسه مرشحًا لأنيت وملاييننها. إذن، لماذا غضب كينيرد إلى هذه الدرجة لما علم أن دالبيتي يقحم نفسه في تلك القضية؟ وعلى أي سبب واهن بُني هذا الاستنتاج، مجرد عاطفة عابرة راودته في الحديقة في بداية المساء — روبرت يخشى أن يحمل هذا السر الكبير وحده! لكن هل كان ذلك صدفة؟ تساءل روبرت هل كانت أنيت أويسيل هي التي طلبت أن يُدعى إلى حفل كلينتون باردسلي، أم كانت مبادرة من اللورد دالبيتي؟

الفصل السادس عشر

استُدعي وزير الداخلية بتلغراف موسوم بعبارة «أولوية حكومية مطلقة»، ومِن ثَم وصل إلى المبنى رقم ١٠ بشارع داونينج في الساعة العاشرة بالضبط في صباح يوم الإثنين. وعلى الرغم من أن رحلة سفره استغرقت الليل كله وأتى من المحطة مباشرة، فإن هندامه كان مثاليًّا وكأنه غادر غرفة نومه لتوه.

لم يستقبله رئيس الوزراء في غرفة الجلوس الصغيرة التي تحدث فيها إلى روبرت واللورد دالبيتي، ولكنه استقبله في المكتب الرسمي المخصص للمقابلات الرسمية. ما كان لأحد يراهما جالسين بعضهما في مواجهة بعض أن يتخيل أن وزير الداخلية يمكن أن يدان ولو على فعل طائش. لقد كان مستريحًا أكثر من رئيس الوزراء. لقد اندمج وزير الداخلية في الحياة السياسية بإنجلترا بسهولة مثلما تدخل اليد في قفازها. ومنذ عهد الملكة إليزابيث، نادرًا ما تمر فترة من دون أن يتقلد أحد من عائلته منصبًا رفيعًا في الدولة. لم تكتمل الحكومات سواء كانت من أنصار سياسات اليمين أو اليسار أو المحافظين أو الليبراليين من دون أن يندرج اسم من أفراد عائلته بها. ولم ينضم أحد من عائلته حتى الآن إلى حزب العمال، وتلك الحقيقة صعَّبت على وزير الداخلية أن يؤمن بإمكانية استمرار هذا الحزب.

في وصوله إلى تلك المنزلة المكينة، لا يصح القول بأنه «فاز» بمنصبه في مجلس الوزراء. بل الأحرى أنه مرَّ بمراحل واضحة الدلالات حتى وصل إلى منصب لا يخفى أنه يستحقه. والمشهور عنه أنه يُضفي الاستقرار على أي حكومة يدخلها. لكن في الفترة الأخيرة، كان هناك عنصر مزعج في حياته. إنه يعتبر تشجيع صحف معينة لرسامي الكاريكاتير ذوي المواهب الضعيفة عارًا على تلك الصحف.

فرح هؤلاء الأشخاص واهتموا فجأة بتلك الصورة المهيبة التي قدَّمها. ذلك الوجه السمين، تلك الياقة الكبيرة، تلك الشخصية التي تتقدم الموكب حتى إذا تمشَّى في الشارع،

تلك المظاهر استخدمها رسام كاريكاتير مشهور بتأثيرات مهلكة واعتبرها رمزًا لغرور الحكومات.

رسام آخر يكتسب شهرته بالرسم على واجهات المباني المهمة. باتت العامة تعرفه بلقبه المؤذي. لم يرَه الملايين البتة، ولكنهم أصبحوا يعرفونه باسم منفر تمامًا وهو «فلوسي» إذ لقَّبه مايكل هولدزوورث بذلك الاسم بسخرية مريرة في إحدى الهجمات الوحشية عليه، وأصبح يُستخدم الآن في كل رسومات الكاريكاتير التي يظهر فيها.

لكن تلك هي عادة الشعب البريطاني، أحبَّه عامة الرجال والنساء لأنه قادر على إضحاكهم. اسم «فلوسي» كان يعني الكثير في تلك الفترة.

لم يكن إقحام رئيس الوزراء في الأخبار اليومية سهلًا في تلك الفترة. لم يتثبت العامة من شأنه لأنه كان مراوغًا ولا أحد يعلم نواياه كما أنه لم يكن واثقًا من نفسه البتة. إنه لم يتقلد منصبه الرفيع الحالي بفضل مؤهلاته القيادية الحاسمة، بل لأنه يفتقر إلى تلك المؤهلات. وقد برز إلى حدٍّ ما غياب الهدف في فترة رئاسته. من الخصال التي تُحسب له قدرته على الإجابة على أي سؤال وترك السائل مطمئنًّا ولكن من دون أن يعلم ما يرمي إليه تمامًا. وحتى ألد أعدائه لا ينكرون سِحر شخصيته. وفي العلن، كان خبيرًا في إزعاج الآخرين، سواء كان خَصمًا برلمانيًّا أو من دولة أجنبية أو اجتماع عام للمعارضة.

رأى زملاؤه الأقرب إليه في العمل وأصدقاؤه الحميمون جانبًا آخر من شخصيته. كانت لديه خَصلة الانتقام الشديد في السر لأن التحكم في النفس مطلوب في منصبه الرسمي بصفته مهدئًا لغضب الشعب.

لما تبادل الرجلان التحية قال وزير الداخلية: «أرجو أن تكون المسألة مهمة حقًّا. تعرف كم أكره السفر بالليل. حذرني الطبيب ... لأن قلبي ...»

أتاه رد بصوت هادئ: «أعتقد أنك ستجد المسألة مهمة بحيث تستدعي اهتمامك الفوري.»

جلس رئيس الوزراء على مكتبه. أجلس وزير الداخلية نفسه احترامًا في كرسي بذراعين بجانب المكتب. عدل ركبتي السروال ووضع إحدى ساقيه على الأخرى بعناية بزاوية صحيحة وأسند ظهره على الكرسي وضغط بأصابعه على بعضها في شكل قوس وكأنه قاضٍ في القاعة يتهيَّأ كي يدرس الحكم الذي سينطق به.

نظر رئيس الوزراء إلى وزير الداخلية بمسحة من الغضب. لم يسبق أن كان واثقًا من نفسه، لكن لم يسعه إلا أن يتأثر بتلك الثقة الكاملة في النفس. ولذلك كان وزير الداخلية

يتحلى بثقة أكثر من أي وزير آخر في حكومته. شيء لا يُصدَّق ... هل ارتكب تلك الجريمة حقًّا؟

سأل: «ما الذي تفعله في قضية أويسيل؟»

«القضية في أيدي الشرطة. ولم ينزع جليسون يده من القضية. وكلفت شرطة سكوتلانديارد أفضل شرطي لديها كي يتولى تلك القضية، وهو المفتش بلاكيت. روبرت ويست — السكرتير البرلماني الخاص لديَّ كما تعرف — قد قطع شوطًا كبيرًا في تلك القضية، وأعتقد أنه شوط مُرضٍ كثيرًا. لا أعرف إلى أين وصلت الأمور، ولكن يمكنني إعداد تقرير وعرضه على مجلس الوزراء يوم الأربعاء إن أحببت.»

«هل تعرف أنه ستُعقد جلسة لمناقشة تأجيل المحاكمة هذا المساء؟»

«آه، نعم. تمكن ويست من تأجيلها يوم الخميس الماضي. ولكن يمكن أن نُدلي ببيان غير ملزم، لا سيما في ضوء واقعة أن جلسة التحقيق ستُعقد يوم الخميس. بهذا المعنى، أصبحت القضية بين يدي القضاء، ولذا لا أظن أن القواعد تسمح بمناقشة تلك المسألة على الإطلاق.»

قال رئيس الوزراء وهو ينظر إلى زميله عابسًا: «قد يكون ما سيطرحه حزب العمال مقبولًا بدرجة كبيرة.»

ردَّ وزير الداخلية ولا يبدو التأثُّر عليه: «حقًّا.»

أمال رئيس الوزراء إلى الأمام. «هلا تخبرني من فضلك ما هو دورك في تلك القضية.»

لم ينظر وزير الداخلية في عينيه: «سبق أن أخبرتك، إلا لو أنك تريدني أن أعيد على مسامعك ظروف العشاء كاملة. لقد وصلك بياني بشأن تلك القصة.»

حياد البصر حسم المسألة بالنسبة إلى رئيس الوزراء. لدى وزير الداخلية ما يخفيه. ربما اهتزت ثقته بنفسه. الرجل الذي لم يثق بنفسه البتة سيحظى بمتعة كبيرة من تلك المقابلة.

قال بنبرة ماكرة: «وصلتني بعض المعلومات الإضافية منذ أن غادرت لندن.»

كأن ضبابًا خفيفًا يمر على وجه الآخر: «يهمني أن أعرفها.»

ظل رئيس الوزراء صامتًا بضع ثوانٍ. زادت حساسيته تجاه الجو العام، إنه يشعر بزيادة عدم الراحة لدى الرجل الذي ما فتئ يكرهه خُفية حتى عندما كانا يعملان معًا بصفتهما زميلين وصديقين. كانت لحظة رائعة. ولأنه ممثل ضليع لا يتقمص شخصية واحدة مدة أطول من اللازم، ومِن ثَم تغير من تقمص شخصية القيصر بورجيا إلى شخصية

رجل عملي يهتم بعمله. تلك التغيرات الخاطفة في الموقف الواحد جعلت منه خصمًا صعب المراس، ومِن ثَم زميلًا لا يوثق به.

«حسب ظني، يُستحسن أن أخبرك ما وردني من معلومات. لا شك على الإطلاق أن التفسير مُرضٍ، ولكن يجب أن أعرف موقفنا قبل أن ألتقيَ بالمجلس.»

قال وزير الداخلية: «بالتأكيد.» اكفهرَّ وجهه قليلًا.

«المعلومات التي وصلتني هي أن رجلك السري إدوارد جينكس الذي كان ملازمًا لأويسيل وُجد في جيبه مفكرة أويسيل الخاصة؛ وتلك المفكرة يدوِّن فيها تفاصيل أكثر المعاملات سرية. وتأكد أنه في الوقت الذي كان أويسيل يتناول فيه العشاء معك في مجلس العموم، خرج جينكس من الشقة كي يصور الصفحات المكتوبة من تلك المفكرة في الخفاء. واكتُشف أيضًا أن نسخة من مذكرات أويسيل بشأن المفاوضات على القرض الذي طلبناه وُجدت في ملفك الخاص بخط يدك وبفك الشفرات.»

انتفض وزير الداخلية. «هذا الاتهام لا يُحتمل. هل تقصد أن تخبرني أن الشرطة وصلت إلى ملفي الشخصي الذي يضم أوراق الحكومة؟»

فوجئ رئيس الوزراء بهذا الرد الساخط حيث إنه توقع أن يصاب بحالة انهيار. لم يُرد أن يذكر اسم ويست، على الأقل في الوقت الحالي. قال محاولًا المماطلة: «اكتُشف هذ الأمر من غير ترتيب، وتلك الواقعة قد تكون من حسن حظ الحكومة ومن حسن حظك. ولكن هل تعترف أن تلك الوقائع حقيقية؟»

جلس وزير الداخلية مرة أخرى في الكرسي ذي الذراعين. واتباعًا للعادة، جلس الجِلسة نفسها ولكن من دون أن يعدل سرواله من عند الركبتين. أحسَّ رئيس الوزراء أنه يُمسك بزمام الموقف. نسي للحظة الأزمة التي على وشك أن تقع على رأس الحكومة كلها. كان يستمتع بشعور القوة، بشعور السيادة على ممثل العائلات العريقة التي كانت تزدريه، وعلى رجل يتقلد دَور المستشار الخاص له في الحكومة، وعلى كل النظام القديم الذي كرهه حتى إن كان يقوده. وبصوت رخيم مثل مبشر محترف يميل على تائب، قال: «ألن تخبرني بما فعلته بالضبط حتى يمكنني المساعدة ووضع الأمور في نصابها؟»

بالغ في تلك العبارة. لقد نالت نبرته من كبرياء الرجل الذي أمامه. وقف وزير الداخلية على قدمين لا تكادان تحملانه. خاطب رئيس الوزراء وكأنه يتحدث في اجتماع أمام مديري شركة.

تحدث بنبرة متثاقلة ولكن بتروٍّ وكأنه رجل ينتقي كلماته كي يُدلي بتصريح مهم: «قد تبدو الإجراءات التي اتخذتها غير عادية نوعًا ما. وربما يساء فهمها أيضًا. سأتخذ خطوات

فعالة كي أعفي الحكومة من أي مسئولية تجاه تلك القضية. لكن ضميري مرتاح. فأنا لم أتصرف من غير تفكير. لقد فعلت ما اعتبرته أفضل مصلحة يحتاج إليها البلد. أنا ...»

قام رئيس الوزراء من مكانه غاضبًا؛ إذ لم يتحمل الطرح المفصل الذي يعرضه الآخر.

قال: «اجلس يا رجل وأخبرني ماذا فعلت. ستسنح فرص كثيرة من أجل التبريرات فيما بعد.»

نبرة رئيس الوزراء الجادة زعزعت ثقة وزير الداخلية بنفسه. جلس بسرعة ونظر إلى زميله وكأنه عجوز تمرغ رأسه في الوحل، وقد كان كذلك بالفعل.

قال بنبرة استجداء: «آسف أنني تخبطت في الحديث كثيرًا.»

لا يوجد أي حيلة تُحسِّن موقفه هذا أفضل من أن يكشف عن عجزه المطلق. لم يكن رئيس الوزراء متنمرًا. إنها القوة التي كرهها، وليس الضعف. ومِن ثَم لم يندم أي كائن حي وضع نفسه تحت رحمته.

قال بنبرته الودودة المألوفة منه: «والآن، لا تقلق. لا يوجد في الأمر سوء لدرجة تُسَد معها طاقات الأمل. إذا أخبرتني بكل شيء ومن دون أن تخفيَ أي شيء، عندها يمكننا التفكير فيما ينبغي فعله.»

لا يخفى أن وزير الداخلية واجه قدرًا من الصعوبة في البداية. رطَّب شفتيه بلسانه. لاحظ رئيس الوزراء تلك الفعلة. إنه لا يحتسي الكحول البتة، ونادرًا ما يقدم تلك المشروبات إلا عند الوجبات. وعندما أصبح راغبًا في مساعدة وزير الداخلية، تذكر تلك السقطة. «هل تتناول شرابًا؟ أعتقد أن مورتيمر ترك بعض الويسكي في الدولاب هنا.»

قبل الضيف ممتنًّا وصبَّ لنفسه قدرًا كبيرًا. عندما بدأ يشعر بالارتياح بفضل ملمس الزجاج المألوف، استهل قائلًا: «يصعب الشرح، وأخشى أن يبدوَ كلامي لا يصدق، ولكن أريد أن أؤكد أنني لم أخطط لكل ما حدث. أوشكت المفاوضات أن تنتهيَ على ما نرجو، ولكن جريمة القتل البشعة تلك أفسدت كل شيء.» ثم توقف.

تمالك رئيس الوزراء نفسه جيدًا، ثم قال: «نعم، أكمل.»

«لم أكن أفكر في شيء آخر حينما أعرت جينكس إلى جورج أويسيل إلا في أن أبقيَه في مزاج طيب عندما رفض أن يكون لديه حارس من شرطة سكوتلانديارد، وعندما أصرَّ جليسون على ضرورة توفير الحماية له. استحسن جليسون الفكرة حينما اقترحت جينكس. أنت تعرف هذه القصة، أليس كذلك؟»

«أعرفها جيدًا. وبدا لي ترتيبًا يستحق الإعجاب حينما عرضته عليَّ.»

أردف وزير الداخلية بعدما استجمع شجاعته: «حسنًا إذن، تتذكر ... دعني أرى، يوم الخميس الماضي كان قد مرَّ أسبوع، ما أسرع الأيام! ... تتذكر الاجتماع مع أويسيل حينما وصلنا إلى طريق مسدود، حينما لم نتمكن من معرفة ما إذا كانت الشروط التي أصرَّ على وضعها في اتفاقية القرض مجرد خدعة لفرض شروط أفضل على الحكومة أم قصدت مجموعته فرضها بجدية. وحينها اقترحتَ أن أقابله مقابلة غير رسمية وأحاول أن أعرف ما هو الحد الأدنى الحقيقي من الشروط.»

بدأ رئيس الوزراء يتعجب من القدر الذي كان متورطًا به في تلك القضية الكبيرة، قال: «نعم أتذكر.»

«حسنًا، عندئذٍ قررت أن أدعوَه على العشاء في المجلس يوم الإثنين التالي. وكما تعلم، كان إقناعه بقَبول الدعوة بالغَ الصعوبة. وقال إنه لم يترك منزله في الليل مطلقًا، ولكني طمأنته بأن كل شيء سيكون على ما يرام ما دام جينكس هناك.»

«يا ربي، قلت له ذلك بالفعل يا رجل، ثم استخدمت جينكس لسرقة أوراقه. ما الذي كنت تفكر به؟»

قال وزير الداخلية ببساطة: «كنت أفكر في بلدي.» لم يكن يتظاهر الآن. «أؤكد لك أن الفكرة لم تطرأ على عقلي حينما أقنعت أويسيل أن يأتيَ إلى العشاء وطلبت من الشاب ويست أن يجهز كل الترتيبات. لكن عندما بدأت أفكر في الطريقة التي ينبغي أن أتحدث بها إليه — فلم يكن عميلًا سهلًا كما تعلم — ظل عقلي يتردد على تلك المفكرة التي ما برِح يرجع إليها. تذكرت أن جورج لديه ذاكرة سيئة للغاية. ويُضطر إلى أن يدون ملاحظات عن كل شيء، ودائمًا ما يكتبها في صورة شفرات. وقد وضعنا شفرة في أحد مواسم الصيف حينما كنا نخيم معًا. تساءلت إن كان لا يزال يستخدم تلك الشفرة.» توقف وزير الداخلية وأخذ رشفة أخرى وهو ينظر إلى رئيس الوزراء كأنه تلميذ يرمق مدير مدرسته بنظرة أسف.

سأل رئيس الوزراء: «وماذا بعد؟» كانت نبرة صوته هادئة ولم تُنبئ عن شيء مما يفكر فيه.

«حسنًا، لا أستطيع أن أشرح كيف بالضبط، ولكن فكرت فجأة أنني لو حزت تلك المفكرة بضع دقائق فربما نعرف كل ما نريد معرفته؛ لكن هذا إن كان لا يزال يستخدم الشفرة نفسها، وهذا ما اعتقدت أنه مرجح. لم يغير جورج أي شيء شبَّ عليه.»

«ألهذا السبب جلبت جينكس؟»

«لم أحب فعل هذا ولكن ما كنا لنعرف شيئًا بسبيل آخر. بالطبع كان هناك احتمال أن يحمل أويسيل المفكرة معه حينما يأتي إلى العشاء، ولكن أخبرني جينكس أنه عادةً ما يضعها في درج المكتب مع الأوراق الأخرى ويقفل عليها.»

«ألم يتفاجأ وزير الداخلية — من بين الجميع — من أن يقترح عليه جينكس أن يسرق أوراقًا أُرسل كي يحرسها؟»

حتى الحثالة كان سيتأثر بتلك النبرة التي يختلجها الانزعاج، ولكن وزير الداخلية ليس من الحثالة. بمجرد الاعتراف، بدأ يستعيد ثقته المعهودة بنفسه.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتَيه وقال: «عزيزي رئيس الوزراء، أنا وأنت مسئولان عن إدارة صناديق البوليس السري منذ فترة طويلة. هل كل ذلك أسوأ من الأشياء التي تحملنا أنا وأنت وكل من تقلدوا مناصبنا مسئوليتها في أي وقت؟»

«ولكنك أنت وزير في الحكومة، ولا يصح أن تتدخل بشكل مباشر! كان غباءً مستفحلًا.»

«ربما، وبالتأكيد افتقر هذا التصرف إلى الحكمة، ولكن ثمة سؤالًا مهمًّا، هل الأفعال التي يعاقب عليها بطريقة غير مباشرة أخلاقية أكثر لأننا لم نشارك في ارتكابها مباشرةً أم لا؟»

بدأ رئيس الوزراء يشعر بأن زميله يتقدم عليه، وهذا آخر شيء قصد حدوثه.

«لن ندخل في مناقشة فلسفية عن الفضائل الآن. لا يخفى أن جينكس كان يريد المساعدة في تلك الإجراءات.»

«في وقت من الأوقات، كان جينكس فردًا له قيمته بين موظفي البوليس السري. عندما شرحت له أن المعلومات في تلك المفكرة يمكن أن توفر على الدولة ملايين الجنيهات، اعتبر المسألة مجرد مهمة عادية من مهمات البوليس السري التي كان ينجزها منذ سنوات. بالطبع أخبرته بكل التفاصيل. وهو من اقترح تصوير تلك الصفحات. وبالطبع لولا حادثة السطو لسارت الخطة كما خُطط لها بالضبط. كان ينبغي أن تكون لدينا المعلومات التي تجعل لنا اليد العليا على أويسيل، ولا يتذاكى أحد على الآخر. وأنا واثق من أن هؤلاء اللصوص سيتلقَّون العقوبة التي يستحقونها عندما تعثر الشرطة عليهم.»

أسند رئيس الوزراء رأسه إلى الوراء وضحك. قيمة «فلوسي» لا تقدَّر بثمن. لقد ارتكب حماقة لا تُغتفر، فقد انتهك كل الأعراف البريطانية الرسمية. إذا شُكك في تلك الوقائع، فلن تهلك الحكومة فحسب، بل سينهار الحزب كله، وها هو جالس كأنه عمود في كنيسة رسمية أو في أي مؤسسة أخرى رسمية، مصدوم من شر اللصوص المجهولين.

أحسَّ وزير الداخلية بقدرٍ من الإهانة وقدرٍ من الخلاص، قال: «يسرني أنك فهمت القصة على هذا النحو.»

«كيف فهمتها؟ ليتني أصحو قريبًا وأكتشف أن كل تلك الأحداث كانت كابوسًا. لم أسمع أي أخبار حسنة. وما الذي تظن أنه ينبغي فعله الآن؟»

«واجبي واضح وضوح الشمس. سأقف على منصة الشهود في يوم المحاكمة المؤجلة وأسرد الحقيقة كلها ببساطة، وألقي كل اللوم على نفسي وأعفي الحكومة من المسئولية كاملة. وعليه، سأقدم استقالتي إليك قبل أن أغادر مكتبك هذا الصباح.»

نظر رئيس الوزراء إلى زميله وقد عاد إليه احترامه السابق. لم يكن يشتكي حفاظًا على السرية. سيواجه «فلوسي» غضب العامة كما واجه الحشود الانتخابية الغاضبة وانتصر عليها. فهل سينجح؟ في تلك اللحظة العابرة، تساءل رئيس الوزراء ألا تكون تلك القصة أفضل مخرج في النهاية. عندئذٍ، عززت سجيته — التي لا تبرح تعارض التيار العام — اقتناعه بأن حتى «فلوسي» لن يُفلت بحبْك قصةٍ كهذه. لن يصدق أحد أنه — بصفته رئيس الوزراء — لم يكن على علم بذلك. ثم إن هناك حادثة القتل المحرجة. كيف ستُشرح تلك المسائل؟ لا، لا بدَّ من الحفاظ على السرية التامة، ولكن قد يَصعُب ذلك إذا أصيب وزير الداخلية بنوبة من نوبات عناده.

قال متثاقلًا: «مهما كانت الإجراءات التي ستُتخذ في النهاية، يجب ألا تستعجل في شيء، ولا تفعل شيئًا من دون الرجوع إليَّ. أريدك أن تعدني بذلك الآن.»

«بالتأكيد أعدك أن أرجع إليك أولًا. هذا أقل ما يمكنني عرضه.»

«إذن، قبل أن نقرر أي شيء، فأنا أقترح أن تستشير دالبيتي وتخبره بما أخبرتني به.»

«اللورد دالبيتي! ما عَلاقته بهذا الأمر؟»

«دالبيتي يعرف كل شيء باستثناء ما أخبرتني به عمَّا فعلته في تلك القضية. وإنه يشتبه في شيء من ذلك. إنني أثق به تمام الثقة، كما أنه أثبت نفسه في بعض المواقف الصعبة. وبصريح العبارة، إنه أملي الوحيد.»

«لكن إن كان يعلم، فهل يعلم أناس كثيرون غيره؟»

«لا أحد غيره يعلم. ولا حتى الشرطة تعرف شيئًا عن تلك الواقعة. لكن يجب أن تترك تلك المسألة بين يدي الآن، وإلا فسيصبح الحزب في مأزِق. فلا يمكن لأي بيانات نفي تصدرها أن تُنقذ هيبتنا إذا عرَف العامة بتلك الواقعة. فكر في العناوين التي ستسطرها صحف المعارضة.»

نكس وزير الداخلية رأسه على يديه. قال بنبرة حزينة: «لم أتخيل البتة أن أصل إلى تلك المرحلة حينما عرض حامل مسدس الفرصة الوحيدة للخروج من تلك الورطة.»

قال رئيس الوزراء وهو يقبض على كتفيه رعبًا: «حبًّا بالله يا رجل، يجب ألا تقترف خطأً من هذا النوع. ولن أسمح لك بالخروج من هذه الغرفة حتى تعاهدني على ألا تفعل ذلك. وإلَّا فسنقع في فوضى أشد من ذي قبل.»

«حسن جدًّا. سأفعل ما تراه الأفضل.»

تأثَّر رئيس الوزراء بنبرة التعب التي خرجت من الرجل العجوز. قال: «دالبيتي هنا. طلبت منه أن يأتيَ من أجل استشارة. سأراه في غرفة الجلوس. هلا اتكأت على الأريكة هنا واسترحت لبعض الوقت؟ كل هذا الإرهاق بعد السفر طَوال الليل ليس هينًا.» بتلك العذوبة التي يعرف رئيس الوزراء كيف يحسن استخدامها، ترك ضيفه على الأريكة وخرج يبحث عن دالبيتي.

الفصل السابع عشر

لما كان رئيس الوزراء يتحاور مع وزير الداخلية في المكتب برئاسة الوزراء، طُلب من روبرت ويست الحضور إلى منزل رئيس الوزراء الكائن بشارع داونينج الساعة العاشرة والنصف، ولما دخل إلى غرفة الجلوس، وجد اللورد دالبيتي جالسًا يكتب أمام المكتب الكبير.

«آه، أوقد أتيت يا ويست؟ صباح الخير. اجلس واطلع على الصحف الصباحية. لا يزال وزير الداخلية مع رئيس الوزراء.»

قال روبرت: «أوَقد وصل؟ لا أعرف إن كان سيغير ترتيباته. وهذا أكثر شيء يكرهه.»

علق دالبيتي بنبرة جافة لما عاد إلى عمله: «لم تطلع على التلغراف.»

كانت الغرفة الصغيرة هادئة إلى حدٍّ كبير. المنظر الرائع لموكب الحرس الخيالة جمَّلته أمطار الصيف. تشتعل جذوة من النار داخل المِدفأة. تصميم داخلي إنجليزي بسيط تُصمم على غراره آلاف المنازل المريحة ولكن تُعوزه الإطلالة من النوافذ. لكن يبدو أن اللورد دالبيتي لا ينسجم مع تلك الراحة الهادئة. انتهز بوب الفرصة كي يتعرف عليه. يجلس في هدوء مرتديًا بدلة عادية زرقاء وربطة عنق حريرية سوداء، ويقرأ المستندات ويدون ملاحظات عليها من وقت لآخر، وكأن الرجل يشع بالطاقة على الرغم من أن جسده لا يكاد يصدر حركة. استشعر روبرت مدى تركيزه.

جلس بوب في كرسي بذراعين وأخذ يدخن بهدوء ويتأمل في النفوذ إذ كان دالبيتي واحدًا من تلك القوى المركزية والمباشرة، شخصية ذات قامة في الأعمال المالية الخاصة مثلما كان جورج أويسيل.

ما الذي ينوي رجال مثل أويسيل ودالبيتي فعله في إنجلترا، ذلك البلد الذي تعلم روبرت عنه في المدرسة والجامعة أنه مركز الكون يحكم نفسه عبر برلمانه الخاص المنتخب. أصبحت القوة في يد أشخاص أمثال دالبيتي وأويسيل الآن. وبالنسبة إليهما ومَن على شاكلتهما أيًّا

كانت جنسيته، فإنجلترا ليست سوى حدث، مجموعة من الإحصاءات. يتخطى نطاق اهتماماتهم الحدود الدولية. ولكن إذا كان لهم أي دَور في السياسة، فهل ينتمون إلى الحزب نفسه مثل العقيد ستيوارت أورفورد على الرغم من أن بقاء مصلحتهم المشتركة مع هذا الناجي البائس — صاحب وسام الخدمة المتميزة وميدالية صليب الحرب — يُعزى إلى البسالة الشخصية التي يبدو أن مساحتها تتضاءل في عالم يسعى أمثال أويسيل ودالبيتي إلى إنشائه؟

كان دالبيتي رجلًا سليم البدن ومُفعمًا بالنشاط، ولكن المعاقين البؤساء أمثال جورج أويسيل كان لديهم القدر نفسه من النفوذ. كانوا يُنشئون عالمًا جديدًا قائمًا على السندات والديون والرهون العقارية والصناعات الضخمة والمضاربات ذات المخاطر العالية، ذلك العالم آتٍ ومعه مجموعة جديدة من التقاليد ومعايير القيم، كذلك أتى ومعه ضرب جديد من الفن والموسيقى وفرق الجاز والسينما ذات الإنتاج الضخم.

انتهى دالبيتي من عمله. وضع المستندات في ظرفٍ كبير وأغلقه واستدعى أحد الخدم وأمره أن يأخذ الطرد إلى مكتبه الخاص في فيكتوريا على الفور.

جلس على الكرسي ذي الذراعَين المواجه لبوب وأشعل سيجارة، قال: «عذرًا على انشغالي. إنها عادة قديمة لديَّ. لا أخرج من دون أن آخذ بعض الأعمال في يدي. إنني أجد راحتي في ذلك. والآن، أخبرني عمَّا جال بعقلك عندما كنت تنظر إليَّ نظرة جدية.»

ارتبك روبرت لما علم أنه لوحظ، ولكن لمَ إهدار الكلمات في أعذار تقليدية في حين أن هناك فرصة للتحدث إلى رجل مثل دالبيتي؟

«كنت أفكر أنك وأويسيل كنتما ثوريين حقيقيين. رأيت المسيرة التي أطلقتها الشرطة الأسبوع الماضي وكانت تندد بالبطالة. حينها، اعتقد أصحاب الطبقة الوسطى العجائز المروعون أن هؤلاء الشباب الفقير هم الثوريون الذين يُخشى منهم. أما أنتم الذين تقهروننا بعملية تضخم بسيطة فتعتبرون في مأمن حقيقي وأناسًا محترمين.»

ردَّ دالبيتي مبتسمًا: «أعلم أنه أُطلق عليَّ لقب ملك القراصنة في البرلمان، وهذا اللقب لا ريب أنه انطبق على أويسيل تمامًا في مرحلة من مراحل حياته المهنية.»

طرأت فكرة على عقل روبرت. «هل ملوك القراصنة لديهم حروب صغيرة وكان أويسيل من بين ضحايا تلك الحروب؟»

«تلك الفكرة التي أعكف عليها، ولديَّ بعض المعلومات التي تدعم تلك النظرية. ولكن يجب أن نسمع قصة وزير الداخلية أولًا. لا بدَّ أنهما ينتظران منذ وقت طويل.»

رنَّ هاتف المنزل. أجاب دالبيتي عليه. قال: «رئيس الوزراء آتٍ الآن.»

مشى روبرت نحو النافذة ووقف عندها حتى ظهر رئيس الوزراء. بدت العصبية والقلق على مُحيَّاه.

سأل روبرت: «هل أذهب وأنتظر في مكان ما يا سيدي؟» نظر رئيس الوزراء إلى دالبيتي. قال اللورد: «لا أعتقد ذلك، هل تظن أنه ضروري؟ إنه يعرف الكثير عن الوضع ولا غضاضة من إخباره الباقي، كما يمكن أن نحتاج إليه.»

قال رئيس الوزراء وهو يجلس على مكتبه: «حسن إذَن.» أعاد القصة التي رواها وزير الداخلية بوتيرة سريعة ونبرة أبرزت غضبه. قال موجزًا: «ويريد أن يقف على منصة الشهود يوم الخميس ويعترف بكل شيء.»

صاح دالبيتي: «ستعم فوضى كبيرة. ولن تكون محاكمة كايلو شيئًا مقارنةً بتلك المحاكمة. كذلك ستتسبب في إثارة المشاكل مع الدول الخارجية مثل قضية دريفوس الإنجليزي. أما تطلع على الصحف الفرنسية؟! ما بالك بالصفحات الأولى في صحيفة «هيرست بريس»! الأجدر به أن يُطلق الرَّصاص على نفسه قبل أن يفعل هذا.»

قال رئيس الوزراء: «لقد اقترح هذا بالفعل. وأنا جعلته يعدني بألا يقترف أي تصرُّف من هذا القبيل.»

خيم الصمت على الغرفة. جلس رئيس الوزراء على مكتبه منكسًا رأسه بين يديه. جلس دالبيتي على مسند الأريكة المبطنة يمضغ عقب سيجاره. وقف روبرت مسندًا ظهره إلى النافذة. أخذ يتصوَّر كل منهم عواقب اعتراف وزير الداخلية — أزمة دولية، ذعر مالي، حل لا مفرَّ منه للبرلمان، انهيار الحزب، وكل هذا بسبب تصرُّف عجوز مشوَّش الذهن ظن أنه يتمتع بالمهارة. بدا الجزاء هزليًّا وغير متناسب مع النية الدافعة لهذا الجرم.

بالطبع دالبيتي هو الذي بدأ الكلام وتولى إدارة الحوار. «يمكننا عزل المشكلة عن وزير الداخلية. يجب أن يمكث في المنزل ونقول أصابته نزلة إنفلونزا. وإلا فسيثير الشبهات بسبب مظهره البائس. بعد ذلك يمكننا حل لغز موت أويسيل والسطو على شقته. إما كل واقعة قائمة بذاتها أو أنهما مرتبطتان كل منهما بالأخرى. هناك شيء واحد مؤكد — إذا تتبعنا سبب هاتين الواقعتين أو حتى واقعة منهما، فيمكننا أن نُخفي الاضطراب البسيط الذي اعترى وزير الداخلية تمامًا، وعندها يمكنه تقديم استقالته بهدوء بسب اعتلال صحته حينما تهدأ هذه الضجة.»

نظر إليه رئيس الوزراء متحمسًا. «نعم بالطبع، هذا أفضل سبيل للخروج. وزير الداخلية ليس له مصلحة من موت أويسيل. ومن الواضح أن رجله مات دفاعًا عن ممتلكات أويسيل. إذا تمكنا من العثور على القتلة، فلن نحتاج إلى أن نقول شيئًا على الإطلاق.»

فكر روبرت في نفسه قائلًا: «إن استطعنا، ولكن هل سنتمكن من الإمساك بهم؟» قال بصوتٍ عالٍ: «وماذا عن جلسة النقاش الليلة حول المحاكمة المؤجلة؟»

هنا، أحسَّ رئيس الوزراء أنه أصبح في ملعبه. «بما أن وزير الداخلية سيتغيب بسبب المرض، فسأكون أنا مكانه. يمكنني أن أقول للمعارضة عبر القنوات المعتادة إننا على مشارف اكتشافات مهمة ولا ينبغي لنا أن نجازف بإعلانها. وعندها سيطلبون من أتباعهم الهدوء. ولكن يجب أن نُصدر بيانًا من أجل المحاكمة يا دالبيتي.»

«متى ستُعقد؟»

قال بوب: «لقد تأجلت إلى يوم الخميس.»

قال دالبيتي: «إذن، لدينا ثلاثة أيام. سأنضم إلى ويست إذ أصبح محققًا هاويًا. يجب أن أُبقيَ عينًا عليه يا سيادة رئيس الوزراء وإلا فسيأخذ مجلس الوزراء بالكامل إلى حبل المشنقة.»

ابتسم رئيس الوزراء. «سيكون هذا تطبيقًا عمليًّا لمزحة مجلس الوزراء القديمة وهي إن لم نُعدَم مجتمعين، فسنُعدَم منفصلين. ولكن أنا ممتن لك كثيرًا يا دالبيتي. هل لي بكلمة مع جليسون؟»

قال دالبيتي وهو يلتفت إلى روبرت: «ما مدى معرفته بما جرى حتى الآن؟»

أجاب بوب بوجهٍ مكفهر: «لا أحد يعلم كم المعلومات التي لديه.»

قال وهو يلتفت إلى رئيس الوزراء: «الموظف المدني المثالي! أعتقد أن الأفضل أن أراه بنفسي. ربما إن أخبرته سيادتك بمرض وزير الداخلية وأنني أهتم بالقضية بحكم معرفتي بأويسيل العجوز، فقد يكون هذا كافيًا إلى أن أتمكن من الحديث معه.»

«جيد. سأفعل ذلك. والآن، يجب أن أقول إلى اللقاء. الوفد منتظر منذ نصف ساعة. ولكني أعتمد عليكما لإخراج الحكومة من تلك الفوضى.»

أحسَّ روبرت أن اللغز يتساوى في النفع مثل حله عندما كان ينزل على السُّلَّم خلف اللورد دالبيتي إذ قرنه رئيس الوزراء معه لما ودعهما (يا لها من فرحة!). انتهى القلق الشنيع الذي سبَّبته عطلة نهاية الأسبوع. لا ريبَ أن دالبيتي لن يُخفق ... ولكن ماذا إن أخفق؟

لما نزلا إلى شارع داونينج، قال دالبيتي: «أعتقد أنني سأذهب وأُلقي نظرة على الغرفة جيه الغامضة.» عندما أشار بوب، قال: «لا، لا أتوقع أن أعثر على أي شيء هناك. ولكني أكره الألغاز. إنها تزعجني.»

أحسَّ روبرت أن عليه الاعتذار عن البرلمان القديم البائس لأنه أصرَّ على أن يحدث بداخله لغز على الرغم من أنه على علم بأن اللورد دالبيتي لا يحب الألغاز.

توقف المطر وكانت أشعة الشمس تخترق السحب وهما يمشيان عبر ساحة القصر معًا. لتفادي السلالم غير الضرورية، اصطحب روبرت رفيقه عبر الفناء الخاص برئيس المجلس وعبر به من تحت الأقواس التي تؤدي إلى مجلس اللوردات.

نظر دالبيتي من حوله من منطلق الفضول. «لعلمك، ما سبق لي المجيء إلى هنا! وما برحت أدخل من باب أعضاء مجلس اللوردات. إنه مكان يثير الفضول. يُخيَّل لي أن فوجًا من القتلة يمكن أن يختبئ هنا من دون أن يراه أحد.»

ضحك روبرت. قال: «ما فتئت أقول إن فرص ارتكاب جرائم القتل كثيرة في المجلس. لا يخلو المجلس من فتحات التهوية العمودية والممرات الغريبة والزوايا العجيبة التي يمكن أن تُخفى فيها الجثث لأيام. ولكن المحير في اللغز الذي بين أيدينا هو حدوثه في أقل الأماكن غموضًا في مجلس العموم؛ إذ وقع بعيدًا عن كل تلك الممرات. لا يوجد شيء هنا سوى غرفة طعام كبيرة وطرقة مستقيمة وغرف طعام صغيرة تفتح على الطرقة مباشرةً. ها هي الغرفة جيه ... يمكنك رؤيتها بنفسك.» الشرطي الواقف على حراسة الباب هو روبنسون ضحية الحادث الذي وقع ليلة الخميس الماضي. سأله روبرت مبتسمًا: «هل استعدت صحتك؟» وفجأة، تذكَّر أنه لم يخبر دالبيتي عن هذا الجزء من القصة حتى الآن.

ردَّ الشرطي وهو يفتح لهما الباب: «بخير حال يا سيدي، شكرًا لك. كان المفتش بلاكيت هنا منذ فترة قصيرة يا سيدي. قال لي أن أخبرك بأنه يريد رؤيتك إن أتيت.»

دخل دالبيتي إلى الغرفة الصغيرة المبطنة بألواح البلوط. قال: «أغلق الباب.» أطاع روبرت الأمر. «أين جلس أويسيل؟»

«في نهاية المائدة، في مواجهة الباب. على الأقل، هذا المكان الذي تركه فيه الوزير وبما أنه مصاب بإعاقة بليغة، فلا يُحتمل أنه تحرك كثيرًا. ولكن، ربما انتقل من مكانه.»

«هل حاولت الشرطة تتبُّع مسار الرَّصاصة؟»

«حاول بلاكيت تتبعه فور وصوله وأمر الخبراء بتتبعه، ولكن الرَّصاصة أحدثت فوضى جعلت من المستحيل معرفة مصدرها. لقد أصابت إحدى العظام وهشَّمتها تهشيمًا سيئًا. إضافة إلى ذلك، سقطت الضحية من فوق الكرسي وصعب علينا معرفة جِلسته.»

«وماذا عن الرصاصة؟»

«إنها مطابقة تمامًا للرَّصاص الذي يستخدمه أويسيل في مسدسه، المقاس نفسه وكل شيء. ربما انطلقت من مسدسه، ولكن بلاكيت أقنعنا أنها لم تنطلق منه.»

«إذن، أيًّا كان الشخص الذي أطلق الرَّصاصة، فهو يعرف أويسيل وممتلكاته حق المعرفة لدرجة أن يستخدم نوع الرَّصاصة نفسه.»

«ما لم يكن محض صدفة. الرصاصتان صناعة إنجليزية ومن العيار القياسي.»

«كم عدد العارفين بتنظيم هذا العشاء؟»

«من جانبنا، أنا ووزير الداخلية فقط. أنا من قمت بالمراسلات اللازمة وليس المكتب.»

«الموظفون في المطبخ، هل كانوا على علم؟ هل علموا أن العشاء مُعَد من أجل أويسيل، أم أنك طلبت العشاء لنفسك وحسب؟»

فكر روبرت في هذا الاقتراح الجديد. قال مفكرًا: «لا أظن أنني أسررته على وجه الخصوص. لم يلزم التكتم عليه. لم يرد وزير الداخلية أن تعرف الصحافة شيئًا بشأنه، ولكن الموظفين في المطبخ مطيعون في هذا الأمر. إنهم لا يتحدثون إلى الصحافة. ويُنزل المدير بهم عقابًا شديدًا إن فعلوا ذلك.»

«هل كان المدير على علم بأن الضيف هو السيد أويسيل؟»

«نعم، بالتأكيد كان على علم. أخبرته لأنه كان ينبغي طلب طعام مخصوص له.»

«جيد، سنتحدث إلى المدير إذن.»

أتى مدير قسم المطابخ بسرعة إليهما. أتى على أمل أن تلك القضية حُلَّت، حيث غرفة من أفضل غرف الطعام لديه كانت خارج الخدمة في تلك الفترة. لقد عُرضت عليه رسوم كبيرة لاستخدام تلك الغرفة من أعضاء أرادوا الاستمتاع بشعور رهبة الموت، ولكنه يخضع لتعليمات تقضي بضرورة عدم استخدامها، وكان الشرطي الذي يحرس الباب كي يمنع أي شخص غير مصرح له بالدخول بمثابة تذكير غير سار بتلك المأساة لكل رواد المدير الآخرين.

مع ذلك، أكد المدير تأكيدًا واضحًا أنه لم يخبر أحدًا بهُويَّة ضيف المدير باستثناء خادم الضيافة الذي نقل إليه تعليمات السيد ويست الخاصة. قال اللورد دالبيتي: «إذن، لنرَ خادم الضيافة.»

لما كانا في انتظار المدير كي يحضره، قال روبرت: «تعرض هذا الخادم للتنمر والرهاب إلى حد الجنون. ولكن لم تتمكن الشرطة من فهم أي تفاصيل مما رواه.»

قال دالبيتي بعفوية: «هذا غريب. نادرًا ما يكون الأبرياء على أهبة الاستعداد بهذا الشكل.»

لكن لم يخرج دالبيتي بمعلومات من خادم الضيافة أكثر من الشرطة. من الواضح أن الرجل كان متعبًا وقلقًا. أوضح المدير أن الشرطة استجوبته كثيرًا لدرجة أنه كان يعاني سوء النوم والقلق الشديد. لكنه لم يُضف شيئًا على ما ذكره في التحقيق. أُخذت كل ثانية ما بين مغادرة وزير الداخلية وصوت الرصاصة في الحسبان. وانطلاقًا من شفقة دالبيتي الكبيرة تجاه الرجل الذي تعرَّض للمضايقة، دس له ورقة بقيمة جنيه إسترليني.

حينما أصبحا في الغرفة بمفرديهما مرة أخرى، تفحَّص دالبيتي النوافذ الضيقة ذات المشابك الثقيلة والألواح الصلبة والخزانات الصغيرة وحتى الأرضية والباب الثقيل المتقن التركيب. لا يمكن لفأر أن يدخل إلى تلك الغرفة ذات البناء المنيع إلا من خلال الباب. قرَّر روبرت أن تلك اللحظة مواتية كي يقص عليه ما حدث ليلة الخميس. صفَّر دالبيتي.

«إذن، إما أنهم يحاولون محو آثارهم أو الحصول على شيء خلَّفوه وراءهم. هل أقول إن تلك نظرية بلاكيت؟»

«إما هذا أو ذاك، أو ربما حتى يخططون لعملية اغتيال أخرى ... وزير الداخلية على سبيل المثال.»

ابتسم دالبيتي: «حسنًا، قد يكون هذا القدر الضئيل من العمل مفيدًا في الوقت الراهن. لكن ينبغي لنا ألا نؤمِّل في هذا القدر. سأرى بلاكيت بعد ظهر اليوم. بعد ذلك، يمكننا زيارة شقة أويسيل في تشارلتون كورت. ولكن يُخيَّل لي أن المفتاح الأساسي لحل اللغز مخفي هنا. والآن، هلا وجدت لنا مكانًا لتناول الغداء؟»

سأل روبرت بجرأة كبيرة: «هل تهتم بتناول الغداء معي؟»

«فكرة ممتازة. هذا سيبقيني في أجواء مجلس العموم ... ولكن إذا وعدتني أن أخرج من هنا حيًّا. كيف لي أن أعرف أنك لم تشنَّ حملة مهلكة ضد جميع الممولين وأنك أنت الذي قتل أويسيل العجوز؟»

لما دخلا معًا إلى غرفة الطعام الخاصة بالغرباء، ضحك روبرت: «سأبدأ في الاعتقاد بأني الفاعل عما قريب.»

لما جلسا، سأل دالبيتي: «من تلك الفتاة الحسناء؟»

«إنها جريس ريتشاردز، عضو عن دائرة شرق ستيبني.»

«اشتراكية بالطبع؟»

«نعم.»

«إذن، هل تعرف عنها الكثير؟ يبدو أنها تبتسم لك ابتسامة رقيقة للغاية.»

أحسَّ روبرت بعدم الارتياح؛ إذ لا يعلم إلى أين تتجه تلك الأسئلة، قال: «جميل جدًّا.»

«إذن، لماذا لا تُشركها في مُهمَّة التحقيق التي تقوم بها؟»

قال روبرت متحيرًا: «ساعدتني قليلًا، ولكن ما الذي يمكن أن تفعله على وجه الخصوص؟»

«اجعلها خلف خادم الضيافة ذاك وموظفي المطبخ. اطلب منها أن تتحدث إلى العامل في غرفة التخزين الذي كان يُعد القهوة التي ذهب الخادم لإحضارها. فتاة في حسنها يمكن أن تقوم بالمهمة من دون أن يحتاطا لأمرها. اطلب منها أن تعرف بلباقة هل كان هناك خدم غرباء في تلك الليلة أم لا.»

«لكن الشرطة فعلت ذلك بالفعل. على حد علمي، استجوب بلاكيت كل الموظفين الذين كانوا موجودين في عملهم.»

«الشرطة لا تقارَن بموظف تلقى تدريبات كبيرة، لا سيما موظف تربَّى على إمساك لسانه في مكان مثل مجلس العموم. درس قاسٍ علَّمني تلك الحقيقة عندما كنت أحاول الطلاق. علمت زوجتي تلك الحقيقة، وأنا دفعت الثمن.»

نظر روبرت إلى دالبيتي بنظرة اهتمام جديدة. إنه لا يتذكر أي «قضية مشهورة» لها عَلاقة به. هل وقع الطلاق؟ في تلك الحالة، فإن زوجة دالبيتي التي رأى صورها في الصحف الرياضية لن تكون عقبة أمام اهتمام دالبيتي بأنيت أويسيل.

سأل روبرت محاولًا تغيير الموضوع بتأدُّب: «هل تظن أنه يمكن العثور على شيء في شقة تشارلتون كورت؟» على أية حال، لا يمكن سؤال رجل هل وقع طلاقُه في النهاية أم لا. ولكنه تساءل هل اقتراح دالبيتي بالعمل في شقة أويسيل يهدف إلى تقديم عذر كي يكون بجانب أنيت أم لا. ألا يتملص كي يصل إلى مبتغاه؟ يشعر روبرت بألم غريب حينما يفكر في أنيت لما كانت جالسة في تلك الليلة قبل العشاء في صالة كلينتون باردسلي.

«حسنًا، في رأيي أن المسار المُجدي الوحيد هو أن نتتبع القاتل إن لم نستطع أن نقف أمامه ونرى من أين خرجت الرَّصاصة. يجب أن نعرف من يُكِن هذا الكره ضد أويسيل العجوز لدرجة أن يرغب في المخاطرة من أجل قتله، وكي أكون صريحًا الشخص الوحيد الذي أعرفه هو أنيت أويسيل نفسها.»

«أنيت!» هرب الدم من وجه روبرت. «لكن هذا غير معقول. لقد أخبرتني بنفسها كم كان جَدها كريمًا معها ولم يطلب في المقابل إلا النزر اليسير.»

«أنت رأيتها صباح اليوم التالي لوفاته. هل كانت شديدة الانزعاج؟»

تذكر روبرت هدوءها وتمالكها لنفسها، وبعد ذلك في شقتها في ذلك المساء، ملابسها الليلية ورغبتها في المجيء واحتساء الشاي في الشرفة في ذلك النهار على الرغم من مراسم الحداد.

قال مدافعًا عنها: «إنها شديدة التحفظ بالطبع، إنها متحفظة دومًا. ولكنها لا ترتكب تلك الجريمة. هذا غير معقول. الناس لا يفعلون أشياء كتلك.»

ناول دالبيتي نفسه قطعة جبن. «وزير الداخلية على سبيل المثال. بالمناسبة» وحاول إخفاء ضحكه «سيكون الموقف مذهلًا إذا كانت النتيجة النهائية لمساعينا المتضافرة لاكتشاف قاتل أويسيل هي الاضطرار إلى رمي أنيت أو وزير الداخلية في مهب الريح.»

«لكن لماذا تريد أنيت قتل رجل عجوز ستئول إليها أمواله في النهاية، وذاك الرجل بالتأكيد لم يبخل عليها عندما كان حيًّا؟»

«إنها قصة غريبة، كما أن أنيت وجدها أناس غريبو الأطوار. إنهما من شعب الباسك، وهم أناس همجيون حقًّا. أتى أويسيل الكبير من قرية يسكنها شعب الباسك في إيتاكسو وأراد بشدة أن تتزوج أنيت من نبيل إسباني. كان حلم حياته. وببساطة، لم يكن الرجل الذي تنظر إليه أنيت. أخبرت جدها أن تترك له المال مقابل أن يدعها تعيش حياتها كما تريد. خمدت المعركة بعض الوقت أثناء المفاوضات بشأن القرض. لكن كان المزمع أن تصحب أنيت الرجل العجوز إلى باو من أجل العلاج الجديد لتجديد الشباب، ولكن أظن أنها توقعت أن يبدأ الصراع القديم مرة أخرى.»

«لكن كان بإمكانها هجره من دون قتله. عجبًا، المجوهرات التي كانت ترتديها حينما ذهبت إلى شقتها تكفيها لسنوات إن لم يعطها العجوز بنسًا واحدًا إضافيًّا. إنه سخف.»

«لكن شعب الباسك ليسوا كذلك. إنهم لا يبعدون بهدوء. تاريخهم مليء بعمليات القتل. والآن»، حينها تأفف روبرت بعدما نفِد صبره «أنا لا أتهم أنيت بالتخطيط للقتل. أقول ببساطة إنه على حد علمي بدائرة معارف هذا الرجل، فإن أنيت هي أكثر شخص كان يثير غضبه، وهي أكبر مستفيد إن لم تُكتشف.»

«لا أصدق ذلك. لا أصدق ذلك حتى لو أخبرتني بنفسها. إنها غاية في الرقة، غاية في التحضر، إنها ...»

«هل تملكتك بتلك الطريقة أنت الآخر؟ آه يا أنيت، ما أكثر الرجال الذين أوقعتِهم في أشراكك. لم أقابل حتى الآن رجلًا استطاع أن يقاوم ابتسامتها المتثاقلة أو عينيها. والآن، سأقص عليك بعضًا من حكاياتها.»

«لا أريد أن أسمعها!» في نوبة الغضب تلك، نسي روبرت المكان من حوله تمامًا وانتفض واقفًا على قدميه، ما أثار دهشة المحامين ذوي الشعر المستعار الذين يتناولون الغداء على الطاولة المجاورة وما أثار دهشة كبيرة لدى جريس روبرت؛ إذ كانت تشاهد طاولتهما باهتمام طوال تناولها لوجبتها.

نهض دالبيتي هو الآخر، وأدت لا مبالاته إلى إيقاظ روبرت من غفلته ومواراة فعلته. أشار إلى خادم الضيافة: «كلا، عذرًا يا لورد دالبيتي. هذا غدائي.»

«أوه، نعم. اعذرني، لم أستطع الدفع هنا بالطبع.» انتظر عند الباب ريثما أنهى روبرت الإجراءات الرسمية والتحق به. وضع يده على ذراع الشاب.

«والآن، لم أُرد مضايقتك، يمكنك أن تنسى ما قلته إذا أحببت. لن تُوجَّه التهمة إلى أنيت على أية حال. سأهتم بذلك. لكن لا فائدة من محاولة حل لغز كهذا من دون الاستعداد لمواجهة أي احتمال والتنصل من العواطف. ابحث عن الحقيقة، ثم دع مشاعرك تملي عليك ما ينبغي لك فعله إزاء تلك الحقيقة. وفي نظري، تلك هي الطريقة العقلانية الوحيدة. حري بنا أن نكتشف نحن الحقيقة — إذا كان فيما قلته شيء منها — بدلًا من أن تجد أنيت نفسها بين يدي المفتش بلاكيت. ألا تتفق معي؟»

قال روبرت ذو القلب المحطم: «نعم، بالطبع.»

«جيد. إذن، انطلق وأرني ما يمكنك فعله مع الآنسة ريتشاردز.»

ترك دالبيتي روبرت بعد مصافحة حارة وكما هو واضح كلَّفه بعمل من أجله، ولكن الشاب أحسَّ بعدم الارتياح لأنه أُمر بالذَّهاب والتسلية مع جريس روبرت بينما الكبير أخذ العمل على محمل الجِد.

لكنه لا يستطيع مواجهة جريس في الوقت الحالي. ذهب إلى الشرفة؛ ملجأ العديد من الرجال ذوي مشاعر القلق. لو أن إلقاء الهموم من فوق هذا الحاجز ورميها في نهر التيمز أمر محسوس، لَما توقَّف هذا النهر عن الفيضان.

مشى متثاقلًا إلى المكان المخصص لأعضاء مجلس اللوردات، حيث خصوصيته ليست عرضة للمقاطعة المستمرة مثلما يحدث في المكان المخصص لأعضاء مجلس العموم. يعتقد العديد من أصحاب المشاعر المتقدة أن عضو البرلمان الذي يمشي منفردًا لا بدَّ أنه يشعر بالوحدة والبؤس ويلوحون له مبتهجين كي ينضم إلى جماعتهم المرحة! يكاد مجلس العموم أن يُصبح مهجورًا كالصَّحْراء في بعض الأحيان، ولكن يصعب أن تجد الهدوء فيه.

اتكأ ويست على الجدار القصير ونظر إلى النهر تحته، وأحسَّ بارتعاش كل خلية عصبية في جسده. حتى بينه وبين نفسه، لم يعترف البتة بالتأثير العاطفي الجبار الذي

تتركه فيه رؤية أنيت. قال لنفسه إنه انفعل وتوتَّر بسبب التأثر الكبير بجريمة القتل وقلقه إزاء جينكس ووزير الداخلية. أمسى يعرف أن كل هذا مجرد هراء. لقد وقع في حب أنيت أويسيل، وقع في حبها يائسًا وفاقدًا للأمل. وأنيت الخطر محدق بها. بالطبع إلقاء الذنب عليها سخف، ولكن إن كان دالبيتي يفكر فيها بتلك الطريقة، فربما يفكر الأقل تودُّدًا إليها أيضًا بتلك الطريقة. يمكن إلقاء القبض على المشتبه بهم. جمال أنيت وأناقتها في غياهب السجن — إنها أفكار لا تُحتمل. أسرع عقله إلى الاحتمالات الأخرى. وجد نفسه ينسج في خياله محاولات جامحة لإنقاذ أنيت؛ إذ يقلع معها في طائرة ويسافران إلى جزيرة رائعة في البحر الجنوبي، ويقبعان معًا …

سمع صوتًا رقيقًا وعذبًا يقول: «هل الأحوال سيئة إلى هذا الحد الظاهر عليك؟»

انتبه روبرت من حُلم يقظته واستفاق متثاقلًا كأنه يستيقظ من النوم.

«عذرًا يا جراسي. هل بدا الغضب على وجهي؟»

«أتقول غضبًا؟ كأني بك على وشك أن تدق عنق أحدهم. وكنت تقبض على سطح الحاجز وكأنك ستهدمه مثل شمشون. هل لي أن أسأل ما الأمر؟»

«بالطبع. في الحقيقة، كنت آتيًا للبحث عنك. أنا بحاجة إلى مساعدتك مرة أخرى.»

«ألا تتعلق المسألة بمايكل البائس؟ لا فائدة من ذلك، لن يتنحى الليلة عن خطابه بشأن الجلسة المؤجلة. لم أتمكن من فعل ذلك سوى مرة واحدة.»

قال روبرت بحزم، محاولًا أن يعطيَ انطباعًا بالثقة بأنه لم يكن يتحدث من منطلق العاطفة: «أوه، ليس الأمر كذلك. سيحضر رئيس الوزراء هذه الجلسة بنفسه. لن ينجح هولدزوورث في الخروج بكم كبير من المعلومات. إضافة إلى ذلك، لقد وضعنا زعيم المعارضة كي يسحقه. جُهِّزت كل تلك الأمور.»

«إذن، ما المشكلة؟ ظننت أنك تخشى جلسة المجلس أكثر من أي شيء؟»

«كنت كذلك فيما مضى. ولكن الآن، نرتب المسائل من أجل المحاكمة يوم الخميس، ومِن ثَم لا صعوبة في التنصل من قول أي شيء الليلة. ولكن سأقول لك المشكلة. ما نخشاه الآن هو أن أحدًا ما — لكن لا يمكنني ذكر اسمه ولكنه شخص بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب — سيمر بوقت عصيب كي يثبت أنه لم يرتكب جريمة القتل، إلا لو عثرنا على أدلة أكيدة قبل يوم الخميس.»

«أوه، يا للخزي! بالطبع أود المساعدة في إيقاف هذا الأمر.»

امتن روبرت للقدر الذي توصل إليه معها؛ إذ كان يخشى أن تغضب لَمَّا يطلب منها أن تستفسر من الموظفين وتقول إنها لن تؤديَ عملًا من اختصاص الشرطة وتتجسس على العمال. شعر أنه لا يصح أن يلومها إن اتخذت هذا المنحى.

«حسنًا، سأقول لك. تتبعنا كل مفتاح لحل اللغز، واللورد دالبيتي — ذلك الرجل الذي كان يتناول الغداء معي اليوم — مقتنع أنه لا بدَّ أن هناك شخصًا لم يُتَعقَّب، وهذا الشخص كان في قاعة هاركورت أو بالقرب منها أو في المطابخ تلك الليلة. أجرت الشرطة التحقيقات، ولكنها لم تتوصل إلى أي شخص. يشك دالبيتي في خادم الضيافة، وتراوده فكرة غريبة بأن العاملة في غرفة التخزين التي أعدت القهوة قد تقول أي معلومة إن تقرَّب إليها شخص لا تخاف اقترابه منها. قد لا يكون لديها معلومات. إنها فرصة ضئيلة للغاية، ولكن إن لم نتوصل إلى شيء قبل يوم الخميس، فقد يسبب ذلك إخفاقًا فادحًا في تطبيق العدالة.»

سلك روبرت الطريق الصحيح. لقد رأى أثر ذلك. إنها ليست من الشخصيات التي تتأثر بالصعوبات التي تواجه الحكومة، ولو كان لديها أدنى فكرة عما اقترفه وزير الداخلية لكانت أول من يذيع الخبر. ولكن فكرة أن شخصًا بريئًا يواجه تهمة كهذه استقطبت اهتمامها.

قالت بصوت هادئ: «اترك تلك المسألة لي. أنا أعرف عاملات النظافة وأعرف العاملات داخل المطابخ وما يتعلق بها. وكثيرًا ما أذهب وأتحدث إليهن. أنا متأكدة إن كان لديهن معلومات، فسيقلنها لي.»

«جراسي، لا أستطيع أن أوفي شكرك، وعندما تعرفين القصة كاملة — وبالتأكيد ستعرفين كل تفاصيلها، سترين أن المسألة تستحق تلك المساعدة.»

وقفا للحظة ينظر كل منهما إلى الآخر. ربما الاضطراب في قلب ويست كان السبب في تورُّد وجه جريس المفاجئ. غضت الطرف عنه.

قال صوت مألوف: «عذرًا على المقاطعة، ولكن أيسمح أحد منكما بعلبة ثقاب؟» رفعت جريس ناظرها متحيرة ونظرت في وجه سانكروفت المبتهج. قالت: «أوه ... إممم ... عذرًا، أنا ذاهبة الآن»، واستدارت ومشت مسرعة.

سأل سانكروفت لما أخرج روبرت الولاعة: «هل قطعت عليكما بالفعل فاصلًا من الرومانسية؟ إن كان كذلك، فأنا آسف.»

«بالطبع لا. لا تكن أحمق. كنت أطلب من جراسي إن كانت تود مساعدتي في شيء بشأن قضية أويسيل.»

سخر سانكروفت: «إممم!»

«بالله عليك يا ساني، لا تكن أحمق. مجلس العموم هو المكان الوحيد الذي أعرفه ويصبح الرجل فيه صديقًا حميمًا لامرأة من دون اللجوء إلى محكمة الأسرة من أجل الزواج أو الطلاق. يصعب كثيرًا أن نأمل في أن تبقى هكذا فترة طويلة، ولكن لا تبدأ أنت بإفساد الأمر.»

قال سانكروفت: «سأكون بمنأًى عن هذا. على أية حال، جريس قادرة على الاعتناء بنفسها مثل أغلب النساء. أردت رؤيتك بشأن قضية أويسيل. هذا إن رأيت أن مقامك يسمح بالمناقشة مع صحفي متواضع بعدما أصبحت على عَلاقة برؤساء الوزراء وملوك الأموال.»

أحسَّ ويست بقدر من وخز الضمير. لم يتمكن من البقاء على تواصل مع سانكروفت، ولكن عقله الحاد وتفكيره السليم قد يفيد أنيت بقدر ما تفيدها كل نفوذ اللورد دالبيتي. أمسى بإمكان روبرت التفكير في مشكلة وحيدة وهي أنيت وسلامتها.

قال: «عذرًا يا ساني. ولكنك تعرف كيف هو الأمر. كان الوزير عنيدًا مثل البغل، وكان عليَّ مساعدته عندما غضب منه الآخرون.» لما حاول روبرت فجأة إبداء تفسير مضلل تمامًا ولكنه منمق، كان يعرف كيف يظهر وكأنه خجل من نفسه بعض الشيء.

«لا عليك. وإذا كنت في مأزق، فأنا لا أطلب الثقة. تعرف أين تجدني إن احتجت إليَّ. ولكني سآتي بقصاصات الأخبار الصغيرة التي لديَّ وأضعها بين يديك مثل الخادم المطيع.»

«تُشعرني وكأني وحش يا ساني، ولكني تعهدت بأن ألتزم الصمت إلى أقصى حد. وإذا كانت لديك أي أخبار، فبالله عليك أن تطلعنا عليها حيث إننا لا نملك إلا النَّزْر اليسير من المعلومات القيمة.»

«حصلت لتوي على تلك المعلومات من صحفي في المنطقة التجارية. لا أعلم إن كان دالبيتي على علم بها. ولكن وقع كينيرد في صعوبات متفاقمة أكثر مما ظننا. كان يبيع على المكشوف ودفعة الاستيفاء كانت مستحقة اليوم. ولم يتوقع بضعة أناس ممن يعرفونه أن يفيَ بالتزاماته.»

«وهل أوفى بها؟»

«نعم، وأسهُم أويسيل هي التي ساعدته على ذلك. لا بدَّ أن الآنسة أويسيل ساعدته في الخروج من تلك الأزمة.»

أدخل روبرت يديه في جيوبه وأطبق عليهما بإحكام. وتمكَّن من أن يتحدث بنبرة معتدلة: «هل تعلم منذ متى وقع كينيرد في تلك الأزمة؟»

«بالطبع يصعب معرفة تلك المعلومة. ودائمًا ما كان يُفترض أن لديه موارد كثيرة جدًّا. ولكنه كان يضارب بمبالغ طائلة في الفترة الأخيرة ويختار الجانب الخطأ في السوق. والعجيب أن أويسيل لم ينصح كينيرد لأنه علم بحب كينيرد لابنته. جنى أويسيل مبالغ طائلة من معاملات تغيير العملات الأخيرة.»

«لكن كيف وصلتك هذه المعلومات يا ساني؟ لم يذكر دالبيتي أي شيء عنها. فهل يعلم بالتأكيد؟»

«لم تتم التسوية غير اليوم بالطبع، ولكن باتت المسألة معروفةً الآن. بالطبع لم يَعُد هناك شيء غير طبيعي بشأنها. لكن حقيقة مدى تداعيه للسقوط كانت سرًّا مدفونًا في بئر. ولكن وصلتني تلك المعلومات من أخ لصحفي لدينا في المنطقة التجارية يعمل — أو كان يعمل — سكرتيرًا خاصًّا لدى كينيرد. لقد طرده مؤخرًا. طلبت من ذلك الصحفي أن يستطلع أكبر قَدر من المعلومات عن أي شخص له عَلاقة بأويسيل بأي شكل من الأشكال، وقد قال لي تلك المعلومة اليوم.»

وقف ويست ساكنًا وأخذ يحاول إخضاع تلك الأخبار لنظرية دالبيتي. وقد انسجمت انسجامًا تامًّا.

إذا أرادت أنيت أن تتزوج فيليب كينيرد، وإذا مُنع الزواج بسبب جَدها العجوز العنيد، وإذا أخبر كينيرد أنيت عن أزماته المالية، فهل يُستبعد أنها قررت التخلص من العجوز البائس واستخدمت الملايين التي سترثها كي تُنقذ حبيبها من الإفلاس والعار الاجتماعي؟

لما فكر في أنفة أنيت والطاقة التي تظهر في تأنِّي حركاتها الرشيقة، وقوة العزيمة التي تعبر عنها تعابير فكها بالإضافة إلى المزاج الباسكي البري الذي ينسبه لها دالبيتي، فهل يُستبعد تمامًا أنها ارتكبت تلك الجريمة؟

من دون الانتباه إلى وجود سانكروفت المألوف، التفت إليه بقوة وأفضى بما في رأسه: «ولمَ لا تكون هي؟ لماذا كبار السن الأغنياء يقفون عقبةً في طريق حياة الشباب؟ هناك أمثلة كثيرة من تلك الحالة؛ يضحى بالحب والسعادة إرضاءً لجشع الكبار.»

«هل هذا بيان عام لفلسفة جديدة يا بوب؟ كأني بك تفكر في قِدر أُعد لعجائز العشيرة، أليس كذلك؟ أم تُراها تلك الحفيدة الحسناء طهت جَدها في حساء ذلك القِدر، إن جاز التعبير؟»

«بربك يا ساني، ماذا قلت أنا؟ أقصد ...»

«أنت تفقد أعصابك يا عزيزي. كل هذا التكتم وإخفاء ما بداخلك عن أقرب أصدقائك، ليس في صالحك. تعلم أنه لا يوجد قلق من جانبي. لمَ أظل أقول هذا الكلام؟ هل الآنسة أويسيل يُشتبه أن لها يدًا في موت جَدها؟»

بصريح العبارة، بدلًا من أن يدرك بوب غشاوة الرومانسية التي فرضها حب محبط وطباع جنوبية على عينه، أدرك من جديد ما يترتب على تلك النظرية. قال: «لا، هذا مستحيل.»

«لكن أحدهم راودته تلك الفكرة! وأنت راودتك الفكرة بناءً على ما كنت تتفوه به الآن.»

«حسنًا، طرح اللورد دالبيتي هذا الاقتراح ... طباع شعب الباسك كما تعلم.»

قال سانكروفت بأسلوبٍ جافٍّ: «طباع شعب الباسك، هذا كله هراء. بوب، أنت تنجرف بعواطفك تجاه هذه الفتاة. لم تنضم إلى قائمة معارفك إلا في الأيام القليلة الماضية، ولكن بصفتي صحفيًّا، تأتيني أخبار عنها منذ خمسة أعوام على الأقل في لندن وباريس. إنها مُترَفة مثل قطٍّ فارسي ومبهرجة مثل الطاوس. الحياة التي تعيشها تستنزف الأعصاب والعقل. لا أعتقد أنها تخطط لانقلاب مثل هذا بتلك التفاصيل المعقدة للغاية. وما الداعي إلى السطو في حين أن معها مفاتيح شقة جَدها وكانت هي التي تقوم على خدمته؟»

«ولكن ماذا إن أرادت أن تتزوج كينيرد ولم يسمح أويسيل العجوز بذلك؟»

«وفي رأيك، ما الفرق الذي ستحدثه مراسم الزواج بالنسبة إلى هذين الاثنين؟»

نتج عن تلك السخرية أن هدأ روبرت بعد غضبه. التفت — من دون أن يتحدث — إلى الحاجز ووضع رأسه بين يديه.

«سامحني يا بوب، ولكني كنت أُجري تحقيقات. أنيت أويسيل ليست طيبة السمعة. وكينيرد ليس سوى شخص واحد في القائمة لديها.»

«إذن، لماذا تمنحه هذا المبلغ الكبير من المال كي تنقذه من الإفلاس؟»

«إنها تفضله على باقي القائمة، وبالتالي أظن أنه يمكنه الحصول على أي أموال يريدها. وهذا المبلغ لن يُحدث فرقًا كبيرًا في ثروة أويسيل. لكنها ليست كزوجة ماكبيث حتى إن بدت كذلك في بعض الأحيان. وأراهن بكل أموالي على أنه لا عَلاقة لها بموت جدها ...» أردف سانكروفت: «إضافة إلى ذلك، ما الذي يدفعها إلى المجيء إليك في الصباح بعد الحادث وتصر على أن موته لم يكن انتحارًا في حين أن الصحف تقول إنه انتحار؟»

«لكن إن كانت تعلم أنه لم ينتحر، ألم تكن هناك طريقة أفضل لتضليل الشرطة؟»

ضحك سانكروفت: «حسنًا، إذا قررت أن تثبت براءة الفتاة البائسة من جريمة القتل.»

«أوه، دعك عني يا ساني! ينبغي أن نتوصل إلى الوقائع. ثم نقرر ما نفعل بها بعد ذلك.»

«شعور ذو أخلاقيات عالية من السكرتير البرلماني الخاص لدى وزارة الداخلية. آه، بالمناسبة، الحمد لله أن أنيت الجميلة ليست من اهتماماتي! لكن في رأيي أنك ترسم دائرة ضيقة للغاية بحيث لا تُدخل بها سوى المرتبطين بأويسيل داخل لندن. مهما بلغت إرادة أنيت في التخلص من جَدها، وأنا لا أصدق هذا كي أكون صريحًا معك، فكيف رتبت ذلك اللغز في الغرفة جيه، وما الذي يدفعها إلى الوقوع في كل تلك المتاعب؟»

«إذن، من تعتقد أن يكون الفاعل؟»

«أعتقد أنه ينبغي أن تتعمق أكثر في ماضي أويسيل يا بوب. ربما يتمكَّن دالبيتي من مساعدتك في هذا الشأن. كلنا افترضنا أن موت أويسيل له علاقة بالقرض بشكل أو بآخر. ولكن قد لا يكون له أي عَلاقة به. ألا تتذكر حين قلت لي ملاحظة أدلى بها كينيرد تُفيد بأن أويسيل لم يكن له منافسون كثر لأن العديد منهم مات قبله؟ لا تخلو حياة رجل مثل أويسيل من الاحتمالات الكدرة. هل دخلت مع كينيرد في أي حديث؟»

«لا، كان الأمر صعبًا.»

«هل أفهم أنه ينافسك على حب السيدة؟ أعتقد أن كينيرد له حظوة عندها في الوقت الحالي يا بوب، إلا لو أن الآنسة فكرت أن الوقت قد حان من أجل التغيير بالطبع.»

لم يتفوَّه ويست بكلمة.

«عذرًا يا بوب. لا أرى سببًا لا يدفعك إلى المحاولة مع أنيت أويسيل إذا أحببت. على الأقل ستكون فترة نقاهة مثيرة. لكن بما أن محرري البائس ينتظر نسخة من المقالة قبل الساعة الرابعة، يُخيل لي أنه تحددت بقعة العمل. ما أطولها!»

كانت الشرفة قد بدأت تمتلئ بسرعة وتزدحم من أجل تناول الشاي. شعر ويست بالضجر عندما تذكر الوعد الذي قطعه لدونالد شاو بأن يُحضره إلى الجلسة. حري به أن يذهب ويأتي به. لما كان يتنقل بين مجموعات الأعضاء وأصحاب العَلاقات معهم وناخبيهم، أحسَّ أن أحدًا يمسك بذراعه.

«على رسلك يا روبرت.»

نظر إلى وجه طلق تتحلى به السيدة بيل كلينتون.

«اعذريني. شخص ما بانتظاري. هل تريدينني؟»

«نعم، ليس أكثر من دقيقة. ضيفك يمكنه الانتظار.» سحبته السيدة بيل كلينتون إلى كرسي بجانبها، وعلى الرغم من أن الطاولة التي جلست عليها ممتلئة بضيوفها، فإنها تمكنت من الانعزال بويست عندما أدارت كتفها.

«روبرت، أريد منك خدمة من أجلي ... بل خدمتين.»

«تعرفين أنه إن كان باستطاعتي ...»

«بالطبع. الأولى، أريدك أن تأتي على العشاء ليلة غد. هل هذا يناسبك؟»

«لست في مزاج يصلح للعشاء كما أنني مشغول في قضية أويسيل. طلب مني رئيس الوزراء أن أبقى على اتصال مع اللورد دالبيتي. إن أرادني ...»

قاطعته السيدة بيل كلينتون: «ديك آتٍ أيضًا، وكذلك أنيت وفيليب وكينيرد.»

«إذن، يسرني ذلك بالطبع.»

لمست السيدة بيل كلينتون الحزن الذي يغشى وجه روبرت. «هل تجرحك كثيرًا يا بوب ... أعني أنيت؟»

نظر إليها روبرت محتارًا. تُرى هل أخبرها دالبيتي؟

«تترك أنيت هذا الأثر لدى الرجال. لقد شهدت بضعة رجال طيبين أصابهم البؤس بسببها، ويمكنها أن تفعل ذلك بمنتهى السهولة.»

قال روبرت وقد أحسَّ بالارتياح عندما لم تشك السيدة بيل كلينتون إلا في عَلاقة حب يائسة: «ولكن ماذا عن الخدمة الثانية؟»

«أريد منك الحصول على تصريح لي كي أقيم حفل العشاء في الغرفة جيه.»

حدَّق إليها روبرت منذهلًا. «ولكن هذا مستحيل يا سيدة بيل كلينتون، وسامحيني لكن هذا الطلب لا أظنه مقبولًا. أنا متأكد من أن الشرطة لن تسمح بذلك، على الأقل حتى تمر جلسة المحاكمة المؤجلة.»

«لا تعتقد أني أبحث عن الإحساس فحسب يا روبرت، أليس كذلك؟»

بقي روبرت صامتًا. كان واضحًا أنه لا يعتقد ذلك، ومِن ثَم كان صارمًا في عدم الموافقة.

مالت آيفي بيل كلينتون بجسدها إلى الأمام وقالت بنبرة سريعة ومنخفضة: «لا يمكنني الشرح هنا. لا أريد أن يتنصت علينا أحد. ولكني استشرت ديك دالبيتي ووافق. لديَّ شعور أنه يمكنني إخراج اللغز من تلك الغرفة يا روبرت، وأريد إعادة تركيب الأحداث بأن أجلس في المكان الذي جلس فيه السيد أويسيل وأرى إن كان سيأتيني إلهام. وأعتقد أنه سيأتيني. أخبرتني السيدة بالوما أنني وسيطة روحانية.»

ابتسم ويست. إنه يعرف السيدة بالوما، إنها آخر الأشخاص اللطفاء في المجتمع وكانت ماهرة في استخلاص مبالغ طائلة من المال بألعابها الروحانية الذكية. حضر روبرت جلسة أو جلستين من «جلسات تحضير الأرواح» مع آيفي بيل كلينتون وقد أثارت المداهنة الحازقة من الأداء بالكامل اهتمامه.

«إذا كنتِ ترجين أملًا من هذه اللعبة، فما الذي يمنعنك أو يمنعني أو حتى يمنع اللورد دالبيتي من الجلوس والمشاهدة؟ ولكن حفل العشاء، وحفيدة أويسيل بين الضيوف ... أعني، حسنًا، ماذا سيقول الناس؟»

«لا أحد يريد أن يعلم. لا أقترح الإعلان عنه في جريدة «ذا تايمز».»

«كيف تفعلين أمرًا كهذا من دون أن يتواجد في الطرقة كل الصحفيين المهتمين بما يجري في رواق البرلمان؟ تشرئبُّ الأعناق تطلُّعًا إلى ما يجري في قضية أويسيل. وربما تنحل الحكومة بسبب تلك القضية. فأنَّى لحفل كهذا أن يغيب عن صفحة الأخبار الساخنة لهذا الأسبوع؟»

لم تعتَد السيدة بيل كلينتون على معارضة أفكارها اللطيفة بتلك الطريقة. «سأقيم هذا الحفل يا بوب، حتى لو اضطُررت إلى إقامته في منتصف الليل بعد أن يذهب الجميع إلى منازلهم. أشعر أنه يمكنني المساعدة، ولا يصح منك أن توقفني.»

«أنا لا أوقفك. أنا فقط أخبرك أنك قد لا تتمكنين من الحصول على التصريح. ولكن إن أحببت، فسأتصل باللورد دالبيتي وأعرف رأيه.»

«جيد. إذن، سيكون كل شيء على ما يرام. لن يكون في الحفل غير خمستنا، إلا إن أردت إحضار وزير الداخلية. هل تظن أنه سيأتي إن طلبت منه؟»

قال روبرت وهو يتملص منها: «لا قدر الله!»

الفصل الثامن عشر

حصل ويست على تذكرة مقعد «تحت الشرفة» من أجل دونالد شاو. هذه أكثر المقاعد المرغوب فيها داخل مجلس العموم. تلك المقاعد مخصصة في الأصل للخبراء المهتمين بجلسات مشروع قانون معين، توجد تلك المقاعد الصغيرة أسفل الشرفة الداخلية العامة المميزة، ولا تكاد تسع ١٠ أفراد، وتُفتح لاستقبال ضيوف الأعضاء شريطة أن يتوافر حيز من المكان، وهذا لا يحدث كثيرًا. ومن الغريب أنه على الرغم من تيسير المساواة التي تسود في المجلس الآن، وعلى الرغم من جواز قعود المرأة بصفتها من الغرباء المميزين على المقاعد المحجوزة للمشرعين الاستعماريين، وعلى الرغم من جواز قعودها على مقاعد الصحفيين في مقصورة الخدمة المدنية، فإن تلك المقاعد الصغيرة في مجلس العموم — غير المحجوزة لأي شخص بعينه في الوقت الحالي — محظورة تمامًا على أي امرأة على الرغم من أنها قد تكون خبيرة منوطة بمشروع القانون قيد المناقشة.

ربما تحاول عضوات البرلمان القضاء على هذه العبثية، ولكن المجلس — الذي ابتلع انضمام شريحة كاملة من المناضلات في السنوات الأخيرة — على استعداد للقتال حتى آخر نفس دفاعًا عن بعض القوانين القديمة المتوارثة.

الميزة الكبرى للزائر المفضل أن عضو البرلمان صاحب الضيافة يمكنه الجلوس على المقاعد في القاعة أسفله ويشير إلى معالم المكان. شعر دونالد شاو بسعادة غامرة لكونه في المجلس وكأنه عضو فيه، وافتتن بالطابَع غير الرسمي بالكامل للمجلس الذي يعتبره غير الأعضاء القوة المركزية لإمبراطورية عظيمة.

أدار الأعضاء ظهورهم للرجل البائس الذي كان يتحدث ويتكلم بصوتٍ عالٍ وهو يقرأ أوراق النظام، ثم انزعج وخرج على الرغم من عدم انتهاء جلسة النقاش. وفقط حينما

توشك المحادثات أن تحجب صوت المتحدث، ينادي بعض مؤيديه «هدوء، هدوء» وعادةً ما يستمر الهدوء بعدها لمدة ثلاث دقائق تقريبًا.

قال دون: «سأموت من الخوف إن حاولت إلقاء خطاب على أناس قالوا صراحةً إنهم لا يريدون الاستماع إليَّ.»

قال صديقه: «الأمر ليس بهذا السوء. إذا كان الرجل يتحدث بخير، فسيسمعه الآخرون. على أية حال، يلقي هانسارد هذا الخطاب بالحرف كي يقول لناخبيه إنه قال كل هذا الكلام. أناس غريبون، ألسنا كذلك؟»

تملَّك الاهتمام دون ونظر حوله. «لم أحضر في المجلس من قبل، ولكني سافرت بالسيارة عبر إنجلترا حينما كنت في موطني آخر مرة. كانت هناك انتخابات عامة حينذاك وأتذكر حين كنت أنظر في كل صور المرشحين على الجدران وأفكر أنهم كانوا أناسًا حسني المظهر.»

ابتسم روبرت: «أوه، لو كنا نشبه الصور في خطابات الانتخابات، لأصبح مجلس العموم جوقة من الجمال.»

قال دون: «كأنه مسرح أُعد من أجلي. رئيس المجلس والثلاثة أصحاب الشعر المستعار أمامه والمكتب الكبير والصناديق النُّحاسية وصفوف الأعضاء على كل جانب، كل هذا يمكن وضعه في مسرح دروري لين بهذا التصميم نفسه.»

«وتلك هي المسألة من كل ما تراه يا دون. ببساطة، المشهد ليس حقيقيًّا. جميعنا تربَّى على أن هذا المكان هو القوة العظمى في البلد. والحاصل غير ذلك، ومِن ثَم يركل الجميع أعضاء البرلمان لأنهم لا يقدرون على المستحيل باستخدام أداة قوتها واهنة للغاية مقارنةً بالقوى الخارجية.»

«ولكن إذا مرَّرتم قانونًا هنا، فعلينا جميعًا الالتزام به.»

«الفكرة فيمن يقرر القوانين التي نمررها. ليست أحزابنا. انقشع زيف الأحزاب في الانتخابات الأخيرة. هناك قُوى كبرى خارجية تقاتل دفاعًا عن لغز يا دون. في أحسن الحالات، نحن مجرد آلات تسجيل. وفي أسوأ الحالات، فنحن غطاء على صمام الأمان. والأمل الوحيد هو ألا يُحكم الغلق علينا في الوقت الخطأ.»

«هل تعني أنه قد تندلع ثورة؟»

«أوه، الثورة مندلعة الآن، اندلعت منذ الحرب. ليس لدينا متاريس في بريطانيا، ولسنا شعبًا يتكلف جذب الانتباه. ولكن منذ عودتك، ألم تلاحظ أننا في لُعبة شد الحبل؟»

«شد الحبل كلمة تعبر عن الوضع. طرف يحقق بعض المكاسب ثم يسحبه الطرف الآخر. وهل مجلس العموم هو الحبل؟»

«ليس كل الحبل — ولكن لا ريب أنه جديلة في الحبل. غير أن كل الأطراف تشد، في المصانع والمناجم، وعلى السفن، ولدى ثوار الشرطة والمتظاهرين العاطلين عن العمل، طرفي أي إضراب كبير.»

«ومن الطرف الذي سينتصر ... هل الاشتراكيون؟»

«وها أنت ترى. لكونك إنجليزيًّا، وضعت الصراع من فورك ضمن إطار سياسي. هذا الصراع نفسه يجري داخل كل حزب. هذا الصراع أكبر من السياسة، إنه يمثل ستيوارت أورفورد في مواجهة أتباع هوكسلي وراذرفوردز، المسرحين من أعمالهم ضمن طابور العمال في مواجهة أحدث الآلات، الرجل المنتسب إلى الطبقة الحاكمة القديمة في مواجهة قوة الجماهير التي تطالب بتوفير لقمة العيش. إنه لا يستطيع أن يوفرها لهم. ولا يعرف كيف يوفرها. ولا يمكنه التنحي بحجة أن لقمة العيش غير متوفرة لأن الصحافة قالت إن الخبز أحرقه المنتج الذي لا يعرف كيف يصنعه. إنه مخاض نظام جديد يا دون، ولكن تعسر ميلاد هذا النظام منذ أمد بعيد.»

«ولماذا لا يستطيع؟ ألم يضع أحد خُطة؟ أما من شك في معرفة هذه الشخصيات؟»

قال روبرت بنبرة تختلجها المرارة: «يا لها من خُطة! هناك العديد من الخُطط. ثم يستيقظ الصراع القديم من غفوته مع كل خطة. لا، لا يوجد شيء يمكن القيام به على ما أرى. دعهم يتصارعون فيما بينهم، وأظن أن المنتصر سيضع خُطة. إنه مستقبل قاتم، لا شيء مختلف.»

أتى ساعي المجلس بطول المقعد وناول ويست رسالة موجزة.

قال روبرت وهو يقرؤها: «إنها من سكرتير رئيس الوزراء. توشك هذه الجلسة أن تُرفع، والمحاكمة المؤجلة على وشك أن تبدأ في غضون بضع دقائق، ليس عليك الانتظار ما دمت لست بحاجة إليه. سأرجع بهدوء إلى مقعد سكرتير البرلمان الخاص. أراك لاحقًا.»

شاهد شاو شابًّا جميل الطلة وهو يعبر الطرقة وانحنى إلى رئيس المجلس واتخذ مجلسًا في المقعد الثاني الذي تجلس عليه الحكومة. أحسَّ بالقنوط من عالم يعيش فيه شباب أمثال روبرت ويست لهم عقول حادة وإحساس عالٍ بالمسئولية، شباب من المفترض أن عقولهم تتقد بالأفكار الجديدة والرغبة في أن تحل محل الأفكار القديمة، ولكن هؤلاء الشباب ينتابهم قنوط مرير؛ إذ يقول روبرت: «دعهم يتصارعون ونشاهد ما يحدث.» لكن لا ريب في أنه يرى أن مجلس العموم يستحق هذا الجهد حتى إن كان مثل آلة تسجيل.

لنفترض أنه لم تكن هناك آلة تسجيل حتى وصل الصراع إلى أشده وانهارت بنية المجتمع بالكامل. قال دون لنفسه بقوة: «لا، قد لا أكون مواكبًا للعصر، ولكني سأظل أومن بمجلس العموم.»

بدأ المجلس يمتلئ بسرعة. كانت أخبار المحاكمة المؤجلة ظاهرة على اللوحات ذات المؤشرات المضيئة. دخل رئيس الوزراء ونهض مايكل هولدزوورث كي يتحدث. كانت هناك مخاوف من التوقعات.

كان هولدزوورث متحدثًا يمتاز بالدقة والصوت الخشن. وكانت خصومته مع رئيس الوزراء قديمة. وكثيرًا ما حدثت بينهما صولات وجولات.

«في الواقع، سيقال لي إن البلاغ وصل إلى قادة المعارضة عبر القنوات المعتادة، وإنه يستحيل على الحكومة إصدار بيان، وإن المحاكمة المؤجلة ستُعقد يوم الخميس، وإنه في تلك الأثناء أصبحت المسألة بين يدي القضاء. سيدي الرئيس، أنا لا أهتم للطريقة التي مات بها أحد السادة التعساء في هذا المجلس.»

صاح الأعضاء من مقاعد الحكومة: «إذن، عليك أن تهتم.»

قال هولدزوورث بصوت هادئ: «لا ريب أن أصدقاء الرجل سيقدمون كل التعاطف اللازم.»

حدثت جلبة في القاعة. صُعقت مقاعد المعارضة الأمامية. وأحسَّ رئيس الوزراء بالألم. رُفعت إشارات الهدوء في ربوع المجلس. هل تصح إهانة ضيف أتى ومات في هذا المجلس بهذه الطريقة؟

نهض رئيس المجلس. ولكن لا تزال الجلبة قائمة. لم ينظر إلى أي اتجاه وبصوت هادئ من تحت المظلة الثقيلة قال إنه يرجو احترام الميت. أُعجب دون بالكلمات. كان هذا الصوت أشبه بصوت العرَّاف.

استمر هولدزوورث، ووقف ساكنًا ولم يتجاوب مع الجلبة. جعل الأعضاء يسمعونه لما قال إنه لم يقصد إهانة الميت، وإنه لم يرغب في أن يرد السيد أويسيل بشخصه في المناقشة على الإطلاق. الأسئلة التي أراد أن يطرحها تتطرق إلى القاتل، وليس لها عَلاقة بشئون الشرطة التي ستناقَش في التحقيق.

بحديث مقتضب ولكنه قاتل ولم يستمر أكثر من ١٠ دقائق، وفيها وجَّه هولدزوورث سهامه صوب رئيس الوزراء. لماذا تكتمت الحكومة على مسألة القرض بتلك الطريقة؟ هل دُعي ممولون آخرون غير مجموعة أويسيل من أجل أن يتعاونوا؟ وكان هناك حديث عن

شروط سرية. هل أويسيل وضع تلك الشروط؟ وهل وافقت عليها الحكومة؟ هل كانت تراعي هيبة هذا المجلس؟ إلى أين وصلت تلك المفاوضات؟ هل كانت الشروط قاسية بالقدر الذي أشيع في البورصة منذ مقتل أويسيل؟ ما الدافع من تكتم الحكومة المتعنت وقت انهيار البورصة البريطانية؟ هل توجد حقائق في الشائعات الدائرة بأن الولايات المتحدة الأمريكية هددت بأن تفرض عقوبات مالية؟ ألا تدرك الحكومة البركان الذي يغلي تحتها؟ لم يشهد مجلس العموم هذه الحماقة المطلقة من قبل مطلقًا، ولا هذا التجاهل المتراخي لمخاطر الوضع الراهن. هل يصح أن تنهار الأوراق المالية الإنجليزية وفي الوقت نفسه يُسمح لسكرتير برلماني خاص شاب وغير مهم أن يجريَ وراء امرأة ويسلي نفسه بدور محقق هاوٍ؟

جلس هولدزوورث وسط همهمات الجالسين. وتلك الجملة الأخيرة أفسدت تأثير حديثه. توجهت السيدة بيل كلينتون ببصرها نحو جريس ريتشاردز وعلقت بنبرتها الساخرة العالية: «هذا كله بسببك.» قد يكون المجلس مكانًا حاد القسوة، والأشخاص الذين لُدغوا من أسلوب هولدزوورث واستجواباته اللاذعة واتَتْهم الفرصة بالضحك على وجنتَي جريس الحمراوين من الغضب. علق الجالس بجوار شاو في المقصورة إذ كان كلاهما ينظران إلى جريس البائسة متعاطفين: «النساء في هذا المجلس لدغتهن أعنف من لدغة الرجال.»

نهض رئيس الوزراء مبتسمًا. الضحك بدَّد الأجواء التي تسبب فيها الجزء الأوسط من حديث هولدزوورث. أمسى الوزير واثقًا من نفسه في المجلس الآن. استهلَّ حديثه بتقديم التعازي إلى الآنسة أويسيل، تلك السيدة التي ينفطر لها قلب كل رجل نبيل يتحلى بالشهامة (مع تركيز طفيف على الكلمة) في هذا المجلس. قدم التعازي إلى وزير الداخلية الذي يحمل عبئًا مضاعفًا ثلاث مرات بسبب فُقدان صديق قديم وضيف كريم وتولي مسئولية الوزارة وكذلك مسئولية كشف الجناة ومعاقبتهم. ذكر كل شخص له صلة بالحادث وقدَّم التعازي لكل منهم على حدة. حينما أتى الحديث على العاملين في المطبخ وعلى تفانيهم وعلى نقمتهم على تلك المأساة، تحدث بكلام من ذهب وحوَّل الأحاديث الجانبية إلى إقرار هذا الكلام حتى من جانب المعارضة. تذكر العمال الذين كثيرًا ما يُنسى فضلهم. لم يكن هناك غير هولدزوورث الذي بقي وجهه عابسًا.

لما أعرب رئيس الوزراء بهذا الكلام الطيب للجميع، أصبح المجلس مهيئًا كي يلقي رئيس الوزراء بيانه بأن السفارة الأمريكية توفر كل سبل التعاون مع حكومة صاحب

الجلالة، وأن انهيار الأوراق المالية نتج عن محاولات مشينة لتحقيق استفادة من مأساة تعرض لها رجل عجوز، وأن الحكومة ستتخذ إجراءات مشددة للتعامل مع الموقف.

أردف رئيس الوزراء أن العضو الذي أثار هذا الجدل هاجم الشرطة. توقف للحظة، ثم قال بأنعم نبرة صوت لديه: «ربما هذا العضو المحترم لا يحب الشرطة البريطانية.» امتلأ المجلس بالضحك. التأكيد الخفيف على لفظتَي «المحترم» و«البريطانية» كان رائعًا في توجيه الإهانة حيث إن هولدزوورث كان داعمًا قويًّا للاتحاد السوفييتي. ولكن لم يكن من عادة الشرطة أن تعلن عما توصلت إليه ولا عن نظرياتها من أجل إسعاد رجل نبيل غير صبور من المعارضة، لا سيما حينما يكون لدى الشرطة سبب يجعلها تؤمن بأنها على وشك أن تتوج جهودها بالنجاح.

أمسى المجلس في سكون تام. يشرئبُّ كل عضو على المقاعد، وكل صحفي، وكل فرد من العامة الجالسين في الشرفات الداخلية انتظارًا لما سيقال بعد ذلك. حينما يكون المجلس على هذا الحال، فتلك أدق وأخطر اللحظات في حياة رجل السياسة. ما الكلمات التي سيتجرَّأ الخطيب على التفوه بها والتحول من جو الترقب إلى الحديث العادي بعدما أوصل هذا الجمهور الناقد والقلق والمضجر إلى هذا المستوى من الترقب؟ لما نهض رئيس الوزراء، عزم على أن يتحدث بأشد العبارات غموضًا وأكثرها تنصلًا. يتطلب هذا الموقف رجلًا لا يتحلى بقدر كبير من الحساسية والتأثر كي يقاوم إغراء هذا المجلس المزدحم والمنصت.

نظر من حوله سعيدًا بلغزه. قال إنه ليس منوطًا بالكشف عما تعرفه الشرطة ولا هذا المكان مناسب لذلك. مكان الإفصاح عن تلك المعلومات هو محكمة التحقيق الجنائي. والتحقيق تأجل إلى يوم الخميس. أطالت تلك المدة على بعض النبلاء بحيث لا يستطيعون الانتظار؟ وفي قلقهم خشية أن تُنشر الحقيقة قبل أن تسطر أسماؤهم في الصحف، فهل يجب أن يفرضوا تصريحًا سابقًا لأوانه ولن يفيد هذا التصريح إلا في عرقلة رجال يحملون هذه المسئولية الجسيمة على أكتافهم؟

دوى المجلس بالآراء عن هولدزوورث الذي لا يقع في وضع غير مواتٍ إلا نادرًا. لكنه بقي هادئًا وسط هذا الاستنكار العام. الثناء هو آخر ما أراده هولدزوورث من خصومه السياسيين. أردف صاحب الصوت الرنان حديثه آملًا أن يواصل المجلس ثقته في أصحاب السلطة، وبصفته رئيسًا للوزراء، فقد يعد أن تأتي الشرطة البريطانية — الأقدر على مستوى العالم — بهؤلاء المجرمين وتزج بهم أمام القضاء البريطاني الأكثر إنصافًا على مستوى العالم في أقرب وقت ممكن إن لم يحدث ذلك بحلول يوم الخميس، وسيصبح كل شيء على ما يرام إذا تحلت إنجلترا بالصدق تجاه نفسها.

جلس وسط دوي التصفيق. لقد انتصر الصوت الرنَّان مرة أخرى. أعرب رئيس المجلس عن قرار التأجيل بشكل روتيني، وخرج الأعضاء من المجلس يضحكون على سخرية السيدة بيل كلينتون من هولدزوورث وجريس، خرجوا فرحين كأنهم تلاميذ سُمح لهم بالخروج من المدرسة مبكرًا.

تعبير روبرت ويست الغاضب منع أي أحد من مضايقته. والرجل الذي استهل مضايقته تراجع مسرعًا لما رمقه روبرت بنظرة توحي له أنه سيطرحه أرضًا. غادرت جريس القاعة بمجرد طرح الاقتراح إذ هربت وسط الجلبة من دون أن يلاحظها أحد. لم يستطع ويست أن يسأل أحدًا من حزبها أين ذهبت. كذلك اختفى هولدزوورث. هل ذهب كي يهدئها؟ اللعنة على هذا الرجل! واللعنة على السيدة بيل كلينتون — لماذا لم تتحاشَ البتة أن تتفوه بأول شيء يتبادر إلى ذهنها؟ روبرت معجب بها من صميم قلبه، واحترم تعاطفها الحقيقي النابع من قلبها. ما الذي دفعها إلى فعل هذه الأشياء التي تُعرِّضها للكراهية الشرسة؟

لما تذكر روبرت أن يأخذ شاو إذ خرج مع الآخرين الذين كانوا جالسين في المقاعد تحت الشرفة إلى الرواق، اندفع إلى خارج القاعة ولكن اعترضه اللورد دالبيتي إذ نزل لتوه على سُلَّم الشرفة الأعضاء اللوردات.

سأل: «هل لي بدقيقة معك يا بوب؟» ولما رأى وجه الشاب غير السعيد، قال: «ما الذي لدى آيفي كي تتفوه بما قالت؟»

هزَّ روبرت كتفَيه. لم يكن واثقًا مما لديه من إجابة.

قال دالبيتي: «هل طلبت منك شيئًا بشأن حفل العشاء؟»

رد روبرت: «نعم، وهذا مستحيل بالطبع. وبالمثل، يمكنك تدبر الأمر إن أردت إتمامه بالطبع، ولكن في هذه الحالة يفضل أن تتحدث إلى جليسون بنفسك. وإذا أعطاك الإذن، فلا أظن أن سلطات المجلس ستُبدي أي اعتراضات، ولكن لن يحبوا ذلك وأنا لن آتي على أية حال.»

قال اللورد دالبيتي بحزم: «أوه، نعم، ستأتي. كي أكون منصفًا تجاه آيفي، كان العشاء مجرد هواية عابرة بالنسبة إليها، ولكني اهتممت به وأريده أن يتم. أريد أن أرى الغرفة في الظروف التي كانت عليها في تلك الليلة، ومع خادم الضيافة نفسه.»

«إذن، لماذا لا نتناول العشاء أنا وأنت بمفردنا؟ وبذلك ستكون الظروف أقرب إلى الظروف التي كان عليها عشاء أويسيل أكثر من الحفل.»

«ولكن أنيت وفيليب كينيرد يريدان الحضور، وأنيت لديها بعض المطالب. وأنا أريدها أن تأتي.»

«إذن، لا حاجة إلى السيدة بيل كلينتون.»

ضحك دالبيتي. «آيفي البائسة. إنها تستحق أن تُترك، ولكن سيكون الحفل مملًّا للغاية بدونها. يجب أن تسامحها حقًّا ... هل ستنهي الترتيبات مع المدير؟ سنقيم حفل العشاء في وقت متأخر قدر الإمكان، ولنقل التاسعة والنصف. اجعل المكان مظلمًا قدر الإمكان. لن نتمكن من منع الصحافة من معرفة أن هناك شيئًا يجري، ولكن يمكننا تفادي أي إعلانات أولية. بالمناسبة، هل توصلت الآنسة ريتشاردز إلى أي شيء؟»

«لم يكن لديها الوقت الكافي حينئذٍ. ولا نكاد أن نتوقع منها المساعدة بعدما حدث هذه الليلة، أليس كذلك؟»

«أوه، ستتجاوز ذلك. على أية حال، لا بدَّ من سبيل لملاطفة امرأة بعد الإعلان عن عدد معجبيها للعالم. تحدث إلى بعض الصحفيين. تلك الوقائع تليق بهم كثيرًا. سيبقى الخبر كأنه مزحة وقعت في المجلس.»

الفصل التاسع عشر

كان يوم الثلاثاء يومًا عصيبًا على كل من كانت له صلة بعيدة بقضية أويسيل. كان رئيس الوزراء مضيافًا مساء يوم الإثنين إذ سره نجاح خطابه وأحاطه الناس يقدمون له التهاني على تحطيم هولدزوورث إذ لم يكن هذا النصر سهلًا أبدًا. ذكرته الصحف في صباح يوم الثلاثاء بالثمن الذي ينبغي له أن يدفعه. تلميحاته بأن هناك وقائع حيوية ستُعرف وستُعرض في التحقيق المؤجل إلى يوم الخميس وضعت مجلس العموم بالكامل في قبضته ومِن ثَم تجنب أي نقاشات إضافية. لن يخاطر أي عضو بأن يضع نفسه موضع الحمق؛ إذ أصرَّ كل فرد على خطأ ما فعله هولدزوورث لما فرض النقاش قبل يوم المحاكمة. ولكن إن لم يفِ بذلك الوعد، وإن لم يكن لدى الشرطة ما تقوله، وإذا طُلب تأجيل التحقيق مرة أخرى، فسيصبح الوضع سيئًا حقًّا.

كانت الشائعات قد بدأت تنتشر بأن الحكومة لديها معلومات أكثر من المعلن عنها. بدأت الصحف الصباحية الرائجة تلمح إلى احتمال التستر على شخصيات ذات نفوذ. أولى تلك الصحف صدَّرت عنوان «كشف الحقيقة!» صحيفة أخرى نشرت عنوانًا رئيسًا في الصفحة الأولى «هل تتستر الحكومة على أحدهم؟» ونددت بالتدخل السياسي في عمل الشرطة. تلك الشائعات أخمدها خطاب رئيس الوزراء. أثنت صحف يوم الثلاثاء على رئيس الوزراء وصبَّت جام غضبها على «طالبي الشهرة» الذين قد يَعيق نفاد صبرهم عمل الشرطة في لحظة الانتصار. نُشرت أخبار لاذعة عن مايكل هولدزوورث، وتلقَّى رئيس الوزراء مداهنات كثيرة طَوال جلوسه على مائدة الإفطار. ولكن بطل هذه الواقعة ترك البيض والخبز من دون أن يتذوقه لما تذكر أنه لم يتبقَّ سوى ٢٥ ساعة على موعد الوفاء بتلك الوعود، وأنه ليس لديه أدنى أساس لأي تلميح مما ذكره.

حينذاك، بدأ القاطنون في شارع داونينج يستيقظون. رفع طاقم السكرتارية الهواتف واتصلوا على كل فرد يأتي على بالهم. استمع قائد شرطة سكوتلانديارد إلى رئيس الوزراء عبر الهاتف حتى تصدع رأسه. قال: «اللعنة عليهم جميعًا. لماذا لم يدعوني إليه بدلًا من الحديث مدة نصف ساعة متواصلة عبر الهاتف؟»

أُرسل السيد جورج جليسون إلى رئيس الوزراء. دخل الموظف المدني العظيم إلى مكتب رئيس الوزراء متباهيًا، عازمًا على أن يُفهم حتى رئيس الوزراء أنه لا ينبغي للشرطة أن تضم هواة أمثال اللورد دالبيتي وروبرت ويست ليتدخلوا في عملها. لكنه لم يكن يتعامل مع «فلوسي»، بل مع رئيس دولة قانط بسبب أزمة ربما تطيح بالحكومة جمعاء. حينما خرج جليسون من شارع داونينج بعد ساعة، تملَّك منه الرعب مثلما تملَّك من رئيس الوزراء. كاد أن يحتضن اللورد دالبيتي، واندهش اللورد دالبيتي حينما أتى إلى جليسون للحصول على تصريح لإقامة العشاء في الغرفة جيه. إنه لم يمنحه الترخيص بأرق الترحيب فحسب، بل قبل الدعوة بعدما دعاه اللورد دالبيتي؛ إذ رأى أن اللباقة تحثُّه على دعوته بعدما لقيَ منه هذه الحفاوة التي لم يتوقعها. ولكن حتى لو اقترحت السيدة بيل كلينتون إقامة طقوس روحانية في هذا الصباح، للقيت داعمًا قويًّا في السيد جورج صاحب الهيبة.

سعد روبرت لما بدأ المساء يغشى ذلك اليوم. أحضر ملابسه معه وبدلها في الغرفة بالطابَق السفلي المخصصة لهذا الغرض. إنها غرفة كبيرة مربعة بها مقصورات صغيرة ذات ستائر لتغيير الملابس، ولما كان محل الحلاقة على متن السفينة مكانًا جيدًا لسماع آخر الأخبار عن عدد العُقَد في ذلك اليوم وآخر الفضائح بين الركاب، فإن الرجل الذي يترَّأس قسم الحلاقة في مجلس العموم تصله كل النمائم التي تدوِّي في المكان في لحظتها.

ترك ويست حقيبته مع مساعد رئيس القسم ونزل كي يتأكد من أن كل شيء على أُهبة الاستعداد. فُتحت الصنابير في دورة المياه رقم ١.

قال روبرت: «أظن أن دورة المياه تلك خُصصت للنساء من أعضاء البرلمان.»

«إنهن لا يستخدمنها كثيرًا يا سيدي. أظن أنهن يخجلن من النزول إلى هنا يا سيدي. ولكنها أفضل دورة مياه. أتت الآنسة ريتشاردز منذ بضعة أيام يا سيدي، وأخبرتها أن السيد جلادستون قد استحمَّ في دورة المياه هذه. لم تنشغل دورات المياه هذه كثيرًا في تلك الأيام.»

«وهل دورة المياه أعجبت الآنسة ريتشاردز كثيرًا؟»

«بالطبع يا سيدي، أنا متأكد من أن التجهيزات هنا تُعجب السيدات. ولا بدَّ أنها تعجب الرجال أيضًا. ولكن لا أظن أن السيدات تبهرهن التجهيزات هنا مثل الرجال يا سيدي ... أعني الشابات منهن، أليس كذلك؟»

ضحك بوب. «هل تظن أن الآنسة ريتشاردز لم ترُق لها فكرة الاستحمام بعد السيد جلادستون؟»

«لا، لا أظن. يستغرق الأمر كثيرًا كي تثير إعجاب شابة هذه الأيام، وهذا لا يعني عدم احترام الآنسة ريتشاردز. هل انتهيت مما تريد يا سيدي؟»

«نعم، شكرًا لك. سآتي إليك من أجل الحلاقة في وقت لاحق.»

«أوه، نعم يا سيدي ... هل تقيم السيدة بيل كلينتون العشاء في الغرفة جيه؟ اعذرني يا سيدي، ولكنه مكان غريب ولا أظنه يصلح كي يمتع المرء نفسه فيه، أليس كذلك؟»

إذن، عامل النظافة المسئول عن دورات المياه يعرف كل شيء عن حفل العشاء الذي حاول جاهدًا أن يُبقيَه سرًّا. ولكن أنَّى لحفظ السر عن الموظفين في مجلس العموم؟ بالطبع الكل يعرف كل المعلومات عن هذا العشاء بدايةً من عاملات النظافة وحتى رقيب النظام، كما علموا عن عشاء وزير الداخلية مع السيد أويسيل. موظفون متمرسون وعلى مستوًى عالٍ من الذكاء ولديهم سنوات خبرة طويلة في معرفة مد التيار وجزره بشأن الأعضاء الذين ينجرفون تحت أيديهم، لا يُتوقع من هؤلاء الموظفين أن يكونوا صمًّا وعميانًا لأن السلطات تريد منهم أن يكونوا كذلك.

قال روبرت: «إننا لا نتناول الطعام في تلك الغرفة من أجل الاستمتاع. بل إننا ندرس الأحداث التي ربما تكون قد وقعت في تلك الليلة. وإننا لا نريد الحديث عن الموضوع. أظن أنك ستذكر هذا إلى الموظفين لديك.»

«أوه، نعم يا سيدي. الموظفون لا يتحدثون بشيء البتة.» (قال روبرت في نفسه: «أتظن ذلك!») «ولكن يا سيدي، تساءلت كثيرًا لماذا لا يُقتل كثير من الناس في هذا المكان حينما تفكر في الفرص.»

تنبَّه روبرت وقال: «حقًّا، أي فرص تتحدث عنها؟»

«بالطبع يا سيدي لا أقصد قتل أعضاء البرلمان، ولكن لا صعوبة البتة في التخفي عن أعين الشرطة إذا ارتكب أحد هذه الجريمة. أعني يا سيدي، كل هؤلاء الموظفين الذين يتواجدون باستمرار في المبنى. لا يصعب على أي أحد أن يرتدي زيَّ الموظفين ولن يعرف أحد أنه يتخفَّى في الزي.»

قال بوب مفكِّرًا: «أظن أن هذا ممكن.»

«حسنًا، بما أنه ليس لك حاجة عندي يا سيدي، فسأغادر الآن.»

لما أُغلق الباب خلف عامل النظافة، جلس بوب على حافة دورة المياه. هل يمكن هذا؟ هل كان القاتل في المبنى متخفيًا في ملابس العمال؟ يعرف أن بلاكيت خمَّن أنه ربما تخفَّى أحدهم في ملابس خادم ضيافة، ولكن لا يوجد أثر لذلك الرجل. لكن أقسم مدير المطبخ وكل خدم الضيافة إنهم يعرفون بعضهم حق المعرفة ولا يُحتمل أن يحدث ذلك، لا سيما أن مأدبات العشاء التي أقيمت في تلك الليلة لم تكن كبيرة وبالتالي لا حاجة إلى تعيين موظفين إضافيين. ولكن كان هناك عامل مختلف. إنه ليس معروفًا لخدم الضيافة، ومِن ثَم لا يلاحظونه. لكن كانت الساعة التاسعة ليلًا. والعامل الذي ليس في طاقم التهوية — حيث إن جميعهم موظفون قدامى — لا بدَّ أنه لُوحظ وهو يتجول في طرقة هاركورت في تلك الساعة غير المعتادة. سبق أن استجوب بلاكيت كل فرد في طاقم التهوية يتجول على فترات كي ينظر في موازين الحرارة وكي يفتح فتحات التهوية. ولكن كل فرد منهم قدَّم تفسيرًا وافيًا عن تحركاته.

ولكن ذلك الحذاء في الظلام. شخص ما كان في الطرقة حينذاك، ولولا القدر الذي أرجع روبرت من أجل حقيبته، لَما عِلم أحد البتةَ بوجوده حتى بالرغم من وقوف الشرطي في خدمته. هل هو شخص يمكنه الدخول إلى المطابخ بمساعدة أحد موظفي المطابخ؟ كل الإشارات مُصوَّبة إلى ذلك الحادث. ربما اللورد دالبيتي واتَتْه أفضل فكرة لما اقترح استجواب جريس. وقد يكون الشريك في الجريمة شخصًا لم يخطر على بال أحد … صاحب الحذاء في الظلام.

غاص بوب في مياه الحمام وفي عقله أنه يعرف شيئًا عما يجب أن يشعر به حينما تتفلَّت منه الأشياء التي يريدها. أوشك أن يضع يده على الحل. لديه شعور قوي بذلك. لا يفصله عن التحقيق سوى ٢٤ ساعة. ولكن الإجابة لا تزال بعيدة بُعد المشرق عن المغرب.

لا يزال الشرطي واقفًا على باب الغرفة جيه لما كان روبرت يسير نحوه. والغرفة لم تُترك من دون حراسة ولو للحظةٍ منذ ليلة الجريمة. فتح الشرطي الباب لروبرت. وجد السيد جورج جليسون واللورد دالبيتي وفيليب كينيرد بالداخل.

«هل تريد نبيذًا أم كوكتيلًا يا روبرت؟ يبدو أننا الجنس الملتزم بالمواعيد. آه، تدق ساعة بيج بن لتوها لتعلن عن لحظة حاسمة مثلما دقَّت في تلك الليلة.»

قال بوب: «نعم، لا ينقص سوى أن يدق جرس التصويت في الساعة التاسعة حتى تكتمل الضوضاء.» فُتح الباب ودخلت السيدة بيل كلينتون، وهي لا تزال ترتدي مِعطفًا نهاريًّا باللون الأسود، وهذا المعطف ترتديه دومًا في مجلس العموم.

قالت بنبرة صوتها العالية الناعمة: «لم أغيِّر ملابسي. ينبغي لأحد أن يهتم لأمر البلد العتيق طالما تهتمون أيها الرجال بأناقتكم. ما أجمل هذا الجمع! سأنضم إلى صفوف المستمعين الليلة. لمحت طرف أنيت لمَّا كنت آتية مسرعة. إنها تبدو آيةً في الجمال.»

الباب فتحه الشرطي المناوب بقوة ما أثار دهشة الحاضرين. قالت صاحبة الحفل: «ها هي، ألم أقل لكم؟» وقفت أنيت للحظة عند عتبة الباب ذي الإطار المصنوع من خشب البلوط وأطلَّت بجمالها الفتَّان. كانت ترتدي ثوبًا طويلًا بتصميم أنيق من الساتان الأبيض وبه مسحة من لون المحار ما يخطف الأضواء أينما تحركت. تلف على أحد كتفَيها وشاح تشانيل مُتقَن الصنع من الساتان الأزرق. لم ترتدِ أي حلي سوى مشبك من الياقوت الأزرق على الجزء الأمامي من الفستان، كان طقمًا يبرز تأثير بشرتها البيضاء وعينيها ذواتي اللون الأزرق الداكن غير العادي.

قالت مبتسمة: «بالتأكيد لست أنا آخر الحاضرين.»

لم تستطع آيفي بيل كلينتون كبح مشاعرها إذ قالت: «ولكنك الأخيرة بالفعل. هذا الدخول المهيب لا بدَّ أن يكون ذروة الحدث.» إنها تحب أنيت، ولكن ساورها شعور جامح بالرغبة في أن يضحك عليها أحد، وتلك المهمة لا يُحتمل أن يقوم بها أي رجل من الحضور. «والآن يا ديك، قد حانت وليمة هلاكك. كيف سننظم أنفسنا؟»

من الواضح أن دالبيتي خطَّط لهذا. وعلى المائدة البيضاوية، جلس على الكرسي المواجه للباب، المكان الذي جلس فيه جورج أويسيل. «بالطبع أخبرني خادم الضيافة أن المائدة كانت أصغر حينذاك، ولكن لا يخفى أن حجم المائدة لن يعنيَ فارقًا. هل ستجلسين على يميني يا آيفي، وأنيت على يساري، ثم السيد جورج بجوارك يا آيفي؟ ويست، ستجلس بجوار الآنسة أويسيل. كينيرد، ستُترك من دون سيدة بجانبك.»

«سيسرني النظر إليهن.»

«من المفترض أن يكون فيليب في بلاط الملك إدوارد، أحد أبناء السيدة ووريكس الصغار، ولكنه وُلد متأخرًا للغاية كما تعلمون.»

«أخبرتني لما تقابلنا في المرة الأخيرة أن دوري سيكون ديك توربين.»

«لا أعلم دورك الحقيقي يا فيليب، ولكن على أية حال، جمالك فتَّان لدرجة أنه لا يصح أن تتحرك بحريتك بيننا نحن النساء ذوات التأثر الضعيف. ديك، أتمنى أن يكون هذا العشاء سخيًّا.»

التفتت أنيت أويسيل إلى روبرت. «لماذا لم تأتِ مطلقًا كي تزورني؟ لم تأتني منذ ذلك اليوم المروع بعد وفاة جدي.»

«لا تعبر الكلمات عن مدى رغبتي في المجيء إليك، ولكن لم أرد أن أشغلك عن أعمالك.»

«أود أن أراك كثيرًا، ولكن يبدو أنك منشغل للغاية في تلك القضية.»

«حسنًا، إننا نحاول جاهدين أن نعثر على شيء نقوله أمام المحكمة يوم الخميس، وأنا منهمك في تلك القضية منذ أن رأيتك.»

قالت أنيت مفكرة: «هذا إهدار للوقت.»

«ولكنك قلتِ إنك تريدين العثور على القتلة.»

هزَّت أنيت كتفيها. «نعم بالطبع، كنت منزعجة صباح يومئذٍ وغضبت لأن الصحافة تقول إن جدي قتل نفسه. ما كان لشيء أن يزعجه أكثر من الموت. ولكنه مات. يعرف الناس أنه لم يقتل نفسه. ولن يعيده شيء إلى الحياة. فلماذا يهدر الأحياء وقتهم كي يعرفوا كيف مات؟ ما النفع الذي سيعود على أحد الآن؟»

نظر إليها روبرت منذهلًا. ما الذي جعلها تغيِّر موقفها الذي كانت عليه حين قابلها صباح يومئذٍ؟ أم تُراها لم تهتمَّ بشيءٍ إلا بألا يظن الناس أن العجوز مات منتحرًا. لكن إن كانت تعرف الحقيقة، ألم تكن نظرية الانتحار مريحة أكثر؟ هل كانت تحاول تضليلهم؟ ولكن حتى الآن، اختفى من حديثها القلق الذي تخلله لما تحدثت عن القضية قبل ذلك. بل إنها ببساطة لمَّحت إلى أن المسألة مضيعة للوقت ولا تستحق هذا العناء، وكان الأحرى أن تقول: «أوه، لا تزعج نفسك بإنقاذ الموقف إن ساءت الأمور.»

قالت أنيت متكاسلة: «إذن، سأنتظرك غدًا. ألا تحب أن تحتسيَ معي كوكتيلًا حوالي الساعة الخامسة؟»

«أحب أن آتي، ما لم أكن مقيدًا تمامًا في تلك القضية. إن لم أستطع، فسأتصل بك عبر الهاتف.»

تشدقت أنيت: «أوه، لا تزعج نفسك بالاتصال. تعالَ وقتما تستطيع. سأكون في المنزل طَوال الليل.»

أحسَّ روبرت أن الدم يتسارع في عروقه لما عاد إلى الحديث العام، وبدأ الجو يتخلله سرور كبير بفضل أحاديث السيدة بيل كلينتون المرحة. وكما قال اللورد دالبيتي، سيكون

الحفل مملًّا من دونها. إنها قصيرة ومقبولة الشكل وممتلئة الجسم، على النقيض التام من أنيت، كما أن طاقتها المشعة مختلفة تمامًا وكأنها طاقة محفوظة يستشعرها أي شخص حسَّاس من وراء هدوء المرأة الشابة. كان روبرت متأكدًا من أن سانكروفت أخطأ في فهم أنيت تمامًا. مهما كانت الحياة التي تعيشها وعلى الرغم من العيشة الفارهة والوثيرة، إلا أن هذه المرأة كانت العكازة التي يستند إليها أويسيل العجوز. ربما كانت قادرة على وضع خطط كبيرة كي تشق طريقها الخاص مثله تمامًا.

غرق روبرت تمامًا في التفكير بها وكان سعيدًا للغاية بقربها منه، ولم يحاول أن يشارك في الأحاديث التي تجري من حول المائدة. ولكنه لاحظ — ببعض التسلية — كيف أن الجميع باستثناء أنيت كانوا يراقبون كل حركة تصدر من خادم الضيافة.

فكر روبرت: «بالطبع يعرف هذا الخادم أننا نشاهده، وهذا البائس لا بدَّ أن يبدر منه شيء عمَّا قريب، وعندها سيظن الجميع في ضمائرهم أنه المذنب. ... لا بدَّ أن يتحلى هذا الخادم بالصلابة كي يواجه كل ما اضطُر إلى مواجهته في الأسبوع الماضي.» أسرَّ إلى أنيت بتلك الملاحظة الأخيرة.

تقابلت عيناها الزرقاوان الكبيران مع عينيه للحظة. «ولكني أظن أن هذا ينطبق عليك أكثر. أعتقد أنه من الرائع أنك تفعل الكثير وتحافظ على هدوئك في حين أن الآخرين لا يهدأ بالهم.»

لما تفوَّهت أنيت بتلك الكلمات، اكتمل خنوع روبرت لها. اختلس النظر إلى فيليب كينيرد كي يرى هل لاحظ اهتمام أنيت به وهل يضيره ذلك أم لا، ولكن كان كينيرد يناقش الأزمة المالية مع جليسون ودالبيتي.

قال اللورد دالبيتي: «سمعت أنك تعافيت من الأزمات المالية التي تعرضت لها.»

ظن روبرت أن تلك الكلمات غير موفقة نوعًا ما، ولكنها لم تحرج كينيرد. «نعم، كدت أن أضيع ... والأزمة الأخيرة لم تكن متوقعة. ولكن لحسن الحظ استطاعت أنيت أن تُنقذني.»

من الواضح أنه لم يخفَ على الحاضرين الأزمات المالية التي تعرَّض لها كينيرد، لا سيما الأزمات الأخيرة. لم يظهر على وجه دالبيتي المفاجأة حينما ذكر روبرت معلومات عن زعزعة وضعه المالي، تلك المعلومات التي عرفها من سانكروفت.

قال دالبيتي بعفوية: «الكل متضرر ماليًّا. لا أحد منا يعلم ما الذي يحدث بين ساعة وأخرى. قد يضيع أعتى الرجال بخطأ واحد في الحكم الآن.»

قال السيد جورج جليسون بأروع أسلوب: «أعتقد أنه ينبغي إيقاف المضاربة في البورصة.»

قالت السيدة بيل كلينتون بنبرة رعب ساخر: «ماذا، متزمت في وزارة الداخلية! يا للعار يا سيد جورج، لا عجب من وقوع كل تلك المجريات في البرلمان طالما أن وزارة الداخلية نفسها بدأت تتحدث بتلك الطريقة.»

قال اللورد دالبيتي: «بالطبع، النظام كله عبثي. والنظام يشبه إلى حدٍّ بعيد قمار الروليت غير أن العالم كله داخل في تلك اللعبة. ولكن لا تعطيك الحياة كل ما تريد.»

سأل كينيرد: «لا سيما حين تتحدث عن رياضات دموية. ما الذي ينبغي أن يفعله الفتى؟»

لم يتوقع أحد أن تجيب آيفي بيل كلينتون إذ قالت: «يقنص الأجداد.»

ضحك الجمع بأكمله، ولكن روبرت لما راقب كينيرد رأى أنه تفاجأ بالرد على الرغم من أنه كان يضحك. أردف السيد جورج:

«ما ينبغي لي الاعتراض على نظام البورصة إذا كانت إدارتها تتسم بالشفافية بحيث توفر للمضاربين المخاطرة بأموالهم في ظل ظروف إدارة سليمة. لكن عند أخذ الأمر على محمل الجِد الآن، فعندما تتأرجح الحكومات بسبب بعض الشائعات البلهاء التي لا يعلم منبتها إلا الله، ومِن ثَم تغرق مدن كاملة في الفقر والبطالة نتيجة لتلك الشائعات، فإني أتعجب كيف للعاقل أن يتهاون في هذه العملية ويدافع عنها. أعلم أن الآنسة أويسيل ستسامحني حين أقول إنه لا عجب من قنص بعض العلية بالرصاص. لا أفهم لماذا لا يوجد مطلب عام من الشعب بضرورة وقف هذا النظام بأكمله.»

علقت السيدة بيل كلينتون: «لا تعلم ما يحدث لهم. وهذا هو السبب في السماح لنا بإقامة هذا العشاء على نفقة ديك.»

قدم الخادم القهوة ثم أغلق الباب بعدما انتهى من تقديم خدماته. صمتت المجموعة فجأة. شعر الجميع بالحيرة ما عدا آيفي. قالت: «حسنًا، ماذا تتوقعون أن يحدث الآن؟»

أشعل اللورد دالبيتي سيجاره على قدْرٍ من الحذر. «لم تنتهِ الحفلة بعدُ يا عزيزتي. إننا بانتظار ضيفين أو ثلاثة ضيوف.»

«بالتأكيد ليس من أجل العشاء؟»

«رجوت أن يتمكنوا من المجيء على العشاء، ولكن لما كانوا يحاولون الوصول إلى حلول ألغاز جديدة، فقد قالوا إنهم سيكونون هنا بحلول العاشرة.»

تعجبت آيفي: «حلول ألغاز جديدة ... لكن يا للعجب! هل نحن في انتظار لوحة كبيرة تضم «القتلة المصنَّعين» أم أنك ستخبرنا عن ذلك مسبقًا؟»

«لن يطول الانتظار الآن يا آيفي. وقد لا يكون هناك ما يقال. ولكنها تبدو فرصتنا الوحيدة للتوصل إلى أي شيء.»

خيَّم الصمت على الحضور، صمت وكأن على رءوسهم الطير وكأنهم في جلسة تحضير الأرواح. حاول كلٌّ منهم أن يكسر هذا الصمت، ولكنه يشعر وكأن الكلمات تموت عند شفتَيه لا تخرج. جلست أنيت وكأنها تمثال من العاج. أحسَّت آيفي أن عليها الصراخ خشية أن يظهر شبح المقتول. لم يجلسوا إلا بضع دقائق، ولكن أحسَّ كلٌّ منهم وكأنها ساعات حيث إنه لم يكن هناك طرق على الباب. الباب فتحه المفتش بلاكيت الذي أبقاه مفتوحًا حتى تدخل جريس ريتشاردز ومن بعدها سانكروفت. تبعهما المفتش وأغلق الباب من خلفهم.

نهَض دالبيتي، ولكن بقي الآخرون جالسين ساكنين ولم يخرجوا من حالة الصمت الموحش.

سُحب مقعد إلى المائدة من أجل جريس. وجد الرجلان مقعدَين لهما — جلس المفتش على مقعد بجوار الحائط وجلس سانكروفت على حافة طاولة تقديم الطلبات.

غريزة الضيافة لدى السيدة بيل كلينتون ساعدتها على أن تعود إلى حالتها الطبيعية. «أرجو أن يكون لديكما بعض الأخبار، لأنني لا أظن أننا سنتحمل إحباطًا آخر.»

نظرت جريس إلى اللورد دالبيتي. قالت: «لدينا بعض الأخبار. أظن أننا في طريق الوصول إلى الرجل الذي تسبَّب في مقتل السيد أويسيل، ولكن لا يزال الرابط إلى المسدس مفقودًا.»

دوَّى الصوت العميق من المفتش بلاكيت: «أظن أننا لن نستغرق وقتًا طويلًا في العثور عليه. إنها فقط مسألة ...»

وهنا، توتَّر الجمع بأكمله وانفعلت أعصابه وكاد الذهول أن يُميتهم. فجأة، بدأ جرس التصويت يدق. صرخت السيدة بيل كلينتون: «أوه»، وجدت أعصابها المرهقة المتنفس الذي حرمها من سيطرتها على نفسها في نصف الساعة الأخيرة.

سلك ويست وكينيرد طريقهما إلى الباب كي يصعدا من أجل التصويت. نهضت جريس فجأة مُهتاجة من الانفعال. «إنه القاتل أيها المفتش! أوه، ما أحمقنا! إنه هو!»

قال بلاكيت: «يا إلهي، إنك على حق!» وحينها اندفع سانكروفت إلى الباب. «ليأتِنا أحد بسُلَّم خشبي.»

الفصل العشرون

قال كينيرد بصوت منخفض إلى ويست: «يجب أن نُصوِّت. سيبقى الحل إلى أن نعود.» لم يكد ويست يسمعه ولم يلاحظ أحد ذَهابه. كوَّن كل منهم مجموعة متحمسة حول جريس باستثناء أنيت إذ ظلت هادئة وأشعلت سيجارة أخرى. قالت آيفي بيل كلينتون بعدما لم تَعُد تتمالك نفسها تمامًا: «ما الأمر؟ ما الأمر؟ أخبرونا.» عاد سانكروفت وبلاكيت ومعهما سُلَّم خشبي.

قال بلاكيت بحدَّة وهو ينظر إلى الجمع: «أين كينيرد؟»

قال ويست: «لقد صعِد من أجل التصويت. قال إنه سيعود على الفور. كان يتعين عليَّ أن أذهب، ولكن لا أستطيع ترك ما يجري الآن.»

قال بلاكيت: «اللعنة!» وقف الآخرون مذهولين بينما أخذ هو سماعة الهاتف. «أوصلني بمكتب المفتش ... شكرًا يا بورن. لا تدع السيد كينيرد يغادر المبنى. أمر ضبط؟ لا، بالطبع لا. فقط أبقِه عندك أو اطلب منه المجيء إلى الغرفة جيه، حسنًا؟»

حينئذٍ، أسند سانكروفت السُّلَّم الخشبي على الحائط، وأخذ يحاول في الشبكة الصغيرة التي تحتوي على جرس التصويت باستخدام مِفك براغي. تلك الشبكات المربعة الصغيرة — غير البارزة والقريبة من السقف — أشياء معتادة في كل طرقة وفي معظم غرف المجلس. إنها تُخفي الأجراس التي تدوِّي في المبنى صاخبة حين النداء إلى التصويت.

«هنا يا بلاكيت! انظر!»

تعجَّبت السيدة بيل كلينتون وأصرَّت على أن تكون الشخص التالي الذي يصعد السُّلم: «دعني أنظر أنا أيضًا.» شهقَت قائلة: «إنه هنا.» إنه مسدس مثبت ببراعة بحيث صُوبت فوهته تجاه قلب أي شخص يجلس على الكرسي على رأس الطاولة.

سألت آيفي بيل كلينتون وهي تنزل من فوق السُّلَّم الخشبي حذرةً وتُفسح الطريق إلى المفتش المهذب غير الصبور: «ولكن كيف تنطلق الرَّصاصة من تلقاء نفسها؟» قال بلاكيت وهو يتفحَّصه بعناية باستخدام كشاف يدوي: «هذا سهل. يوجد وصلة مكسورة هنا. لا بدَّ أنه ثُبت بحيث تعود الوصلة المكسورة إلى مكانها مع أول قرعة من جرس التصويت في الساعة التاسعة تلك الليلة، ومِن ثَم سحب الزناد. عبقري ملعون، ولكن — يا إلهي — لماذا لم نفكر البتة في سحب هذه الشبكة عندما نقرنا على كل بلاطة في المكان؟»

صعِد اللورد دالبيتي كي يُلقيَ نظرة. «إنه عبقري كما قلت يا بلاكيت، ولعبة أخذت بكل مجامع البساطة. أظن أنني كنت أرى تلك الشبكة في كل مرة أعود فيها لأنظر في تلك الغرفة، ولم يخطر ببالي أنها قد تحمل شيئًا غير الجرس.»

قال ويست منفعلًا: «يا إلهي، هذا المسدس الذي كان يسعى الرجل في الطرقة إلى أخذه يا بلاكيت. سُحب الشرطي بحيث يتمكن أحد من إبعاد هذا المسدس. ولو تمكن من الحصول عليه، لما وصلنا إليه الآن.»

رد بلاكيت: «جميل منا أن أبقينا حارسًا على تلك الغرفة. ولولا ذلك، لتمكن الفاعل أيًّا كان من الفرار بفعلته دون حساب.»

«ومن وضعه في هذا المكان؟ أليس ...؟» نظرت السيدة بيل كلينتون إلى أنيت ولكن لم تستطع أن تلفظ اسمها. رن جرس الهاتف. أخذ بلاكيت السماعة. «ماذا، ليس في المجلس؟ ولكن سيارته في ساحة ركن السيارات. لكن لا بدَّ أنه هنا. ابحث في كل مكان. لا يُعقل ألا تجده. حسنًا، ضع حارسًا عند كل مخرج.» أعاد المفتش سماعة الهاتف ونظر إلى أنيت. كانت مثل تمثال إذ لم يصدر عن وجهها الأبيض أي حركة أو تعبير، وقماش الساتان الثقيل قد التفَّ بإحكام حول أطرافها وكأنه دثار من الحجر.

لم يقلْ بلاكيت لها شيئًا. ولكنه أسرع خارجًا من الغرفة.

التفت اللورد دالبيتي إلى سانكروفت وجريس. «والآن، هلا تفضلتم وأخبرتمونا ما الذي حدث، ولكن أريد كأسًا من الخمر قبل أن يبدأ أحد ...» وناولته جريس الكأس المقدمة له وقبلها سانكروفت مبتهجًا. قالت: «يبدو أن المفتش بلاكيت انطلق وراء مُهمَّته في وقت ينبغي أن يتواجد فيه هنا كي يسمع كل المدح. إنه رائع حقًّا. أنا لم أفعل شيئًا إلا بأوامره.»

سألت السيدة بيل كلينتون غير صابرة: «ولكن ما الذي فعلته، ماذا حدث؟»

أصبحت جريس حادة في تصرُّفاتها. فهي لديها حسابات تسويها مع خَصمها المفعم بالحيوية. ربَّت اللورد دالبيتي على يد صديقه بحرارة وشجع جريس بنظرة تقول لها تقدَّمي.

قالت بنبرة هادئة بعدما تلاشى الحماس الغيور من صوتها: «حسنًا، عندما طلب مني بوب، أقصد السيد ويست، أن أعرف أكبر قدر من المعلومات، تحدثت إلى المفتش بلاكيت أولًا.»

علَّق اللورد دالبيتي: «فتاة راشدة. معظم النساء سيردن القيام بهذه المهمة من تلقاء أنفسهن.»

بعد هذا التشجيع، زال قدر ضئيل من حدة جريس. «طلب مني الحديث إلى شخص بعينه وهو أحد عمال النظافة إذ كانت ابنته على عَلاقة بسيدريك؛ وهذا خادم الضيافة المسئول عن الغرفة جيه.»

تمتمت السيدة بيل كلينتون: «سيدريك، يا لها من رومانسية!»

تجاهلت جريس مقاطعة الحديث ولكن أحسَّ اللورد دالبيتي أن الأمور بين السيدتين تتصاعد بسرعة.

سأل مبتسمًا: «وماذا بعد؟»

«بعد فترة وجيزة، توصلت إلى أنه لا أمل من الحديث معها في المجلس أو في مكان قريب منه. كل موظفي المطبخ غاضبون بشأن المسألة برمتها. إنهم يعتقدون أن ذلك ينعكس عليهم وأن الشرطة تضايقهم لدرجة أنهم لن يتفوهوا بكلمة عن أنفسهم وتبقى عيونهم مفتوحةً كي يروا ما إذا كان أحد يتجول خلسةً ويطرح أسئلة.»

«هل يتسترون على أحد؟» هذا السؤال من السيد جورج جليسون.

«لا، لا أظن. هذا مجرد تعصُّب لفئتهم وشعور بأن العمل في المجلس لن يقف في صفِّهم. حسنًا، عندي فكرة تجعل تلك المرأة تتحدث من دون أن تشكَّ في شيء. لن أتمكن من إحضارها إلى مسكني لأنني أعيش في مسكن بالإيجار، ولذا طلبت منها أن تأتيَ إلى مسكن السيد سانكروفت هذا المساء كي تنظف الغبار عن جميع كتبه. أخبرتها أني رتَّبت هذا العمل من أجله.»

هدلت السيدة بيل كلينتون: «وهل فعلتِ؟»

ومضت عينا جريس. تدخَّل دالبيتي مرة أخرى وأنقذها.

«آيفي، ما عليك أن تقاطعيها. استمري من فضلك يا آنسة ريتشاردز.»

أدارت جريس كتفها إلى السيدة بيل كلينتون وتحدثت حصرًا إلى اللورد دالبيتي ووجنتاها محمرتان. «جعلناها تتحدث لما كانت تنفض الغبار عن الكتب. أخبرني بلاكيت أنهم قد لا يجدون شيئًا يدين الابنة. إنها لم تكن تنفق أموالًا طائلة ولا أي شيء يُثير الشبهة

من هذا القبيل. ولكن لما كانت الأم تثرثر وهي لا تُلقي بالًا لأي شيء، فقد ذكرت أنه عندما تزوج سيدريك من ابنتها، قرر أن يترك العمل في مجلس العموم وينشئ مشروعًا خاصًّا به في مجال الكهرباء. سألها السيد سانكروفت إن كان سيدريك يفهم أي شيء في الكهرباء، وقالت: «أوه، نعم. إن له خبرةً كبيرة في أي شيء له أسلاك.» حسنًا، يبدو أن تلك ملاحظة جديدة عليه. ولذا حالما تمكنا من تركها كي ترى عملها، فعلنا ذلك وأتينا إلى هنا كي نقابل السيد بلاكيت.»

سأل السيد جورج: «وهل هذا مفتاح للغز؟»

أخذ سانكروفت طرَف الحديث وأردف: «تناقشت مع بلاكيت عن نظرية مسدس مخفي. وكانت الصعوبة في معرفة مكان إخفائه والشخص الذي أخفاه. وتلك المعلومة أعطت بلاكيت المفتاح الذي يريده لحل ذلك اللغز. إنه يشك في كينيرد منذ بعض الوقت، ولكنه لم يُخبر أحدًا عن ذلك. قال لي ذلك حينما أعطيته بعض الأخبار عن شئون كينيرد المالية.»

لم يجرؤ أحد على النظر إلى أنيت باستثناء آيفي بيل كلينتون إذ ذهبت ووقفت بالقرب منها واتخذت موقفًا دفاعيًّا وكأنها تتحدى شرطة بريطانيا برمَّتها كي لا تمس صديقتها. لمَّا طال الصمت ولم يُطِقه أحد، سأل دالبيتي: «وماذا بعد؟»

أردف سانكروفت: «انتظرنا في غرفة المدير حتى انتهى سيدريك من تقديم العشاء لك. بعد ذلك أرسل بلاكيت في طلبه. هذا العشاء أتلف أعصابه ببساطة. لا بدَّ أن أعصابه من حديد حتى يواصل كل هذه الفترة الطويلة. لكن بمجرد أن رآنا، خمَّن أن سره يكاد ينكشف. قال بلاكيت بهدوء: «كم أعطاك السيد كينيرد كي تُصلح ما أفسده»، وعندها انهار تمامًا وبكى مثل الطفل.»

قالت جريس: «كان مشهدًا مروعًا يا لورد دالبيتي. لا أعتقد أنه تعمَّد إحداث أيِّ أذًى، ولكن السيد كينيرد تحدَّث إليه ... أعني ... أوه، عذرًا»، ونظرت إلى أنيت.

قالت السيدة بيل كلينتون بقوة: «لا أصدِّق ذلك. لا أصدق أن فيليب يرتكب هذا الجرم. لا يصح أن تأخذوا بكلام الخادم وتعتبروه إدانة لفيليب. هذه تهمة شنيعة، كما أن كل هؤلاء اشتراكيون. لا تصدق يا ديك.»

قال اللورد دالبيتي: «اهدئي يا سيدة آيفي. كيف تمكن من الاستمرار في وظيفته كل هذا الوقت؟ لو كان أحد غيره لفكَّر في الفرار.»

قال سانكروفت: «لم يفعل. كان بلاكيت مقتنعًا طَوال تلك المدة أنه يعرف شيئًا ما. وعلى الرغم من أن الشرطة لم يكن لديها أي دليل ضده، فإنها لم تُبعِد ناظريها عنه. كان

أمله الوحيد في النجاة يكمن في البقاء متيقظًا وعدم التغيير في القصة التي رواها ومحاولة التحلي بالشجاعة. لا يمتلك سيدريك دليلًا ملموسًا ضد كينيرد، كان كل شيء في الاتجاه المعاكس. أخبرني أنه أراد المجيء إليك ذات مرة يا بوب، ولكن كان بلاكيت معك.»

قال ويست منفعلًا: «إذن، كان هو الرجل الذي رأيته في الطرقة. علمت أني تعرفت على شيء في ساقه. هل هو صاحب الحذاء الذي رأيته في الطرقة؟»

«لا، علمت أنه كان كينيرد. ولكن عرف بلاكيت كل تلك المعلومات منه. كان سيدريك في المطبخ حينذاك وهرَّب كينيرد. لقد كنت على مشارف الموت في تلك الليلة يا بوب.»

أصرَّت السيدة بيل كلينتون: «ولكنك لم تعتمد في ذلك إلا على شهادة خادم الضيافة. وأنت اعترفت أن الخادم ليس لديه دليل ضد السيد كينيرد. إضافة إلى ذلك، كيف أُقنع الخادم بارتكاب هذا الفعل؟»

قال سانكروفت: «لقد وظَّفه خادم ضيافة في المجلس ... أوه، لا، تلك النقطة ليس لها عَلاقة بالموضوع ... منذ سنتين. كان يعطيه فرصة أخرى. ولو لم يفعل سيدريك ذلك من أجل كينيرد، لقضى عقوبة السجن المشدَّد، ولكن هذا ليس الدليل الوحيد الذي يملكه بلاكيت ضد كينيرد.» لم يأبه سانكروفت البتة بمشاعر أنيت إذ جلست تشاهد كل تلك الأحداث وكأنها تمثال. أحسَّ الجميع وفيهم جريس أن الموقف يزداد صعوبة وأصبح لا يطاق.

ساد شعور بالارتياح حينما توقَّف الكشف عن المزيد من المعلومات لمَّا عاد المفتش بلاكيت. كان وجهه مكفهرًّا وعابسًا. مشى إلى الموضع الذي تجلس فيه أنيت ووقف ينظر إليها. لم تحرك أنيت جفنها حتى. وجد روبرت نفسه مثبتًا بصره على انحناء صدرها. كادت الدموع تذرف من عينيه. ما الذي يعنيه الأمر بالنسبة إلى كينيرد؟ ولكن هي ... هل تورطت في ذلك ... هل سيلقي بلاكيت القبض عليها؟ إذن، بلاكيت يعرف معلومات أكثر مما أفشى بها له. «أنيت، أنيت.» أحسَّ أنهم جميعًا يسمعون دقات قلبها. أراد أن يخنق بلاكيت قبل أن يتفوَّه المفتش بما أتى ليتفوَّه به.

قال المفتش متجهمًا: «آنسة أويسيل، فُتش هذا المبنى من أعلاه إلى أسفله، ولكن لم نعثر على كينيرد. هل لديكِ أي فكرة عن مكانه؟»

قالت أنيت: «ليس لديَّ أدنى فكرة.» لم تحرك أي عضلة باستثناء شفتيها.

قالت السيدة بيل كلينتون غاضبة: «وبالطبع لن تخبرك إن كان لديها فكرة عن مكانه. لم أسمع عن شيء كهذا من قبل.»

نظر المفتش بلاكيت إلى اللورد دالبيتي. كان واضحًا أن استمرار أي تحقيقات مع الآنسة أويسيل أمر مستحيل ما دامت آيفي الجسورة حاضرة في الغرفة. قال اللورد دالبيتي بلطف بالغ: «آيفي، أعتقد أنه حري بكِ أن تأخذي الآنسة ريتشاردز معك وتقدمي لها العشاء وربما يرغب السيد سانكروفت أيضًا في تناول الطعام، لقد جدَّا في العمل ولم يأكلا شيئًا كما تعلمين، وبعد ذلك يمكننا التحدث إلى أنيت ونرى إن كان هناك أي طريقة للمساعدة.»

صاحت السيدة بيل كلينتون: «مساعدة أنيت! تريدني أن أترك الفتاة البائسة معكم جميعًا كي تُخضعوها لتحقيق مشدَّد عن رجل وقعت في غرامه.» تذكرت السيدة الغاضبة كل الخطب التي ألقتها عن العدالة في حضور امرأة حينما تأخذ الشرطة أقوال الشهود. فهل ستضرب بكل تلك الخطب عُرض الحائط حينما تحتاج صديقتها إلى المساعدة؟ ذهب إليها اللورد دالبيتي ووضع ذراعه على كتفها إذ كان يعرفها حق المعرفة وكان تأثيره فيها قويًّا. قال بلطف بالغ: «آيفي، يجب أن تثقي بي. سأحرص على ألا تتعرض أنيت إلى وسائل الترهيب، ولكن يجدر بك أن تذهبي الآن وتأخذي الآنسة ريتشاردز معك.»

لن يُجدي الاحتجاج نفعًا بعد الآن. خرجت السيدة بيل كلينتون من الغرفة وتبعها جريس وسانكروفت. تركتهما في الطرقة من دون أن تنبس ببنت شفة. قال سانكروفت لمَّا رآها تمرُّ مسرعةً في الطرقة: «على الرغم من ذلك، ستكون في حالٍ جيدة ما دام هناك أحد بجانبها في هذا التحقيق.» كادت دموع جريس تُسكَب. لم يكن سهلًا البتة أن ترى روبرت ويست ضائعًا في عشقه المطلق لأنيت أويسيل. وفجأة، أدرك سانكروفت ما خطبها. ومن دون كلمة أخرى، وضع ذراعه في ذراعها. «لنتناول الشطائر يا عزيزتي. لنذهب إلى الحانة.»

وبداخل الغرفة جيه، حمِد روبرت ربَّه على أنه لم يؤمر بالخروج هو الآخر. أحسَّ أنه سيفضل إثارة الشغب على أن يترك أنيت بمفردها، ولكن بالطبع ... لم يفعل. عجزه جعله يشعر بالوهن. هل سيستمر ضبط النفس لدى أنيت؟

الآن، لم يَعُد يغضب من السيدة بيل كلينتون إذ أصبحت نبرة صوت المفتش بلاكيت أرق. «السيد كينيرد خطيبك، أليس كذلك يا آنسة أويسيل؟»

أجابت أنيت: «إنه زوجي. أعرف أن القانون الإنجليزي يُعفيني من ضرورة الرد على المزيد من الأسئلة عنه.»

ساد صمت وكأنهم في القبور. وكان كل رجل يسمع صوت أنفاسه. اقترب ويست وجليسون ودالبيتي بعضهم من بعض دون أن يعوا تقريبًا. لا يزال بلاكيت يقف منحنيًا قليلًا على أنيت، رمز القانون اللعين.

وقفت أنيت وواجهتهم جميعًا. هل بدأ تملكها العظيم لنفسها ينهار؟ كانت شفتها السفلى ترتجف قليلًا. قالت فجأة: «لكن بلى، سأخبركم. ستسمعون الجانب الآخر قبل أن تسمعوا المزيد من الأقوال التي تدينه. لقد أحببت فيليب منذ أن تركت المدرسة. كان في حياتي رجال آخرون ... لكن فيليب كان حبي الحقيقي دومًا. في البداية، كان مجرد صديق لجَدي وكنت أنا مجرد فتاة. ولكنه بدأ يحبني. بادلته الحب، ولما أراد أن يتزوجني بعد ذلك، كرهه جدي. ما برِح يريدني أن أتزوج ذلك النبيل الفَرنسي المعتوه. لكن كان جَدي يعلم أنه لن يستطيع كسري. لم يحاول ... لم يحاول مباشرةً. لم يكن عطوفًا عليَّ البتة، ولكنه اعتقد أنه يمكن أن يكسرني عن طريق فيليب. تظاهر أنه وافق على فكرة زواجنا. ولكني لم أنخدع بذلك ... فأنا أعرفه حق المعرفة. إنه لم يتغيَّر البتة. ومِن ثَم حذرت فيليب، ولكنه لم يصدقني. ساعده جَدي على جمع ثروته. وعندها حاز على ثقته التامة ...» توقفت عن الحديث. ولكن لم يتحدث أحد. قالت: «حطمه جدي.»

شعر روبرت بالدُّوار. هذه الكلمات نزلت على مسامعه كأنها حُكم بالإعدام. أردفت أنيت متباطئة: «فيليب أصابه اليأس، لكنه ظنَّ أن الخطأ من عند نفسه. جَدي لم يبارِه أحد في الذكاء. لقد شجَّعه. ولا أحد مستهتر مثل فيليب. ثم رفعَه جدي إلى مكانة عالية حيث زوَّر أوراقًا مالية، وجعلها جدي بين يديه. أوه، أعلم أنه ما كان له أن يفعل ذلك ... فيليب، أعني ... لكنه كان يائسًا. أحسَّ أنه لا يجرؤ على إخباري. ولو فعل، لتعاملت مع جدي بطريقتي الخاصة.»

توقَّفت أنيت مرة أخرى. وضع اللورد دالبيتي ذراعه حول كتفيها وأسند ظهرها برفق على كرسيها. قال بصوت هادئ: «أوه يا عزيزتي، لماذا لم يأتِ إليَّ؟»

«لماذا لم يفعل ... ولكن كان يجب أن يخبرني أنا. لم أخَف البتة من جدي. ولكنكم تعرفون فيليب. إنه مُعتدٌّ بنفسه مثل لوسفير. وأخبره جَدي أنه سيخبرني بما فعل إن لم أتزوج ذلك النبيل الفَرنسي المعتوه كما سيرمي عليه التهمة ويُدخله السجن.»

«ولكن إن كنت متزوجة من كينيرد بالفعل ...؟» نبرة السيد جورج تخلَّلها الاندهاش.

«نعم، ولكني كنت قاصرًا حينما تزوجنا، وظنَّ فيليب أنه إذا زُجَّ به إلى السجن وعلمت فعلته تلك، فسأُضطر إلى الطلاق وأقضي أيامًا عصيبة مع جدي حينما يعلم بزواجنا من دون موافقته.»

أحسَّ السيد جورج بأن الآباء الإنجليز هم الأفضل على أية حال، ومِن ثَمَّ قال متعاطفًا: «أظن أنك مررت بوقت صعب.»

قالت أنيت بعد نفاد صبرها: «هذا هراء. قلت لكم إنني لم أخشَ جدي البتة. يعتقد الجميع أنه غول، ولكنه لم يُسمعني كلمة قاسية في حياته. ظاهره لا يدل على باطنه. ولو علمت أو لو أعطاني فيليب ولو أدنى فكرة، لتمكنت من خلع هذا المظهر الخادع عنه بسرعة ولأَصلح الأمور لفيليب.»

سأل اللورد دالبيتي: «إذن، لماذا لم تخبريه بنفسك عن زواجك؟»

«لأنني كنت حمقاء رومانسية وسخيفة. لأنني أحببت مغامرة إقامة العَلاقات مع الرجال الآخرين، وأن أحتفظ بذلك السر طَوال الوقت. لكنني لم أحبَّ غير فيليب على الرغم من أنه كان شديد الغَيرة.»

قال دالبيتي: «بدأت أشعر بالأسى تجاه فيليب الموضوع بين مطرقتك وسندان جدك. لا بدَّ أنه مرَّ بوقت مروِّع.»

اغرورقت عينا أنيت الجميلتان بالدموع. «أدركت ذلك الآن. لقد ضغطناه بيننا، ودفعناه من فوق جبل. لقد أحبَّني حد اليأس وأنا تلاعبت بذلك الحب. كنت أدفعه إلى الجنون في بعض الأوقات. وطَوال الوقت كان جَدي يضغط عليه ويهدده. لقد عوَّلت على خجل فيليب الذي منعه من إخباري ... وهذا ما حدث، ولكن فات الأوان. لقد ضغط عليه جَدي كثيرًا. قرَّر فيليب أنه لا أملَ أمامه إلا إن استحوذ على ذلك الدليل الذي يدينه. كان يعلم أن الأوراق محفوظة في الشقة ... تلك الأوراق التي ستدينه. واضطُررت إلى سرقتها. إنه من خطَّط للسطو على الشقة ولكنه لم يعمد إلى قتل جينكس. لقد انزعج كثيرًا من حدوث ذلك.»

سأل السيد جورج: «لكن لماذا قتل السيد أويسيل؟ أما كان كافيًا أن يسرق الأوراق؟»

«لكن جَدي بطبيعة الحال كان سيقول هي الأوراق التي سُرقت وسيشك في فيليب على الفور. أظن أن جدي كان سيسعد لو فعل فيليب ذلك. وهذا كان من شأنه أن يُصلح الأمور معي بقدر ما كان مهتمًّا. أدرك فيليب ذلك. لقد أجنه الغضب والخوف ... وبدأ يحتسي الخمر بشراهة. كنت أتمنى لو كان عندي أدنى فكرة عما يُقلقه، ولكنه لم يخبرني بشيء. بدأت زياراته إلى شارع كلارجس تقل رويدًا رويدًا، لقد كان يعيش هناك بالفعل، ولكن بالطبع كان يأتي بالقدر الذي يُبعد شكوك جَدي عنا. وأنا ظننت أنه توجد امرأة أخرى في حياته، وبدأت أجعله يشعر بالغَيرة. لقد مرَّ بوقت مُروِّع وجدي يشاهد وينتظر. آه يا فيليب.»

وقف السيد جورج جليسون في ظل جدار واضعًا يديه في أعماق جيوب سترته. موظف حكومي عملي وبعيد عن التأثر بالعواطف كما كان يظن نفسه، ولكن في تلك اللحظة تمنى لو كان هذا الشيطان العجوز حيًّا حتى يهشمه بقبضتيه.

تسمرت عينا روبرت على بقعة الدموع الكبيرة المتجمعة في جفون أنيت. هل ستسقط؟ هل ستنهار؟ كان على استعداد أن يُطلق الرَّصاص على رِفاقه في تلك اللحظة في سبيل ثانية كي يهدئها. لم يشعر بالغَيرة من فيليب كينيرد. بل إنه لمس بعضًا من العذاب الذي مرَّ به حتى الآن.

استاء المفتش بلاكيت من الأجواء العاطفية التي تثيرها تلك المرأة وأراد أن يصل إلى الحقيقة الكاملة، ومِن ثَم طرح السؤال: «هل تعرفين أي شيء عن ... إممم ... المكيدة التي دُبرت قبل قتل جدك؟»

«أوه، بالطبع لم أعرف شيئًا. ليتني كنت أعلم شيئًا! لم أرَ فيليب في تلك الليلة. فقد كنت في حفلٍ راقص. اتصل بي هاتفيًّا قبلها. وعندما رجعت وجدت الشرطة منتظرة. كان يعلم أن الشرطة ستكون هناك ولم يُرد أن يُشعرني بالخزي. أعني لم يُرد أن يتواجد هناك على الإطلاق. اتصلت به هاتفيًّا صباح اليوم التالي، وطلبت منه أن يذهب معي إلى وزارة الداخلية. لم يكن يعرف ما سأقول. لم يتجرَّأ على قول شيء عندما ثار غضبي في السيارة بعدما نفِد صبري من رواية الشرطة بأن جدي قد انتحر. وهو يعلم أن الأمل الوحيد أن يبدوَ موته وكأنه انتحار. لقد خطط كي يبدو كذلك. ذهب معي بالسيارة إلى وزارة الداخلية كي يغطي على خطته، على حدِّ علمه. ولكنه لم يتفوَّه بكلمة. آه يا فيليب، يا فيليب ...»

اختنق صوت أنيت بالنُّواح. نظر روبرت إلى دالبيتي يائسًا. قال بصوتٍ هادئ: «هل تريد أن يستمر هذا التقطيع وهي حية؟»

همس دالبيتي: «لا بدَّ أن نتوصل إلى الحقيقة كي نستطيع مساعدتها.» إنه على حق. ربما أظهر جليسون الرحمة، ولكن بلاكيت كان تجسيدًا للقانون المجرد من الأهواء.

سأل بلاكيت بهدوء: «وهل اعترف لك؟»

قاطعه ويست: «وهل هذا عدل يا سيدي؟» إذ توسَّل إلى دالبيتي لكنه أسكته بإيماءة منه. يجب الوصول إلى الحقيقة — الأفضل أن يعرفوا الحقيقة أولًا. يبدو أن أنيت أحسَّت بذلك هي الأخرى، إذ لا يوجد غير الأصدقاء الذين بإمكانهم المساعدة وإذ يجب أن يعرفوا كل شيء.

ظلَّت صامتة للحظة ثم قالت: «اعترف لي في الليلة بعد إجراء التحقيق ... جاءني في تلك الليلة ... عرف من أقوال المفتش بلاكيت أن الشرطة لم تنخدع وأنها لم تقبل نظرية الانتحار كما تقول الصحف. لم يتحمل كتمان السر في تلك الليلة. كان يعلم ماذا يعني لي أن تخرج الحقيقة رويدًا رويدًا، ويعلم أن انتحاره لن يُنقذني، وربما أظهر وكأني شاركته في جريمته إن كُشف أمر زواجنا وأنني سأرث هذه الثروة. ومِن ثَم أخبرني بكل شيء.»

بتلك الكلمات، أدركَ الرجال الثلاثة ما الحديث الذي ذكره لها. لن يقع أي لوم على أنيت. في تلك اللحظة، كانت في أفضل حالاتها، وفهم كينيرد ما كان يغامر من أجله وفقده؛ كينيرد المُساق البائس المتهور.

بدا صوت المفتش بلاكيت غير لائق بالجدية حين كسر حاجز الصمت إذ قال: «هل ثبت هذا المسدس بنفسه؟ هل قصد أن تبدو الجريمة وكأنها انتحار؟»

«نعم، أنا التي سهلت عليه المُهمَّة، وأنا التي أعطيته الفكرة من دون أن أدري. أخبرته عن العشاء، وضحكت معه على خطاب السيد ويست الذي يعتذر فيه عن أن الوزير سيُضطر إلى تركه في الساعة التاسعة من أجل التصويت. وهو الذي وفَّر الوظيفة لسيدريك خادم الضيافة. كانت كل الظروف مواتية. ثبَّت سيدريك المسدس حينما كان في نوبة عمل مبكرة. لم يفعل شيئًا سوى أن أغلق الباب. وكان سيعتذر لو أراد أحد الدخول ولكن لم يأتِ أحد. لم يرَه أحد. ولو لم تحرس الشرطة المكان، لتمكن من إبعاد المسدس بعد ذلك من دون أن يعلم أحد أنه كان في ذلك المكان.»

تحدَّث جليسون إلى دالبيتي بصوت منخفض: «إنها فكرة مرحة أن يكون ارتكاب هذه الجرائم بتلك السهولة في مجلس العموم لمجرد أن لا أحد يتوقع ارتكابها.»

قال اللورد دالبيتي: «ولكن كيف توقع أن تبدو الجريمة وكأنها انتحار؟ من أين أتته الثقة بأن جَدك سوف يأخذ مسدسه؟»

«إنه يعرف جدي جيدًا لدرجة أن يكون واثقًا من معلومة كتلك، لا سيما أن جدي علم مسبقًا أنه سيُترك وحده ولو لبضع دقائق. وفي اليوم السابق في طريقنا بالسيارة، تحدَّى جدي في الرماية. اتخذت مقعد السائق. وهذا سهَّل عليهما الحديث. كان جدي فخورًا بمهاراته في الرماية. أطلق كل منهما رَصاصة، كلٌّ بمسدسه على علامة في شجرة. أصاب جدي الهدف. سُر جدي بذلك أيما سرور، ومِن ثَم أعاد المسدس إلى جيبه. بالطبع هذا ما أراده فيليب. بدا هو وجدي وكأنهما صديقان حميمان في ذلك اليوم. لماذا لم أشكَّ في أي شيء؟»

ساد الصمت مرة أخرى. أحسَّ السيد جورج جليسون بتضاؤل تعاطفه مع كينيرد بعض الشيء. وُضعت المكيدة بدم بارد، ومهما كان الاستفزاز، فإنها لا تشبه إطلاق النار على رجل في حالة غضب.

سأل اللورد دالبيتي: «وماذا عن المفكرة؟» إنه يعلم ما يريد الوصول إليه. بمجرَّد أن تتضح المسألة للحكومة، فقد يكون هناك مخرج لمساعدة أنيت المسكينة.

«أوه، المفكرة! في البداية، اعتقدت أن اللصوص كانوا يبحثون عن تلك المفكرة. وعندما عرَفتُ الحقيقة، ظللت أروِّج لتلك الفكرة لأنني أردت لفت الانتباه بعيدًا عن الأوراق التي رتَّب فيليب لسرقتها. ومن حديثي مع السيد ويست، خمَّنت أن الحكومة لديها شيء تُخفيه. وعندما أدركت ما فعلت حينما ذهبت إلى وزارة الداخلية وأحدثت ضجَّة بأن الحادث لم يكن انتحارًا، ظننت أنها ستضلل الشرطة. ولما كان الوضع كما قلت، فكان لا بدَّ من الاعتراف.»

قالت تلك العبارة بنبرة تثير الشفقة ما دفع ويست إلى موافقتها من أعماق قلبه. قال: «بالطبع لم يكن انتحارًا! لقد حوصرنا تمامًا.» قال في نفسه، يا إلهي، ماذا كان شعورها لما أدركت أنه ربما ساعدت في لف حبل المشنقة حول رقبة حبيبها — يا لها من شجاعة أظهرتها!

أنيت في حالة يُرثى لها، أنيت المتوسلة الرقيقة، حالتها تُذيب قلبًا أقسى حتى من قلب السيد جورج جليسون. كان اهتمام بلاكيت الوحيد هو إنجاز عمله على الوجه الأكمل، ولكنه بدأ يخاف من تأثير تلك العينين الدامعتين. عرَف مكان كينيرد. لن يهتم دالبيتي وويست إلا بأنه ستظهر براءة الحكومة الآن. أظهر التعبير على وجه السيد جورج أنه حتى هو لن يكون حليفًا موثوقًا به في الوقت الحالي. لا بدَّ أن يجعل تلك الفتاة تتحدث في صُلب الموضوع بسرعة، ومِن ثَم يمكنه — بصفته محققًا حساسًا — مواصلة وظيفته المتمثلة في تقديم القتلة إلى العدالة من دون أن يعيقه أصدقاء الوزراء ونساء المجتمع القويات أمثال السيدة بيل كلينتون في كل منعطف.

حاول مواصلة تحقيقه. «وأين السيد كينيرد الآن يا آنسة أويسيل؟»

نظر اللورد دالبيتي إلى السيد جورج جليسون بنظرة ذات مغزًى، ومِن ثَم أومأ إليه إيماءة خفيفة.

قال دالبيتي: «أعتقد أن هذا كل ما نتوقعه من الآنسة أويسيل الليلة يا بلاكيت. على أية حال، فقد ساعدت الآنسة أويسيل الشرطة كثيرًا بما قالته. لقد برَّأت الحكومة تمامًا وتلك مسألة مُهمَّة حقًّا في الوقت الحالي. وبصفتها زوجة السيد كينيرد، كان بإمكانها أن ترفض الإدلاء بأي حديث. أعتقد أنه يجب ألا نزعجها أكثر من ذلك. ربما نُكمل غدًا ...»

نهضت أنيت. ثم استندت إلى ذراع روبرت. «شكرًا لك، لورد دالبيتي. أرجو من السيد ويست أن يأخذني إلى سيارتي ...» تمنى كل رجل في الغرفة باستثناء المفتش العملي أن لو يحصل على هذا الامتياز، ولكنهم تنحَّوا جانبًا لما رفع روبرت وشاحها عن كرسيِّها ووضعه على كتفَيها. مشيا معًا من الغرفة.

كانت الجلسة التي تناقش التحقيق المؤجل التي أعقبت التصويت الأخير على وشك الانتهاء وهما يسيران في الطرقة. بدأت الأجراس تدق لما نهض المجلس. وفي نهاية الطرقة، أتت صيحات رجال الشرطة، النداء الأخير في اليوم البرلماني: «من سيذهب إلى المنزل؟ من سيذهب إلى المنزل؟»

وقفت أنيت عند المدخل. نظرت إلى ساعة بيج بن. قالت بصوت هادئ: «ذهب فيليب إلى المنزل. ونسيت الشرطة أمر النهر.»

هنـــداوي